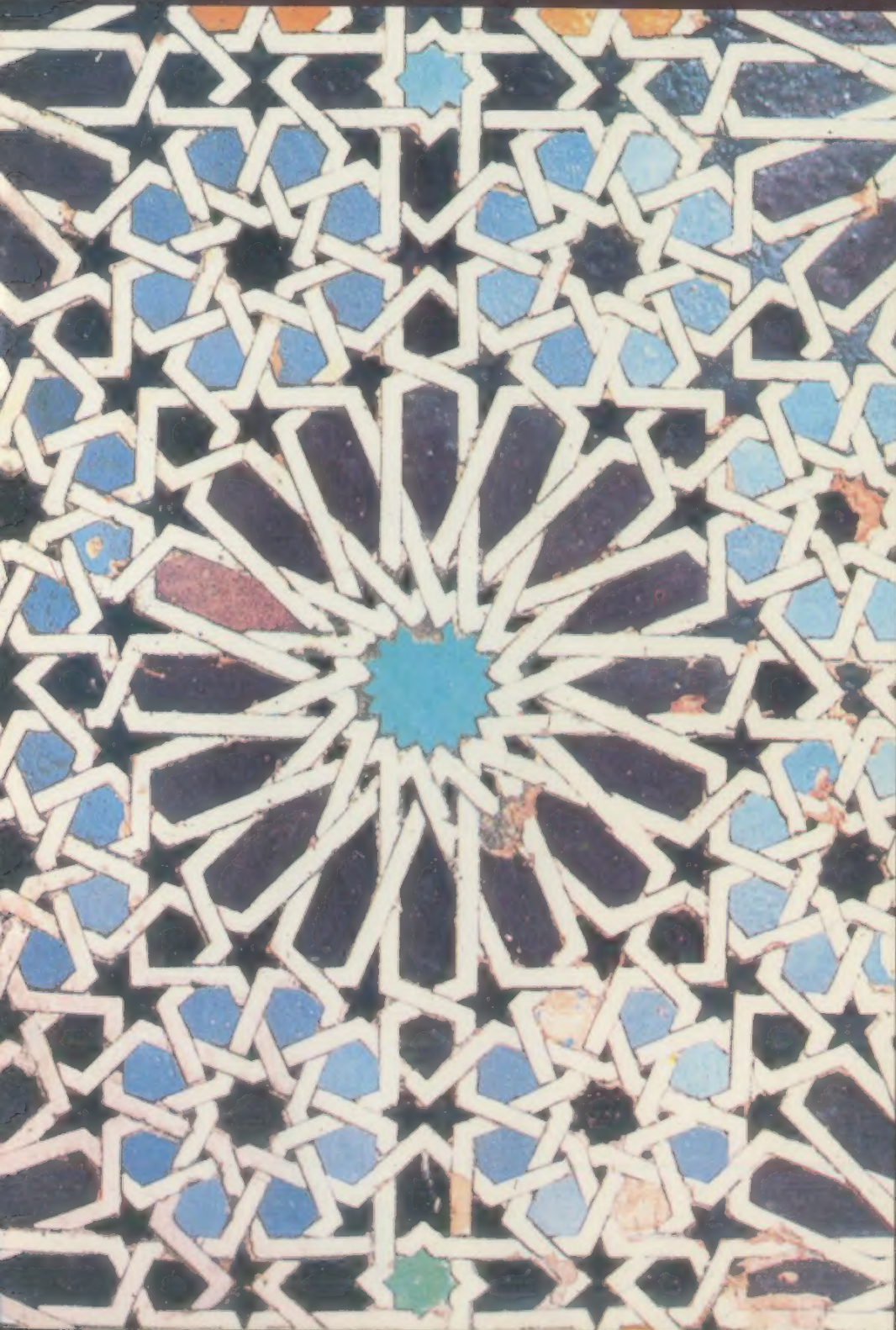


محمد المنونى

حضارة الموحدين



دار الفكر للنشر

محمد المنوني

حظارة الموحدين

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلقدير. الدار البيضاء 05 - المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تَمَّ نَشْرُ هَذَا الْكِتَابِ ضِمْنَ سِلْسِلَةِ
المعرفة التاريخية

الطبعة الأولى 1989
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب حول حضارة الموحدين، وهو في جزء منه عبارة عن كتاب سبق أن نشر بعنوان «العلوم والآداب والفنون على عصر الموحدين» في طبعة أولى صدرت سنة 1950، وطبعة ثانية صدرت سنة 1977، وقد أضفت إليه بحثين يرتبطان بنفس الموضوع، وهذا ما دفعني الى اختيار عنوان «حضارة الموحدين» لأنه يعبر عن مضمون الكتاب في كل أبعاده.

وتتميز طبعة دار توبقال للنشر بمراجعة جديدة وتنسيق المصادر والمراجع أسفل الصفحات، بدلا من تشتتها داخل النص، مع توضيح أكثر لهوية المستندات عند مسردها آخر الكتاب، هذا إلى أن هذه الطبعة الجديدة تظهر في شكل أكثر حداثة.

وقد ساهم في إعداد الطبع المنوه به، الأستاذ الباحث عبد الجليل ناظم مساهمة موفقة، على أن الفضل الأكبر في نشر هذا الكتاب والسهر على إخراجه في حلتة الأنيفة يعود إلى الأستاذ الدكتور عبد اللطيف المنوني، فله ومعه الأستاذ عبد الجليل ناظم وأعضاء دار توبقال جزيل الشكر وموفور الشناء.

الرباط. الاثنين 8 ربيع الأول 1410

19 أكتوبر 1989

محمد المنوني

تشكرات

أقدم بآيات الشكر وعبارات الثناء للمرحوم الأستاذ العلامة المؤرخ المطلع سيدي عبد الله كتون على ما بذل من جهد مشكور في ظهور جزء من هذا البحث لأول مرة.

ولا أنسى أن أشكر العلماء الأجلة الذين تفضلوا فأعزوني كتبهم الحظية وأخص بالذكر العلامة المؤرخ المرحوم سيدي محمد دلوود الذي تلطف فأهدى أخاه نسخة من تكملة ابن الأثير، الذي كان عندي عارية من مكتبة المؤرخ الجليل المرحوم سيدي محمد بن بوبكر التطواني. ولا أنسى أيضا أن أسجل ممنونتي للعلامة الجليل مولاي المصطفى ابن زهران الذي أعزاني الكتب التالية : أخبار الحكماء لابن القفطي، صلة الصلة لابن الزبير، خلاصة، تاريخ العرب لسيدو، تاريخ المحدثين الاسلامي.

تقديم

عبد الله جنون

إنها لمنقبة جليلة لعهد مولاي الحسن، هذه الجائزة التي يمنحها كل عام لأحسن كتاب يقدم إليه في أحد المواضيع التي يعينها هو : ويكون لها مساس في الغالب الأعم بتاريخ المغرب وأدبه ورجاله. فهي أول جائزة من نوعها تقصر على المغاربة وعلى الكتب التي تؤلف باللغة العربية. وهي أول جائزة بلغت قدرا من المال لأبأس به في الظروف والأحوال الحاضرة، ولا يراعى في منحها إلا الاجادة فقط بحيث إذا لم يتقدم للمعهد ما يستحق الاجازة لا تمنح. وفيها تشجيع للتأليف والمؤلفين، وبعث للتاريخ والأدب المغربيين وإحياء لتراجم رجال المغرب المنسيين، وإعانة على نشر الآثار المغربية التي كانت تبقى منبوذة في زوايا الاهمال لتعذر النشر على أصحابها، نظرا لارتفاع ثمن الطباعة وعدم وجود دور للنشر تتولى إخراجها على نفقتها، الى غير ذلك من الفوائد التي تضمنتها هذه الجائزة والصعوبات التي ذللتها.

وقد كان من الموضوعات المقترحة في السنة الماضية (1948) هذا الموضوع الذي يتناوله هذا الكتاب الذي بيد القاريء وهو (العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين) إلا أن صاحبه لم يتمكن من تقديمه للمعهد في إبانته، فهو ان لم يظفر بالجائزة فلا أقل من أن ينشره المعهد ويعمم فائدته بين الجمهور المثقف، إذ كان من سنة المعهد أن يضطلع بنشر الكتب المفيدة والتأليف القيمة التي بين أيدي الناس كثير منها الآن.

وصاحب هذا الكتاب عالم من علماء الشباب المثاليين، جمع الى العلم والاطلاع النفس الزكية والأخلاق الفاضلة، وقامت به صفة الباحث الصبور والعامل الدؤوب فلا جرم أن يجني أطيب الثمرات ويحصل على أحسن النتائج، فإنما هي همة وإدراك، واجتهاد ونجاح. وكان الأقدار لما تناولت فاغتالت عالم مكناس ومؤرخها وكعبة القصاد فيها المرحوم مولاي

عبد الرحمن ابن زيدان أرادت أن تعوض منه خلفا صالحا وتبقي هناك على وارث جدير بسره هو الأستاذ محمد المنوني الذي يعد بحق مفخرة من مفاخر العاصمة الاسماعيلية في هذا الصدد.

أما كتابه هذا فإنه غاية ما يدرك في هذا الباب، على الأقل في هذه المدة القصيرة التي أخرج فيها، ومع إعواز المصادر الكافية الذي يحسه كل من عانى هذه المباحث المتشعبة، لاسيما وقد سلك فيها نهجا علميا معبدا قلما تأق لمن زج بنفسه في هذا الميدان، من الكهول والشبان، فهو عمل أدبي تام أو كاد أن يكون تاما وإنتاج علمي محرر قارب أن يكون خاليا مما يلاحظ عليه سواء في مادته وأسلوبه ونظامه وترتيبه.

ليس فيه شيء من هذه المقومات البعيدة كل البعد عن الموضوع التي إنما يراد بها الملء والتضخيم حينما يعوز العلم والتحصيل، فترى الكاتب يحبط بحبط عشواء ويضرب في كل واد مدعيا أنه يهيء المداخل ويقرب الأبعاد فلا يصل الى المقصود بالذات إلا وقد استغرق جل الكتاب في أشياء لاعلاقة لها بما يقصد إليه، وإذا البحث هزيل في مخبره. سمين في مظهره، ولكن أين في نقد الكتب ذلك الميزان الذي يخلص الماء من اللبن المغشوش ؟

لقد هجم الأستاذ المنوني على موضوعه ولم يتناوله من ذيوله ولا من أطرافه، بل قصد الى اللب والصميم، وترك اللف والدوران وإن كان قد قدم بين يديه مقدمات فإنها مما يرتبط بمادته تمام الارتباط ويكون كالإطار الجميل المحيط بالصورة والمتمم لمنظرها البديع. ثم هو قد رتب ترتيبا طبيعيا فتناول العلوم ثم الآداب ثم الفنون، وهذه أيضا تناولها بالنظام الكامل والترتيب الواجب اتباعه في كل منها، فالسلسلة متتابعة الحلقات، والأفكار متسلسلة لا يجد القارئ أدنى عنت في الربط بينهما بل إنها في ذلك النظام والترتيب لتغريه بالمطالعة والاسترسال في القراءة حتى يفرغ من كل بحث وقد أحاط به علما تصوريا وتصديقا في زمن يسير وجهد غير كثير.

على أن جوهر الموضوع ومادة البحث في كل باب من هذه الأبواب الثلاثة، قد استوفى استيفاء تاما بالنسبة لما هو موجود ومعروف في المصادر حتى الآن. فلم يترك شاردة ولا فاذة إلا أحصاها وحصلها ولا شاردة ولا فاردة إلا تتبعها وقيدتها، وهذا جهد المقل الذي يستوجب الشكر الكثير. والاقبال هنا راجع الى ناحية المصادر لا الى ناحية الكاتب، فإذا ظهر قريبا تاريخ ابن صاحب الصلاة والجزء الرابع من ابن عذاري وبعض المجموعات الأدبية التي تزيد الموضوع اتساعا، فقد تمتد رحاب البحث الى أبعد مما وصل إليه المؤلف، ولكن ذلك لا يزري بكتابه كدرس حافل بالغنى الجني مما وصلت اليه المعارف في عصر الموحدين من نضج وإثمار.

وللمؤلف حس دقيق ونظرة نافذة في تحليل الأمور وتحقيق المسائل والتنبه الى الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب فعقب هو عليها بما يبين وجه الصواب فيها كهذا النص المتعلق بنسب ابن تومرت والمحرف عند يوسف أشباخ وقد رده المؤلف إلى ما يظهر أنه الصواب، ورد أيضا نسبة كتاب في الفلسفة الى المهدي بن تومرت وقعت غلطا في كتاب تاريخ الأدب العربية لجرجي زيدان كما صحح بعض الأوهام في مبحث الجغرافية وهذا المبحث في الكتاب بلغ من الدقة والتحرير حد الاتقان فنهني عليه المؤلف.

ونحن مع كامل التقدير لجهود المؤلف وتمام الموافقة على جل ماله من أنظار، فإننا لانخفي عدم قبولنا لبعض الآراء التي ذهب اليها في بعض المسائل كترجيحه أن الموحدين كانوا ظاهرية في الفقه وأن دعوتهم لنبد مذهب مالك لم تكن إلا للتمسك بمذهب داود، وتأويله للنصوص التي تدل على أنهم كانوا أهل سنة وحديث، وإن دعوتهم كانت للاجتهاد المطلق، بما يؤيد نظره ويعضد ترجيحه.

وكإنكاره للمحاورة الشعرية المشهورة التي جرت بين عبد المومن ابن علي ووزيره ابني جعفر بن عطية تاييدا لما ذهب اليه من أن الطابع الديني الغالب على الدولة جعل الشعر الغزلي يقل بل ينعدم من بين موضوعات الشعر وهذا تعمق كبير فما منع الروح الديني المسيطر على الصحابة في عصر النبوة من أن يقول كعب ابن زهير (بانت سعاد) وينشدها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة في المسجد وتكون سببا في نجاته وإجازته. ومخالفتنا أو مخالفة غيرنا للمؤلف في نظر يذهب اليه. لاتقدح في قيمة الكتاب، لأن الانسان قد يذهب في مسألة ما إذا كانت نظرية، مذهبا يخالف مذهب غيره، وليس بلام أن يتفق كل الناس في كل المسائل. والذي يقدر في قيمة كتاب من الكتب هو مخالفته للقواعد المقررة والأصول المحررة وتحريفه للنصوص وعدم إحاطته بالموضوع وما الى ذلك. وقد علم أن كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين بريء من كل هذه العيوب بالغ الغاية في الجودة والاتقان يستحق عليه مؤلفه كل ثناء وشكر. فنهني من صميم الفؤاد على توفيقه ونجاحه ونقدمه الى الشباب المثقف والباحثين في التاريخ المغربي والحضارة الاسلامية كأحسن طرفة يقدمها صديق الى صديق.

طابع دولة الموحدين

كانت حالة العالم الاسلامي في الوقت الذي قامت فيه دولة الموحدين لاتبعث على الاطمئنان، فالدولة العباسية بالعراق ودولة الفاطميين بمصر بلغتا الى طور الهرم المزمع الذي لاقىام بعده، ودولة المرابطين بالمغرب كانت كافرة مجسمة في نظر المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، وإن كان لم يشايعه على هذه النظرية سوى أتباعه منهم، وكان ابن تومرت هذا ساح في الشرق حيث أخذ عن الغزالي وأبي بكر الشاشي وابن عبد الجبار ببغداد، وعن أبي بكر الطرطوشي بمصر، وفي المغرب حيث قرأ على ابن حمدين بقرطبة من الأندلس، وعائين حضارة هذه البلاد التي ساح فيها، وتشبع بأفكار أهلها عامة، وبخاصة أستاذته، وبصفة أخص الغزالي.

وأدرك خطر الحالة التي عليها العالم الاسلامي، وقدر أن علاجها ليس في تأسيس إمارة أو مملكة، بل في إنشاء خلافة إسلامية عامة، تضم تحت لوائها العالم الاسلامي بكامل حدوده، وتتولى زعامتها الدولة الموحدية.

ولأجل أن تؤدي هذه الدولة مهمتها حق تادية، أراد ابن تومرت ومؤسسوها من بعده أن تكون حضارتها مطبوعة بطابع العظمة والدين والتجديد في سائر مظاهرها.

ولتوضيح شأن هذا الطابع الثلاثي : نبين أن من مظاهر عظمة هذه الدولة تلقيب ملوكها بأمرأ المومنين والخلفاء، وانظر في هذا الثاني إلى ما جاء في المعجب (1) : أن ولد الشرف الطليق المرواني لما أتم إنشاد قصيدة صنعها في مدح عبد المومن قال هذا الأخير : بمثل هذا تمدح الخلفاء. وفي المعجب (2) : «إن يعقوب المنصور كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول»، وكذا أسسوا أكبر مملكة شاهدها الاسلام في المغرب، فقد امتدت المملكة

الموحدية من المحيط الأطلنطيكي الى قرب حدود مصر هذا طولها، أما عرضها فكان فيما بين الصحراء الكبرى وجبال الشارات بالأندلس.

وحاولوا الاستيلاء على مصر وأسسوا بها جمعية لهذه الغاية، جاء في المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب (3) : أنه كان للمهدي بالبلاد المصرية جمعية من أنصاره ينشرون دعوة الدولة الموحدية في البلاد المشرقية، وقد عد أسماءهم واحدا واحدا، وفي أواخر أيام يعقوب أراد أن يحقق هذه الفكرة؛ جاء في المعجب (4) : «بلغني عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة الى المشرق، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع، ويقول نحن إن شاء الله مطهروها. ولم يزل هذا عزمه رحمه الله الى أن مات»، ولم يكن غزوهم لمصر إلا طريقا لما وراءها من العالم الاسلامي، يشير لهذا ما جاء في ترجمة أبي الوليد القرطبي : أنه قدم مصر هاربا من عبد المومن ودولته لما ظهر على المغرب، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز، فخاف أن يحج فدخل اليمن، ثم خاف أن يظهر على اليمن فأراد أن يتوجه الى الهند، فمات بزييد (5). وكان أسطولهم أكبر أسطول في وقته، بشهادة طلب كل من صلاح الدين وملك الاسبان له (6)، وكان جيشهم في واقعة العقاب أكبر جيش شاهده المغرب الاسلامي، ونظقت بهذه العظمة آثارهم متمثلة في صوامع الكتبيين واشبيلية وحسان.

ويظهر طابعهم الديني في اهتمامهم به على أتم ما عرف. فقد كانت لهم همة عالية في الجهاد، وكان يعقوب يريد أن يجعل من الأندلس دار إسلام (7).

ولقد رمزوا لعلو همتهم في الجهاد برمزين ناطق وصامت : فالناطق يتمثل في الآيات التي كتبوها على باب القصبة الشرقي بالرباط : يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله، إلى قوله : وبشر المؤمنين (8). والصامت هو ما نقش حول إحدى نوافذ صومعة حسان جهة البحر : من صورة سيفين عظيمين مصلتين رؤسهما الى السماء، وفي تخصيص تلك الجهة بهاتين الصورتين إرهاب للعدو المهاجم من البحر، ورمز الى التهيء له والاستعداد (9).

(3) المقتبس من الأنساب في معرفة الأصحاب 30 — 32

(4) المعجب 188

(5) الديباج ص 322. النفع (1) 435—436

(6) لاستقصا (1) 174 و 176

(7) حلل 122

(8) مقدمة الفتح 47

(9) مقدمة سوق المهر ج — د

ولأنهم بلغ بهم الاهتمام بإقامة الاسلام الى حد أن قتل بعض خلفائهم على شرب الخمر (10)، وقتل آخر من رؤى وقت الصلاة غير مصل (11)، وإلى حد أن لم تنعقد عندهم ذمة ليهودي ولا نصراني إنما هو الاسلام أو القتل (12)، وإن شئت شاهدا آخر على عظيم اهتمامهم بالاسلام فاستمع لشهادة رحلة عظيم - هو ابن جبير - الذي ساح في كثير من ممالك العالم الاسلامي، وقال : ولتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة... كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين... (13).

ويتجلى طابع التجديد في ابتداعهم فكرة المهدوية بالمغرب، ونشرهم عقائد الأشعرية والشيعة، وحمل الناس على مذهب الظاهرية، وتأسيسهم (لأول مرة في المغرب) المستشفيات والمدارس العديدة والمكاتب العامة ودار الضيافة، وفيما ظهر في وقتهم من كثير من العلوم والآداب والفنون، مما لم تكن شائعة من قبل، وفي ابتكاراتهم في غير ما ميدان، سيما الحرب والادارة، (14).

وبالاجمال كانوا يريدون أن ينشروا حضارة مطبوعة بطابعهم الثلاثي : العظمة - الدين - التجديد، وكانوا يريدون أن تكون هذه الحضارة لا شرقية ولا أندلسية محضة، ولكنها حضارة قائمة بنفسها، أخذة من هذه وتلك وغيرهما، وإن طغت عليها الحضارة الأندلسية فيما بعد.

المؤثرات التي أثرت في نهضة المعارف على عهد الموحدين

إن الموحدين لم يجدوا من المغرب بلادا قاحلة من المعارف، وبالعكس وجدوها بلغت شأوا كبيرا في هذا الميدان، بشهادة قول المعجب (15) : «فانقطع الى أمير المسلمين - يوسف بن تاشفين - من الجزيرة من أهل كل علم فحوكه، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق

(10) وفيات الاعيان (2) 432. النفع (2) 100.

(11) تاريخ أبي الفداء (3) 42.

(12) انظر المعجب 203 - 204.

(13) . . . رحلة 49.

(14) انظر مجموع رسائل موحدية 53.

(15) المعجب ص - 104.

اجتماعه في عصر من الأعصار»، وقوله «ولم يزل أمير المسلمين - علي بن يوسف - من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع للملك، وإن المرابطين لم يكونوا يولون في عملهم إلا الفقهاء»، (16)، وهذا يتطلب عددا كثيرا جدا منهم.

نعم، كان فضل الموحدين على المعارف عظيما، فإنهم حافظوا على ما اختاروه منها الى حد كبير وشجعوها، كما شجعوا كثيرا من العلوم التي لم تكن رائجة أو كان محظورا رواجها في العهد المرابطي، وطبعوا كل ذلك بطابعهم الثلاثي الخاص، وإن تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم بلغ مبلغا عظيما، وكان تشجيعا ماديا وأديبا تفننوا فيه ما شاءت لهم همهم الكبيرة أن يتفننوا.

فأسسوا المدارس، وعمروا المعاهد، وجلسوا كبار العلماء، واقترحوا تدوين الكتب، وعقدوا المناظرات والامتحانات، وجمعوا الجوامع العلمية المتنوعة، وأسسوا خزائن الكتب، وسبقوا الى التعليم الاجباري، وابتكروا التعليم المجاني، ووضعوا مناهج التعليم، وإنهم لرغبتهم في نشر العلم علموا حتى باللسان البربري وكذا أحيوا سنة اهتمام عظماء المسلمين بالترجمة، فأمروا بترجمة كثير من الكتب المهمة، وانظر بخصوص هذا ما سنذكره في مبحث الفلسفة. هذا الى ما أضفوا على العلم وأهله من مرتبات وجوائز وصلات، وخلع ومراكب، وإقطاعات وتنويهات وولايات، فقد فعلوا في ذلك ما سارت بحديثه الركبان، بل إنهم شجعوا المعارف بأنفسهم وفي شخصهم، فكان كثير من خلفاء الموحدين وأمرائهم فقهاء علماء، قال السرخسي في رحلته : وهؤلاء بنو عبد المومن كنهم فقهاء علماء... نقله الزياتي في الروضة السليمانية عن النفح. هذا الى ما وجد في المغرب على عهدهم من أعلام كبار من الأندلس والقيروان وغيرهما، حتى اجتمع في فاس - على حد تعبير المعجب 238 - علم القيروان وعلم قرطبة.

وصارت مراکش هي الأخرى عاصمة علم ثانية، الأمر الذي له دخل كبير في تسمية غير واحد لها ببغداد المغرب، وكذا سبتة وطنجة وغير مدينة من مدن المغرب، وكذا وجد في المغرب لهذا العهد عدد عديد من الأدباء والفننين من أهله ومن الوافدين عليه.

يضاف الى هذا الحجم الغفير من العرب الذين توافد على المغرب في غضون هذه الدولة أيام عبد المومن ثم يعقوب، هؤلاء العرب الذين بلغوا من الكثرة الى حد أن قاسموا سكان المغرب الأولين الأرض، وأصبحوا يعمرون. جزءا كبيرا منه. (17).

(16) من بحث - 85 - حصة لاقتد 342 .

(17) انظر المقدمة 27، والاستقص ج 1. ص 166.

ولقد كان من أثر هذه الهجرة أن طبع المغرب نهائياً بالطابع العربي، وارتكزت فيه اللغة العربية والدم العربي على أساس وإلى الأبد.
وكذا عمر المغرب في هذا العهد عمارة كبيرة، والمعارف تكثر حيث يكثر العمران.

(18).

وانتشر الأمن في غير ما حقبة من أيام الموحدين، حتى كانت الطعينة تخرج من بلاد نول لمطه وتنتهي الى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يكلمها. (19).
وكان من نتائج هذه العلمية أن مهدت الطريق لمن أراد أن يسافر من المغرب أو إليه للعلم أو للسياحة.

وشاعت الحرية في هذا العهد في الجملة، حتى استطاع الشاعر الجراوي أن يرد على يوسف بن عبد المومن رده المشهور (20)، والمؤلفات التي كانت تطعن في حكومة الموحدين وفي المبادئ التي تقوم عليها، كان عبد المومن يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بقوة الحجّة بكتابة الردود عليها، مثال ذلك ما أمر بكتابته ضد الكاتب القرطبي أبي الحسن عبد الملك بن إياس. (21).

هذا الى أن المال تدفق على القوم تدفقا حتى كان خراج افريقية وحدها في كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا (22). وأنفق الناصر في غزوة افريقية مائة وعشرين جملا ذهبيا، وأعطى يوسف للال بن سعد في يوم واحد فقط إثني عشر ألف دينار (23)، ولما تمت بيعة المنصور كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب (24)، وتصدق قبل خروجه الى غزوة الأرك بأربعين ألف دينار، قال في المعجب (25) : خرج منها للعامة نصفها، والباقي في القرابة، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراکش أناعا وجعلوا في كل ربع أمناء، معهم أموال يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات، وفرق يعقوب هذا على الجنود والأمراء والفقراء في عيد (594) : 73000 شاة من ضأن ومعز (26).

(18) المقدمة ص 379.

(19) القرطاس ص : 138.

(20) انظر وفيات الاعيان ج 2 ص : 494 — 495.

(21) تاريخ الاندلس ج 2 ص : 54.

(22) المعجب 167 — 213.

(23) المعجب ص : 166.

(24) القرطاس 137.

(25) المعجب 190.

(26) الفتح ج 2 ص : 100.

وكان بستان واحد - هو الذي غرسه عبد المومن خارج مراکش - يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه عام (543) : 30000 دينار، على رخص الفواكه بمراكش، قال ابن اليسع، حلل 100، وبلغ ثمن زيتون بحيرة مكناس 35000 دينار ونحوها في السنة، وزيتون بحيرة فاس 50000 دينار ونحوها كذلك، (الروض الممتون)، ورأى ابن سعيد بسجلماسة صكا لأحدهم على آخر مبلغه 40000 دينار، (27).

وبالطبع نال أهل المعرفة حظهم وافرا من هذا، ومن أمثلته : أن يوسف جعل المرتبات للأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم، حسبما أشار لهذا عرضا في المعجب (157)، وبديهي أنها ما كانت لهؤلاء حتى كانت لغيرهم، وأجرى يعقوب المرتبات على العلماء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم (28) : ووصل للقاضي الصقلي من يعقوب المذكور فقط 19000 دينار، خارجا عن الخلع والمراكب والاقطاع، «معجب 209. الذخيرة السنية 50»، وأعطى عبد المومن للشاعر التيفاشي على بيت أحد أنشده إياه من قصيدة : ألف دينار (29)، وأعطى يعقوب لرسول صلاح الدين ابن منقذ لما مدحه بقصيدة تشتمل على أربعين بيتا ألف دينار لكل بيت، (30). وأمثال هذا كثير، تلك جملة من دواعي نهضة المعارف في عصر الموحدين. وبما أنه ورد في حديثنا في هذا الموضوع ازدهار حركة التعليم بالمغرب، والمجامع، والخزائن، وبما أن هذه الثلاثة تتطلب شيئا من التبسط، فستكلم على أوليها هنا مرجئين حديث الخزائن الى محله (مبحث الفنون).

ازدهار المعارف بالمغرب

I معاهد التعليم

لاشك أننا سنجد في مقدمة معاهد التعليم لهذا العهد الجوامع والكتاتيب، وسأكتفي في الحديث عن هذين المركزين للتعليم بما سأذكره عنهما بعد، أما ثالث هذه المراكز - المدارس - فهي التي سأحدث عنها في هذا المكان، واين - ردا لبعض الاعتقادات - أنها كانت متوافرة بالمغرب لعهد الموحدين، وذلك بما أسسه هؤلاء من مدارس بمئات سبته وطنجة وفاس ومراكش، انتجت مدرسين بارعين سابقوا علماء قرطبة واشبيلية وغرناطة (31).

(27) صح الاعشى (5) 164.

(28) القرطاس 138.

(29) وفيات الاعيان ج 1 ص : 391.

(30) النفح (1) 207.

(31) كما تقول هذا ترجمة تاريخ العرب للاستاذ سدة المعوية بملخصه تاريخ العرب 215.

ويقترن اسم عبد المومن وحفيده يعقوب المنصور بكثير من المدارس المنشأة في هذا العصر، فقد أسس عبد المومن مدارس بمراكش واستدعى ابن رشد الثاني ليستعين به على تنظيمها. الاعلام (3) 47 ولا شك أن في مقدمة هذه المدارس : المدرسة العامة لخريج الموظفين، المذكورة في الحلل الموشية (114)، المدرسة الملكية وتعليم الأمراء الموحدين أخذا مما سنذكره في مناهج المدارس قريبا. كذلك أسس عبد المومن بالرباط مدرسة تعليم فن الملاحة (32).

ويعقوب المنصور هو الآخر أسس مدارس لا في المغرب فحسب، بل وفي أفريقية والأندلس (33)، ومن المدارس التي حافظ التاريخ على اسمها مما أسسه بالمغرب : المدرسة التي أنشأها بالمدينة التي اختطها خارج مراكش، ذكرها في مسالك الأبصار. وصفها بأنها مكان جليل به خزائن الكتب. ومدرسة المسجد الأعظم بطالعة (34)، المدرسة التي سلمها المنصور للإمام أبي العباس السبتي. (35).

وفوق هذا فإن بعض الأفراد ساهموا كذلك في إنشاء المدارس، ونقصد بهذا البعض أبا الحسن الشاربي الغافقي السبتي، ابنتى المدرسة المنسوبة إليه ببلده سبتة، ثم أراد أن يجعلها على النسق الجاري بالمدارس ببلاد الشرق، فعاق عن كمال غرضه في ذلك قواطع الفتن. (36)، يفيد هذا المصدر الثاني : أنه كان لهذه المدرسة بقعة محبسة على دفن من يموت من طلبتها الغرباء.

وهناك بيت الطلبة : ويلحق بالمدارس بيت الطلبة بمراكش، الذي ورد ذكره عرضا في عنوان الدارية (161)، ثم في النفح (1) 369. وقالوا عنه إنه امتحن به ابن عات في كتاب مسلم، ولست أدري عن هذه المؤسسة أكثر من هذا، وهو يفيد أنها كانت معهدا للمناظرة وامتحان الواردين على مراكش.

ذلك ما وقفت عليه من المدارس وما إليها المؤسسة لهذا العهد، فإذا ضمت للمركزين للتعليم المشار لهما أولا، تكون معاهد التعليم حينئذ تتنوع الى حوامع، وكتاتيب، ومدارس، بما فيها من عامة، وملكية وبخرية، وبيت الطلبة الملحق بها.

وبعد أن أؤكد أن الذي استفدته من غير ما مرجع أن منهاج الكتاتيب في هذا العهد كان جاريا على مذهب المغاربة في تعليم القرآن الذي ذكره ابن خلدون في المقدمة : 495،

(32) انظر مقدمة النفح 42 — 61.

(33) القطاس 138، رقم الحلل 55.

(34) الاستقصا (1) ص : 180.

(35) الاعلام ج 1 — 269.

(36) صلة الصلة ج 300. احتصار الاحبار 9.

مدارس الموحدين * - غير البحرية - عامة وخاصة؛ كانت مناهجها على غرار منهاج تلك المدرسة، وإن كانت المدرسة الملكية تمتاز بمبالغة الخلفاء الموحدين في اختيار أساتذتها، الذين نذكر منهم على سبيل المثال : أبا العباس أحمد بن عبد الجليل التدميري المتوفى 555، استأدبه السلطان - عبد المومن - بمراكش لبنيه (38). وأبا العباس أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي المتوفى بعد 560 : أدب بني عبد المومن، بغية 130. وأبا محمد عبد الله بن أحمد بن محمد اللخمي الأشبيلي المعروف بابن علوش والمتوفى بعد 599 - استأدبه المنصور لبنيه (39)، وأبا محمد عبد الله ابن سليمان ابن حوط الله الأنصاري الحارثي البلنسي 549 - 612 استأدبه المنصور لبنيه. تكملة 1435، وأبا الحسن علي بن محمد بن يوسف الفهري اليابري الضرير المتوفى : 617، أدب ولد السلطان بمراكش (40).

2. الجوامع

والجوامع كانت كبارا مثل القرويين وجامع سبتة، وكذا جامعا مراكش ومكناس، وجوامع كبريات المدن المغربية الأخرى، كما كانت - طبعا - جوامع صغار.

وكانت العادة أن لا ينتصب للتدريس في الجوامع الكبار إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين في وقته، وكانوا ينازعون أنفسهم في هذه المرتبة، حسبما يوضح هذا من النشر المخطوط، ورقة 286 نسخة - المكتبة الأحمدية - بفاس، وكان أسلوب التدريس عندهم ممتازا، وكان يقوم على التدرج بالمتعلمين في مدارج التعليم، ومن أمثلة هذا ما جاء عن الأستاذ أبي علي الشلوين أنه دخل مراكش فوجد الشيخ الجزولي النحوي يدرس في مسجده علم العربية، فلما قعد إليه إذا بين يديه حلقة من المتبذئين يقرئهم على قدر أفهامهم، فألقى عليه سؤالا فأجابه بجواب متوسط على قدرهم، ثم ارتفعوا فجأة حلقة أخرى للنجباء الشادين، فكان يلقي حينئذ الأسئلة فيجيبه بغاية التحقيق والتدقيق (41). ومن أمثلة هذا أيضا، ما جاء عن الحفيد أبي بكر بن زهر الأندلسي الأشبيلي 507 - 595، وهو ممن أقام بمراكش من المغرب مدة وتوفي بها، الأمر الذي يمكنه معه أن ينشر مثل أفكاره الآتية :

لايسعى أن تصول مدرس سبتة ضلة الذي أقف من نظامه على أكثر مما ذكرت عنه سابقا.

(38) النكمة ط الخرائج ع. 175

(39) النكمة 1421

(40) نكمة 1892

(41) عنه في تقدم ص. 126 - 127

وهو الاقتصار على تعليم الولدان القرآن، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه، بعد هذا نحاول فيما يلي أن نستعرض نظام الدراسة في هذا العهد.

مناهج التعليم وأساليبه

وحسب تنوع مراكز التعليم بالمغرب لابد أن تكون مناهجها مختلفة، فهناك مناهج للمدارس. وآخر للجوامع، وثالث للتعليم الاجباري. ومن المؤسف أننا لم نقف على نصوص تلقي الضياء واضحا على المسألة، فبعض المدارس كمدرسة تعليم فن الملاحة بالرباط، لم نقف من مناهجها على قليل ولا كثير، وبعض المدارس وكذا الجوامع مع التعليم الاجباري، عثرت بفقرات عرضية تلقي بصيصا من العلم على الموضوع، وهذا ما وقفت عليه على علته.

1. المدارس

من حسن الحظ أن صاحب الحلل المشوية أفادنا معلومات - وإن كانت غير كافية - فهي قيمة وفريدة عن مناهج المدرسة العامة لتخريج الموظفين بمراكش، قال 114 : ورئى - عبد المومن - الحُفَاط - صغار الطلبة - بحفظ كتاب الموطأ؛ وهو كتاب أعز ما يطلب، وغير ذلك من تواليف المهدي، وكان يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفَاط فيه؛ وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعموم في بحيرة صنعها خارج بستانة مربعة؛ طول تربيعه نحو ثلاثمائة باع، ويوما يأخذهم بأن يحدقوا على قوارب وخوازيق صنعها لهم في تلك البحيرة، فتأدبوا بهذه الآداب، تارة بالعطاء، وتارة بالأدب.

وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده، وخيلهم وعددهم كذلك، ولما كمل له هذا المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة، وقال : العلماء أولى منكم فسلموا لهم.

ويفيد الأستاذ يوسف أشباخ في تاريخ الأندلس (2) 51 أن هؤلاء الحفَاط كانوا يدرسون أيضا عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة (37).

فهذا الكلام يصور لنا بعض مناهج هذه المدرسة، ويبين أنها كانت مخصصة لتخريج موظفين علماء كما قلنا أولا، كما أن الجوامع كانت تخرج العلماء الآخرين، ولا يبعد أن باقي

قال في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (42): (كان الحفيد أبو بكر بن زهر قد أتى إليه من الطلبة إثنان ليشتغلا عليه بصناعة الطب، فترددا إليه ولازماه مدة، وقرا عليه شيئا من كتب الطب، ثم إنهما أتياه يوما ويبد أحدهما كتاب صغير في المنطق... وكان غرضهم أن يشتغلوا فيه، فلما نظر ابن زهر الى ذلك الكتاب قال : ما هذا ؟ ثم أخذه ينظر فيه، فلما وجده في علم المنطق رمى به ناحية، ثم نهض إليهم حافيا ليضربهم، وانهمزوا قدامه، وتبعهم يعدو على حالته تلك وهو يبالغ في شتمهم وهم يتعادون قدامه إلى أن رجع عنهم عن مسافة بعيدة، فبقوا منقطعين عنه أياما لا يجسرون أن يأتوا إليه. ثم إنهم توسلوا إلى أن حضروا عنده واعتذروا بأن ذلك الكتاب لم يكن لهم ولا لهم فيه غرض أصلا، وأنهم إنما رأوه مع حدث في الطريق وهم قاصدون إليه فهزأ بصاحبه وعشوا به وأخذوا منه الكتاب قهرا، وبقي معهم ودخلوا إليهم وهم ساهون عنه، فتخادع لهم وقبل معذرتهم، واستمروا في قراءتهم عليه صناعة الطب. ولما كان بعد مدة مديدة أمرهم أن يجيدوا حفظ القرآن، وأن يشتغلوا بقراءة التفسير والحديث والفقه، وأن يواظبوا على مراعاة الأمور الشرعية والاقتداء بها، ولا يخلو شيء من ذلك، فلما امتثلوا أمره، واتقنوا معرفة ما أشار به عليهم، وصارت لهم مراعاة الأمور الشرعية سجية وعادة قد ألفوها، كانوا يوما عنده وإذا به قد أخرج لهم الكتاب الذي كان رآه معهم في المنطق، وقال لهم الآن صلحتم لأن تقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله علي وأشغلهم فيه).

ومما يذكر من مناهج التعليم الجامعي : أن التلاميذ كانوا أحرارا في إلقاء الأسئلة على الأستاذ، وانظر في ذلك ما جاء في ترجمة أبي ذر الخثي من التكملة رقم 1098 : قد منع تلاميذه التبسط في السؤالات، وقصرهم على ما يلقي إليهم دون استزادة؛ ولم يكن ذلك لأحد من أهل عصره.

كما كان التلاميذ أحرارا في اختيار الأستاذ الذي يقرعون عليه، يشير لهذا ما فعله طلبة سبته مع أستاذها أبي علي الرندي؛ فإنه لما ورد عليها الأستاذ أبو علي ابن عاشر الملقب بقريعات، مال إليه ناس من طلبتها، وزعموا أنه أبسط عبارة من الرندي وأسهل القاء، فاستجاب إليهم غيرهم (43). ولم تخل دروسهم في هذا العهد من المناظرة.

هذه الطريقة التي بالغ ابن خلدون في الثناء عليها في مقدمته تحت عنوان : فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع (44)، وفيما سيأتي في مبحث علم المناظرة نذكر أسماء طائفة من العلماء الذين كانوا مبرزين في هذا الفن.

(42) ج. 2 ص : 69 — 70.

(43) صلة الصلة رقم 126.

(44) ص : 375 وما بعدها.

3. التعليم الاجباري

وهذا نوع آخر من مناهج التعليم لدى الموحدين، وهو الذي وضعه عبد المؤمن للتعليم الاجباري، ويقوم هذا النهاج على أنه يجب على كل من انضوى تحت راية الموحدين أن يتعلم الضروري من العقائد وما يتعلق بالصلاة. وقد بالغ عبد المؤمن في هذا الأمر؛ فجعله حتما لازما على كل مكلف - الرجال والنساء. الأحرار والعبيد - ورخص لمن يفهم اللسان البربري دون العربي أن يقرأ بلسانهم عقيدة ابن تومرت البربرية - التوحيد - أما الذين يفهمون العربية؛ فكان لزاما أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت العربية - المرشدة - وأكد على الجميع في حفظ ذلك وتدبره، وملازمة قراءته وتعاهده، كما أكد على العوام ومن في الديار في حفظ أم القرآن وما تيسر من القرآن وألزم نوابه أن يقدموا علماء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكره «مجموع وسائل موحدية»، 131 - 133 و 137 «وزيادة في الاهتمام بهذا الأمر، نرى عبد المؤمن يشرف بنفسه على مباشرة هذا النوع من التعليم الاجباري بمراكش وناحيتها ويكتب الى نواحي المملكة الأخرى يقص عليها عمله هذا، ويأمرها بأن تحتذي حذوه، وتقوم بدورها بتطبيق هذا المنهاج (45).

ويلحق بكتابي المهدي المقرر في التعليم الاجباري مجموع أحاديث الجهاد، الذي أمر يوسف العلماء بتدوينه ليملى على الموحدين ليدرسوه، فكان يمليه على الناس بنفسه، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء (46). وكذا مجموع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها الذي جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأمرهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنني من الكسا والأموال (47).

4. كتب الدراسة

أ. التفسير. الحديث. السيرة

الكتب الخمسة : صحيح البخاري، صحيح مسلم. سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، مسند البزار الكبير (48).
موطا مالك (49)، موطا بن تومرت - أعزها يطلب (50)، أحاديث الجهاد التي أمر

(45) ارجع الى المصدر المذكور 52 - 54.

(46) معب ص : 184.

(47) معب ص : 184.

(48) صلة الصلة 300، التكملة 2006. الدر النيس 351، لإعلام (1) 237 (3) 42. الحدود 334.

(49) صلة 208، 242، 300، الدر النيس 351.

(50) الحلل الموشية 114.

يعقوب المنصور بجمعها، (معجب 167)، الشهاب للقضاعي المسمى بشهاب الأخبار في الحكم والأمثال والاداب من الأحاديث النبوية، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (51)، سيرة ابن إسحاق بهذيب ابن هشام، (52).

ب. الفقه - الأصول - التصوف.

الأحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة، أحاديث الصلاة التي أمر يعقوب بجمعها (53)، الأحكام الصغرى لعبد الحق (54)، النوادر لابن أبي زيد (55)، كتاب ابن يونس (56)، تهذيب البرادعي للمدونة (57)، رسالة ابن أبي زيد (58)، تأليف عباد بن بزجان في الفرائض (59)، البرهان لامام الحرمين (60). التلخيص مختصر التقريب والارشاد له، (61)، المستصفي للغزالي (62)، رجز ابن الكتاني (63)، الارشاد لامام الحرمين (63)، الارشاد لامام الحرمين (64)، عقيدة ابن تومرت العربية - المرشدة - (65)، عقيدته البربرية : التوحيد - القواعد - الامامة - الاثنان لابن تومرت أيضا (66). العقيدة البرهانية للسلاجي (67)، شعب الايمان للقصري (68)، الاحياء للغزالي (69)، رعاية المحاسبي (70).

(51) التكملة 1608، الجذوة 263.

(52) الصلة 300.

(53) المعجب 184.

(54) التكملة 1067. زهرة الاس 48. الدر النفيس 351.

(55) مقدمة ابن خلدون 393.

(56) المقدمة 393. المعجب 185.

(57) جذوة 254.

(58) الديباج 129 — 130 الاعلام (1) 288.

(59) التكملة 1674.

(60) الصلة 242.

(61) التكملة 1062.

(62) الديباج 142.

(63) التكملة 1062.

(64) التكملة 868 — 1062

(65) رسائل الموحدين 132.

(66) الحلل 80.

(67) الجذوة 289.

(68) التكملة 1495 — الجذوة 247.

(69) السلسلة 133.

(70) الجذوة 282 — 294 — 333

ج. النحو، اللغة، القرآن، الأدب الحساب.

كتاب سيوييه (71)، الجمل بشرحه لأبي العبدري (72)، شرح أبيات الجمل، نكت على شرح الأعلام لشواهد كتاب سيوييه، الاثنان لابن هشام الدخمي السبتي (73)، مقدمة الخزولي المسماة بالقانون (74). شرح أبي ذر على غريب السير لابن اسحاق (75)، المذهبة في الحلبي والشياب وغيرها لابن اصبح الأزدي (76)، شرح أبي عمرو الغافقي على قصيدة الحصري في القراءات (77)، المنصف في رسم هجاء المصحف، (شرح ابن عاشر على مورد العمان)، رسالة القلم والدينار لابن ماكولا (78)، مقامات الحريري (79)، مقصورة ابن دريد بشرح ابن هشام السبتي (80)، صفوة الآداب ونخبة ديوان كلام العرب للجراوي (81)، لب اللب في مسائل الحساب لابي الحسن أبي فرحون القسي (82)، منظومة ابن الياسمين في الجبر (83).

هذه الكتب هي التي أمكنني الآن استخراجها من المصادر المشار لها تصريحاً في الأكثر وتلويحاً في الأقل. وإن هذه الكتب وإن لم تستوعب كل كتب الدراسة في هذا العهد، ولم تتناول كثيراً من كتب الفلسفة بسائر أنواعها التي كانت شائعة في هذا العصر، ولم تتناول كتب كثير من العلوم الأخرى، فإنها بالرغم عن ذلك تعطينا مثالا يدل على ما وراءه.

5. ملاحظات

تبين مما ذكرنا عن مناهج التعليم وأساليبه لهذا العهد أمور جدية بالاهتمام، فإن عبد المومن نشأ التلاميذ الذين جمعهم في مدرسته على حفظ كثير من الكتب. وكان هؤلاء التلاميذ كأبناء ليلة واحدة، وكانوا يمرنون على أنواع الرياضات، ويروون بالأدب تارة وبالعطاء أخرى، وكانت نفقتهم وسائر مئونتهم على حساب عبد المومن - كما رأينا في التعليم الجامعي؛

(71) تكملة 122. الاعلام (3) 192.

(72) التكملة 751.

(73) التكملة 1053 - الغية 19.

(74) الصلة 95.

(75) تكملة 1098.

(76) تكملة 962.

(77) التكملة 1152.

(78) التكملة 1674.

(79) التكملة ط الحرائر 461.

(80) التكملة 1053 غية 19.

(81) التكملة ط الحرائر 223.

(82) صلة 238. حذوة 306.

(83) الذخيرة 39.

أنهم كانوا يتدرجون بالتلاميذ في مدارج التثقيف - وفي التعليم الاجباري أنه كان حتى بالبربرية، وتناول حتى النساء.

ولانرى أن نمر بهذه النقط البارزة في تلك المناهج والأساليب، دون أن نعلق عليها في شيء من التوسع؛ ونبين أن الموحدين تأثروا بالغزالي شيخ إمامهم ابن تومرت في شيء غير قليل من تلك الأنظمة، فإنهم قلده.

1. في إدماج الرياضة في مناهج التعليم، هذه المسألة التي أهملت بأوروبا في القرون الوسطى، وأحيائها الموحدون تبعوا للغزالي الذي يقول في الأحياء (84) : «ويعود الصبي في بعض النهار المشي والحركة والرياضة، حتى لا يغلب عليه الكسل... وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتب أن يلعب لعبا جميلا يسترىح إليه من تعب الكتب، بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائما يميث قلبه ويبتل ذكائه، وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا».

2. وانهم كانوا يرمون بهذا إلى قرن الخدمة العسكرية والتمارين في فنون الحرب بالتعليم، ذلك أنهم كانوا يخشون أن يؤدي الانقطاع للعلم والدرس إلى إضعاف الهمم وفقدان الحماسة الحربية لدى المغاربة (85).

3. كما تأثروا بالغزالي أيضا في مزج الأدب بالعطاء، وفي هذا يقول في الأحياء (86) : ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل. وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، فإن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه... ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه.

4. وتأثروا به أيضا في مراعاة التدرج في ترقية التلاميذ من رتبة إلى رتبة، وهذا كلام الأحياء في الموضوع (87) وفيه يقرر أن يطلب من المعلم أن يقتصر بالتعليم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، فينفره أو يخط عليه عقله... وأنه ينبغي أن يلقي إلى المتعلم القاصر الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيق وهو يدخره عنه...

5. وإن المحدثين لم يقفوا عند تقليد الغزالي، فقد ابتكروا التعليم الاجباري الذي لم يفكر فيه بأوروبا إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (م).

(84) ج 3 ص. 63

(85) انظر تاريخ الأندلس 2. 51

(86) ج (3) 63

(87) ج (1) 51

6. وجروا على منهاج. التعليم بأكثر من لغة.
7. سنوا التعليم المجاني بأوسع معانيه، فإن عبد المومن - كان زيادة على قيامه بنفقات التعليم - يقوم الى جانب ذلك بنفقة التلاميذ ومثوتهم وخيلهم وعددهم كما تقدم لنا.
8. وكانوا يراعون وحدة السن في التلاميذ الذين كانوا في مدرسة عبد المومن ثلاثة الاف كأنهم أبناء ليلة واحدة.
9. كذا اهتموا بالحفظ في هذه المدرسة اهتماما ظهر أثره في نبوغ حفاظ كبار في العهد الموحدي في مختلف العلوم، وسوف يمر بنا ذكر زمرة كريمة من هؤلاء في تضاعيف الحديث عن العلوم والآداب.

وبعد هذا ننبه - تعليقا على إدخالهم النساء في التعليم الاجباري - الى أنهم لم يقفوا بالمرأة عند هذا الحد من الثقيف، بل وسعوا نطاق تعليمها، وضربوا بيناتهم مثالا لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المغربية، ومن بنات الخلفاء المثقفات التي حافظ عليها التاريخ (زينب بنت يوسف بن عبد المومن) حرم الأمير عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن، أخذت عن أبي عبد الله بن ابراهيم علم الكلام وغير ذلك، وكانت عالمة صائبة الرأي فاضلة معروفة بالشفوف على نساء زمانها، وترجمتها في التكملة وزوائد عدد 2122.

وكما ضربوا ذلك المثل الملكي لتعليم المرأة، كذلك نراهم يولون النساء المثقفات على عهدهم التفاتا خاصا يفتحون أبوابهم في وجوههن، ويصلونهن، ويزيحن ظلامتهن، ويستمعون - هم وبعض أمرائهم - لأدبهن، بل لقد وظفوا بعضهن معلمات بقصر الخلافة. وعلى سبيل المثال نذكر الأدبية الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية، كانت أستاذة وقتها، وانتهت الى أن علمت النساء في دار المنصور، وتوفيت بمراكش آخر سنة 586 (88).

ومما قالته في عبد المومن وانشدته ارتجالا بين يديه :

يا سيد الناس يا من	يؤمل الناس رفته
امن على بطرس	يكون للدهر عدة
تخط يمينك فيه	الحمد لله وحده (89)

وكتبت الى السيد أبي سعيد أمير غرناطة تهنته بيوم عيد :

ياذا البعلی وابن الخليفة	والامام المرتضى
يهنيك عيد قد جرى	فيه بما تهوى القضا

وأنتاك من تهواه في قيد الانابة والرضى
ليعيد من لذاته ما قد تصرم وانقضى (90)
والأدبية أسماء العامرية الاشيلية، كتبت الى عبد المومن رسالة تمت إليه فيها بنسبها
العامري، وتسأله رفع الانزال عن دارها والاعتقال عن مالها، وفي آخرها قصيدة أولها :
عرفنا النصر والفتح المبينا لسيدنا أمير المومنين
إذا كان الحديث عن المعالي رأيت حديثكم فيها شجوننا
ومنها: رويتم علمه فعلمتموه وصنته عهد ففدا مصونا (91)

والأدبية الشلية - لم يعرف اسمها - كتبت الى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من
ولاية بلدها وصاحب خراجها :

قد آن أن تبكي العيون الأبية ولقد أرى أن الحجارة باكية
ياقاصد المصر الذي يرجى به إن قدر الرحمن رفع كراهيه
ناد الأمير إذا وقفت ببابه ياراعيا أن الرعية فانيه
أرسلتها هملا ولا مرعى لها وتركتها نهب السباع العافيه
شلب كلا شلب وكانت جنة فأعادها الطاغون نارا حاميه
خافوا ما خافو عقوبة ربهم والله لا تخفى عليه خافيه

فقال : إنها ألفت يوم جمعة على مصل المنصور، فلما قضى الصلاة وتصفحها بحث
عن القصيدة فوقف على حقيقتها وامر للمرأة بصلته (92).

ومن النساء الأندلسيات اللاتي دخلن المغرب لهذا العهد واتصلن بأعلامه وتوفين به :
امراة تسمى خيرونة أو خدونة، كانت فقيهة صالحة. ومما يذكر من مفاخرها أن باقتراحها
وضع الامام السلاجي عقيدته الشهيرة، توفيت سنة 594، ودفنت خارج باب الفتوح بازاء
قبر الفقيه دراس ابن اسماعيل (93).

الثانية أم المجد مريم بنت أبي الحسن الشاري السبتي أوردها في (اختصار الأخبار) 6.
محليا لها بالمسندة وقال أنها مدفونة بالبقعة المحبسة على دفن من يموت من طلبة مدرسة والدها

(90) النسخ 2 433

(91) .أ.أ. الكملة 2830. النسخ 2. 493

(92) .أ.أ. الكملة 2890. النسخ 2. 494

(93) .مساهمات أعلام فارس في القدماء المسبوق لاس الأحرار. الحدودة 290. السلوة. 2. 183

بسببة. وهذه الفقرة الأخيرة تفيد أن أم المجد كانت طالبة بالمدرسة الشاربية المذكورة، كما تفيد أن هذه المدرسة كان يقرأ فيها حتى النساء.

ونتابع هذه الملاحظات ببيان أن منهاج الموحدين في التعليم كان يقوم على اختصار مراحل الدراسة. وهذا ما يفيد ظهور نوابغ مبكرين على عهدهم.

ونشت من هؤلاء أنا محمد عبد الله ابن المعلم تولى خطابة القوسين - وناهيك بها إذ ذاك - وسنه 18 سنة، (94)، وصاحب المعجب عبد الواحد المراكشي كان من هذا الرعي كما يفصح عن هذا كتابه المذكور، وكذا صديق له، فقد أثبت لهذا الصديق في المعجب (212 - 213) رسالة فائقة كتبها من إنشائه وهو لازال لم يحتلم بعد، يضاف لهؤلاء الامام أبو عبد الله محمد بن يوسف المزدغي الفاسي العالم الجامع المؤلف الكبير، توفي وهو ابن 32 سنة فقط (95).

وكثيرا ما نرى الموحدين يهتمون بهذا النوع من النوابغ المبكرين فالوزير بن عطية وأخوه أبو عقيل اللذان بلغا في أول الأمر مبلغا كبيرا لدى عبد المومن، قتل وسن الأول 36 سنة، وعمر الثاني 23 سنة، كما يذكر هذا في الحلة السيرا لدى ترجمة عبد الله بن خيار الجياني. وفي الندوة الأدبية التي أقامها عبد المومن فوق جبل الفتح، أنشد بين يديه الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي قصيدته المطولة، وسنه إذ ذاك لا يبلغ العشرين سنة، (96)، كما أنشد في هذا اليوم الشاعر أبو حفص بن سعيد العنسي قصيدة وهو لا يزال حدث السن. (97).

كذلك نرى ابن رشد الثاني يتولى القضاء بالمغرب والأندلس هو ابن 27 سنة، (98)، وبعد ابن رشد نرى أبا محمد بن الحفيد أبي بكر بن زهر الطبيب الأول للخليفة الناصر وجليسه، يتوفى وهو لا يتجاوز 25 سنة، (99).

تذييل

ونختم الحديث عن مناهج التعليم في هذا العهد بمسائل ثلاث :

1. استدعاء العلماء للتدريس، قال في المعجب 227 : وقد جرت عادتهم -

(94) القرطاس 42

(95) حذوة 138 - 139

(96) معجب 142

(97) حلال 118

(98) الاعلام (3) 47 - 48

(99) طلاقات الأطباء (2). 74

الموحدين - بالكتب الى البلاد واستجلاب العلماء الى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر.

ومن أمثلة هذه العادة ما جاء في المصدر المذكور 130 : أن عبد المومن كان يستدعي أهل العلم من البلاد الى الكون عنده والجوار بحضرته، وما جاء في الاعلام (1) 65 : أنه في سنة 585 استدعى يعقوب المنصور العلماء ورواة الحديث وأمرهم بتدريس حديث النبي صلى الله عليهم وسلم.

وفيما يلي أسماء طائفة من هؤلاء العلماء نذكرهم كمثال لسواهم، وهم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي المالقي 509 - 581، تكلمة 1613، وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأنصاري المالقي يعرف بابن الفخار 511 - 590، تكلمة 836. وأبو محمد عبد الله بن محمد الحجري المري 505 - 591، تكلمة 1416، وأبو الحسن نجبة بن يحيى الرعيني الاشيلي 521 - 597، تكلمة 1276، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد القرطبي 520 - 595، تكلمة 1853، إعلام (3) 47. قرطاس 131، وأبو بكر محمد بن عبد العزيز الرجيني السلاقي الاشيلي ت 907، بغية 67، وأبو جعفر أحمد بن عتيق البلسني 554 - 607، بغية 145، وأبو عبد الله محمد بن أحمد اللخمي التلمساني المكناسي الأصل ابن الحجام 558 - 614، إعلام (3) 87.

2. إنهم كانوا يبالغون في اختيار العلماء المدرسين وامتحانهم واختبارهم، ومن أمثلة هذا ما كتب به عبد المومن الى نوابه في شأن التعليم الاجباري، فإنه أكد عليهم في اختيار طلبة أمناء، وأن يكونوا من الذين يراقبون ويحافظون، ولا يراعون في حقوق الله ولا يداهنون (100). وفي شرح رقم الحلل 58 : أن المنصور طلب يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد وضبط أمر، فعرفه برجلين قال في أحدهما : وهو بحر في علمه، وقال في الآخر : وهو بر في دينه. ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرأ بين يديه، وأكذبا الدعوى، فوقع المنصور على رقعة القاضي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ظهر الفساد في البر والبحر.

3. طلبة الموحدين : وكان المعتنون بالعلم قد قسمهم الموحدون الى طبقتين : طلبة المصامدة، وهم من عني بالعلم من هؤلاء، وطلبة الحضرة، وهم العلماء من غير المصامدة من المغاربة والواردين على المغرب (101). وكان للطلبة بقسميه ناد يجتمعون فيه للمناظرة وامتحان

(100) نظر محمد بن عبد الله موحدة 137

(101) معجب 130 - 227

الواردين من أهل العلم، وهو (بيت الطلبة)، حسبما يؤخذ هذا مما مر لنا عن العنوان 161 والنفع (1) 369. كما كان لهم رؤساء مختارون من عليّة لعلم وجلتهم، نذكر منهم على سبيل المثال : عبد الله بن محمد الأنصاري يعرف بابن المالقي، 574، رأس طلبة مراكش (102)، وأحمد بن عتيق البلنسي أبا جعفر الذهبي 607، كان مزوّراً للطلبة، (103)، وعلي بن محمد الكتامي الحميري الفاسي يعرف بابن القطان 628، رأس طلبة العلم بمراكش (104)، ووصفه في العنوان 21 بمزوّار الطلبة بالمغرب. ويفيد ابن أبي زرع في حوادث 573 ص 172 : أن ابن المالقي المذكور أولاً إنما كان رئيساً لطلبة الحضر فقط، مما يشير الى أنه كان لكل صنف من الطلبة رئيس خاص. وكانت بين كثير من طلبة المغرب وطلبة الأندلس صلات علمية وثيقة جداً، وبخاصة بين طلبة سبتة ومقالة، جاء في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها : أنه كان من بين طلبة مالقة وطلبة سبتة مراسلات نبهة ومن سوء الحظ إن لم أقف على مثال من مراسلات طلبة سبتة لآخوانهم بمالقة وإنما عثرت على بعض أمثلة من مراسلات طلبة مالقة لطلبة سبتة، ومن ذلك أن أبا القاسم محمد ابن هاشم بن نجيب الشريف الهاشمي المالقي المتوفى عام 613 نظم قصيدة طنانة يمتدح فيها طلبة سبتة ويصفهم بصفاتهم؛ اطلق فيها عنان البلاغة، وقدح زند البراعة، فبلغ فيها مدى الأحسان، وحاز قصب السبق في ذلك الميدان، وقد أوردناها برمتها من 200 بيت بالمصدر المذكور الذي ذكر مع ما تقدم قصة هذه القصيدة، وتتلخص في أن طالباً من طلبة مالقة - يعرف بأبي الحسن النجار - سافر الى سبتة فسجن بها على تهمة سرقة، فتوسل لطلبة سبتة بطلبه فجدوا في أمره حتى استخرجوه من سجنه. ومن الأمثلة الأخرى لذلك الرسالة التي كتبها لأهل سبتة أبو علي عمر بن عبد المجيد الأزدي ثم المالقي، والمشملة على عدد من تراجم الأندلسيين، وقد اقتبس من هذه الرسالة لمصدر المذكور في تراجم محمد بن عيسى بن زنون المالقي، ومحمد بن ابراهيم الانصاري، ومحمد بن عبد الله المالقي، ومحمد بن عبد السلام بن مطرف المالقي، ومحمد الحجاري المالقي. ومحمد المعروف بابن الحناط، ومحمد بن أحمد بن عبد الملك الأنصاري.

والى جانب سبتة ومالقة نجد طنجة يرفع نحاتها ومقرؤها سؤالاتهم للنحويين والمقرئين من أهل اشبيلية، حيث ينتدب للجواب عن هذه الأسئلة في تقييد خاص أبو بكر محمد بن خلف ابن صاف اللخمي الاشبيلي.

(102) تكملة 1394. نيل 134

(103) طبقات الأطباء. 2. 77

(104) تكملة 20 (10). نيل 207. جذوة 299

II المجامع العلمية

أ. مجامع الخلفاء

كانت هذه المجامع يعقدها خلفاء الموحدين مع أشياخ علماء الموحدين، وكبار العلماء من الواردين عليهم من مختلف الجهات (105). وكانت حافلة بالمذاكرة والمناظرة في أنواع العلوم، لما كان يحضرها من علماء وأدباء وأطباء وفلاسفة من مغاربة، ومن الواردين على المغرب : مثل الذين جلبهم الى يوسف أبو بكر ابن طفيل، جاء في المعجب 158 : ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار، وينبه عليهم ويحضره على إكرامهم والتنويه بهم، وسلف لنا إنهم جرت عادتهم - الموحدين - بالكتب الى البلاد واستجلاب العلماء الى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر.

ولم تكن هذه المجامع خاصة بفن، بل كانت تتناول غير ما فن، وكان لكل فن مجلس، فهناك مجلس للمذاكرة في الأدب، ومجلس للمذاكرة في العربية وهلم جرا (106). وكانت تفتح بإلقاء مسألة من العلم يلقيها الخليفة بنفسه، أو يلقيها بأذنه بعض الجلة من الحاضرين، وكان عبد المومن ويوسف يعقوب يلقيون المسائل بأنفسهم. (107) وكانت هذه المجالس مطبوعة بطابع النظام حتى في ترتيب الجلوس، فكان يجلس الى جانب الخليفة خطيبه فقاضي الجماعة بمراكش ورئيس الأطباء، فأكبر علماء الحضرة، فباقي الاعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم (108).

وكان يجب أن يراعي الحاضرون في هذه المجامع ما يجب لمجالس الخلفاء من التزام الجد والمحافظة على الآداب الملوكية، فإن أبا بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي ت 567 كان يحضر مجلس عبد المومن مع جملة العلماء، وييدي ما عنده من المعارف معظماً موقراً، الى أن أنشد يوماً في المجلس أبياتاً ثلاثة قالها يتغزل في شاب من أهل أغمات، فكان هذا سبباً لأن هجره عبد المومن ومنعه من الحضور في مجلسه، بل وصرف بنيه عن القراءة عليه. (109).

(105) معجب 227

(106) انظر طبقات الأطباء 2. 78. 81

(107) معجب 227

(108) انظر طبقات الأطباء 2. 74

(109) النغية 62

وكان أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الهري المشتهر بالأصولي تـ 614، ممن كان يحضر مجلس المنصور. فإن عدم مراعاة هذا ما يجب من الآداب في المذاكرة مع الخلفاء، كان من أقوى الأسباب لا لأبعاده من مجلس المنصور فقط، بل ولحلول النكبة التي لحقت مع ابن رشد (110)، وأخيرا كانوا لا ينفصلون عن هذه المجالس إلا عن الدعاء، يدعو الخليفة ويؤمن الوزير جهرا يسمع من بعد من الناس (111).

وهذه أسماء بعض البعض ممن كانوا يحضرون هذه المجالس :

- أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري يعرف بابن الصقر 492 - 569، التكملة ط. الجزائر 201، القرطاس 131 مكنيا له أبا عبد الله.
- محمد بن عبد الملك بن طفيل أبو بكر تـ 587 أخذ من المعجب 158.
- أبو بكر محمد بن عبد الله بن الجدة الفهري الاشبيلي 596 - 586 القرطاس ص. 131.

- أبو زكريا يحيى بن أبي الحجاج اللبلى تـ 590، صلة الصلة 370. بغية 411.
- محمد بن أحمد ابن رشد الثاني القرطبي 520 - 595، نفح (1) 75.
- أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأيادي الاشبيلي 507 - 595. نفح (1) 75.
- أحمد بن عتيق البلنسي : أبو جعفر الذهبي 554 - 601، طبقات الأطباء (2) 81.
- أحمد بن محمد بن هارون ابن عات النفري الشاطبي تـ 609 ديباج 60.
- يوسف بن أحمد ابن علي أبو الحجاج المريطري تـ 619، طبقات الأطباء (2) 78.
- أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي الاشبيلي 564 - 635، قال في التكملة رقم 1006 ص 760 : كان يتولى الاملاء في مجالس بني عبد المومن على الطلبة.
- أبو عبد الله محمد بن حماد العجلاني الفاسي تـ 609، كان المخصوص بقراءة كتب الحديث ودواوينه على الأمراء، تكملة 1068.

ب. مجامع الأمراء

والأمراء هم الآخرون كانت له مجامع علمية، منها مجالس الأمير أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المومن، ومن كان يحضرها عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب المؤرخ الشهير، والكاتب الشاعر أبو إسحاق إبداهيم الزويلي (112). ومنها مجلس صاحب سبتة :

(110) اعلام 3. 85

(111) معجب 227

(112) معجب 182

الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء : الذي ضم أبا الوليد الشقندي وأبا يحيى بن المعلم الطنجي، حيث وقعت المناظرة في المفاضلة بين الأندلس والمغرب. وكان من فوائد هذا المجلس أن كتب كل من الشقندي وأبي يحيى الطنجي رسالته (113).

التفسير

العادي — بالاشارة

إن الموحدين اهتموا بالتفسير اهتماما كبيرا، فاستدعوا المفسرين من الأندلس، ليتعاونوا مع المفسرين المغاربة الذين نبغ منهم في هذا العهد مثل :

□ أبي الحسن علي بن أحمد التجيني الحراي المراكشي ت 637، أقرأ الفاتحة في نحو ستة أشهر، وابتدع علما جديدا لقواعد التفسير، فكان يلقي في التعليم قوانين تنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، وعلى أحكام هذه القوانين ألف كتابه : (مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل) (1).

□ عبد الجليل بن موسى الأنصاري الأوسي القصري ت 608، ألف في تفسير القرآن، وفسر مشكل الكتاب والسنة (2). يقع هذا التفسير في ستين مجلدا، فسر في كل مجلد حزبا واحدا من القرآن، أشار لهذا عرضا في المفصل الشريف، في التعريف بصلحاء الريف. ترجمة أبي القاسم ابن الصبان.

□ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمران المزدغى ت 655، له كتاب في تفسير القرآن انتهى فيه الى سورة الفتح (3).

□ أبي عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي ت 662. اختصر الكشاف للزمخشري وحذف منه مسائل الاعتزال (4).

(1) انظر عنوان الدراية 85 — 86

(2) صلة ع 44

(3) حذوة 138

(4) بغية 77. حذوة 144

□ أبي العباس أحمد بن فرتوت السلمي الفاسي، ت 660، ألف في الاعلام المهمة في القرآن كتابه : الاستدراك والاتمام، استدرك فيه على السهيلي في كتابه : التعريف والاعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والاعلام. (5).

ولم يكن اشتغالهم في هذا العهد بالتفسير العادي فقط، بل تجاوزوه الى الاشتغال بالتفسير بالاشارة. وممن اشتغل به الحرالي الآنف الذكر، قال الذهبي : له تفسير فيه أشياء عجيبة، تكلم في وقت خروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها وياجوج وماجوج، ورأيت شيخنا المجد التنسي يتغالى في تفسيره.

قال بعضهم والموجود من تفسيره من أوله الى قوله تعالى في آل عمران : فلما دخل عليها زكرياء المحراب، وهو تفسير حسن، وعليه نسج البقاعي في مناسباته، وذكر أن هذا القدر هو الذي وقف عليه منه، نقله النيل 202.

وينبغي أن يذكر مع الحرالي أبو محمد عبد الله بن محمد زغبوش المكناسي، وسيأتي لنا : أن له تأليفا في إثبات الهداية الموحدية، استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، وكذا بعض الأفاضل الذين لقيهم ابن عربي الحاتمي بفاس سنة 591، فقد ذكر عنه في كتابه الفتوحات : أنه استخرج - بحساب الجمل - من آية (انا فتحنا لك فتحا مبينا) : انتصار الجيش الاسلامي في غزوة الارك في السنة المذكورة : 591 (6).

وكان تفسير ابن برجان - بالاشارة - له رواج في هذا العهد، ترجم في الصلة ع 370 لأبي زكرياء يحيى بن أبي الحجاج اللبلي السالف الذكر ص 40. وبعدما ذكر أنه نشأ بمراكش انتقل إليها صغيرا... قال : وهو الذي استخرج من تفسير أبي الحكم بن برجان من كلامه على سورة (الم غلبت الروم) فتح بيت المقدس في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين، وحقق وعين ما كان اغمض فيه ابن برجان وأبهم، ووقف عليه المنصور فبقى مرتقبا له ومعتنيا في نفسه به حتى كان ذلك على حسب ما قاله... ونقله في بغية الوعاة، ص 411.

التجويد. القراءات. الرسم

وكان للملك الموحدين اعتناء بهذه العلوم، فقد كان يوسف كما في المعجب - 155 - من أحسن الناس إلفاظا بالقرآن، ولما رفع الى يعقوب أبو بكر يحيى بن محمد بن خلف الهوزني الاشبيلي نزيل ستة (ت 602) أراجيزه الحسان في القراءات والتجويد ومخارج الحروف أجازته المنصور عليه (7). وممن ألف في القراءات على هذا العهد من المغاربة أبو عبد الله محمد بن

(5) حذوة 57

(6) الاستقصا. 1. 179

(7) صلة 376

حسن بن محمد بن يوسف المغربي الفاسي (ت 656)، صنف شرح الشاطبية (8). ودون فيها ممن استوطن المغرب : أبو عمر ومرجى ابن يوسف الغافقي الأندلسي الأصل، كان ساكنا بطنجة وأقرأ بها وبسبته، وله شرح على قصيدة الحصري في القراءات (9)، وفي هذا العصر اقترح طلبة مراكش على المقرئ أبي الحسن علي بن محمد المرادي البلمسي سكين المغرب أن يضع لهم تأليفا في الرسم، فنظم لهم في أيام قليلة رجزا في رسم هجاء المصحف سماه المنصف، ودعا في طالعته لعبد المومن وأولاده، انظر أوائل شرح ابن عاشر على مورد الظمان، وأبو الحسن هذا له ترجمة زوائد التكملة تحت عدد 2330. وبعد هنا نلقت النظر الى أن اعتناء الموحدين بالقرآن لم يقف عند حد الاشتغال بالتفسير وما ذكر بعده، وأنهم أضافوا لذلك أن أنشأوا للمحافظة على القرآن الكريم حزبا منه يقرأ يوميا بعد صلاة الصبح والمغرب، حسبما أمر بهذا يوسف في سائر البلاد التي تحت طاعته. (10).

الحديث

وكذا ازدهر الحديث في هذا العهد ازدهارا لم يكن له من قبل، وقد استمد نهضته من اهتمام الموحدين به اهتماما كبيرا ظهر في استدعائهم للمحدثين من الأندلس، وأمرهم بتدريسه الى جانب المحدثين المغاربة، كما يعلم مما سلف. وظهر أيضا ذلك الاهتمام في المكانة الكبرى التي كانت لطلاب الحديث في دولتهم وبخاصة أيام يعقوب، جاء في المعجب 188 : ونال عنده - يعقوب - طلبة الحديث ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده. هذا الى أن غير واحد من خلفائهم وامرائهم كانوا محدثين حفاظا، فيوسف كان يحفظ أحد الصحيحين، (11)، ويعقوب كان يحفظ متون الأحاديث ويتقنها، (12)، والمامون كان معدودا من حفاظ الحديث لم يزل أيام خلافته يسرد كتب الأحاديث مثل البخاري والموطا وسنن أبي داود، (13)، وكذا الأمير ابراهيم بن يوسف بن عبد المومن، قال في المعجب 207، لم أر في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر. ومن الأدلة الأخرى لنفاق علم الحديث في هذا العهد قصة امتحان ابن عات المذكورة في عنوان الدراية 161 والنفح (1) 369 بيت الطلبة بمراكش، فإنها تدل بدورها على

(8) شذرات الذهب 5. 283. 254

(9) تكملة 1152

(10) جدوة 47

(11) معجب 55

(12) نفح 2. 99

(13) قرطاس 161. الاسفنا 1. 200

عناية القوم بالحديث وامتحان الواردين عليهم من أهله، ولقد كان من أثر هذه النهضة أن ظهر بالمغرب محدثون كبار مثل

□ أبي الخطاب ابن دحية السبتي، كان يقول إنه حفظ صحيح مسلم كله، (14). وقد امتحن علماء مصر حفظه للحديث فذكروا له أحاديث بأسانيد حولوا متونها، فأعاد هذه المتون المحولة وعرف عن تغييرها، ثم ذكر الأحداث على ما هي عليه من متونها الأصلية، (15). □ عبد الرحمن بن محمد من أهل تامسنا بالمغرب الأقصى يعرف بالمكنولي، قال في التكملة 1657 : يقال إنه كان يستظهر كثيرا مما ألف في الآثار والأخبار وغيرها.

□ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني الشريف الصقلي الفاسي، قال في الذيل والتكملة كان راوية للحديث حافظا لمتونه بصيرا بعلمه عارفا برجاله مشرفا على طبقاته وتواريخه، عني بهذا الشأن أتم عناية، ودرسه ببلده (16).

□ أبو الحسن علي بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي يعرف بابن القطان من أبصر الناس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدّهم عناية بالرواية، قال في التكملة 19 وقال ابن سعيد في رسالته التي ذيل بها رسالة ابن حزم في مفاخر الأندلسيين : إن له في تفسير غريب الحديث وفي رجاله مصنفات، وإليه كانت النهاية والاشارة في عصره... نقله في النفح (2) (135).

□ أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد بن أحمد بن هارون المرادي الفاسي، كان أحفظ أهل زمانه للحديث، وأذكرهم للتاريخ والرجال والجرح والتعديل والخلاف العالي، يقوم على الكتب الخمسة قياما حسنا، ويتكلم على أسانيدھا ومتونها، لم يكن له في عصره مثيل (17).

□ أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن صاف يعرف بالمواق المراكشي ثم الفاسي الآتي الذكر، كان - كما في الذيل والتكملة - حافظا محدثا... ألف شرح مقدمة صحيح مسلم وجملة من شرح الموطا وقف عليها ابن عبد الملك وقال إنها في غاية من النبل وحسن الوضع

(18).

الفقه

إن الفقه ازدهر على هذا العهد ازدهارا كبيرا، وبلغت النظر فيه أنه نهض في مظهرين، وشاع في مذهبين : المذهب الظاهري، والمذهب المالكي، وفيما يلي تفصيل حركة المذهبين :

(14) السدات 5. 160

(15) عماد الدعاة 161. نفح 1. 369

(16) الاعلام 3. 79

(17) حدة 84. السدات 5. 315

(18) الاعلام 3. 142

المذهب الظاهري

وهذا المذهب كان محبوباً من طرف الخلفاء الموحدين، وبصفة أخص لدى يعقوب المنصور، فقد بلغ من إعجابه به إلى حد أن كان يقول عن أحد أسياد الظاهرية الكبار - ابن حزم - إن كل العلماء عيال عليه (١٩).

ويعقوب هذا هو الذي حمل الناس بالفعل على المذهب الظاهري، وأحرق كتب المالكية، وفاقا لما في المعجب - وسنورد عبارته - ولما في التكملة ع ٨٧٠، وقوانين ابن جزى والفكر السامي (٤) ١٢.٩.

وجعل ابن خلكان في الوفيات ٤٣٢.٢. وقلده في الشذرات. ٣٢٢.٤ - عمل يعقوب هذا إلزاماً للاجتهاد واستنباط القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس، ولا شك أن هذا غلط من ابن خلكان ومقلده نشأ من بعد الدار، وإنما الذي أمر به يعقوب هو العمل بالمذهب الظاهري كما تنطق به عبارة غير واحد ممن ذكرنا أولاً. ومن المفيد أن ننبه إلى أن الذي قام به يعقوب هو إبراز الفكرة وتنفيذها بصفة عملية، أما الفكرة نفسها فقد كان مسبوقة بها. وثبت المراكشي في المعجب ١٨٥ : إن كلا من يوسف وعبد المومن كانا يميلان إلى هذا الرأي، إلا أنهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب، قال : «يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجدة، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المومنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي يا أبا بكر : أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أريت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ! في أي هذه الأقوال هو الحق ؟! وأيهما يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي أبا بكر ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود - وكان عن يمينه - أو السيف، فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجده». هذا كلام المعجب، ونعلق عليه بأن الواقع أن مسألة الظاهرية ليست أنية من عبد المومن ثم يوسف فقط، وإنما منشؤها الأصلي من ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، يدل لهذا ما أثبتته ابن الخطيب في شرح رقم الحلل (٥٧) : أن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأي والتقليد، ومراد ابن الخطيب بهذا الإنكار أنه كان يتحلل المذهب الظاهري كما تنطلق بهذا تحلية الونشريشي في المعيار ٢. ٣٦١، للمذكور بالظاهري. ويؤيده أيضاً نسبته إليه في كتاب بيوتات فاس لأبي زيد عبد الرحمن الثاني الفاسي وعبارته (٥) : إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم : من إنكار

الرأي في الفروع الفقهية، والعمل شرعا على محض الظاهرية، وجروا على ذلك سنين بطول اياتهم إلى أن انقضوا، أولهم في ذلك مهديهم أول ملوكهم....

فقد تبين أن هذه الفكرة متأصلة من ابن تومرت ولكنها لم تظهر إلا على عهد يعقوب الذي أبرزها ونفذها بالفعل، ولا يرد على هذا ما جاء في القرطاس 124، ثم في الاستقصا (1) 150 : أن عبد المومن أمر سنة 555 بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى طلبة المغرب والأندلس والعدوة. ويان عدم ورود هذا النص على ما قررنا، أنه لايفيد إلا أن عبد المومن أمر بما ذكر ليس إلا، ولم يذكر أن هذا الأمر نفذ، لأن التنفيذ غير واقع، ولو وقع لكان جديرا بالتصريح به والتنصيص عليه، فكأن عبد المومن أمر بذلك أولا ثم رأى أن الأمر سابق لأوانه، فوقفت المسألة عند حد الأمر، ولم تدخل إلى حيز التنفيذ، هكذا ينبغي أن يفهم كلام القرطاس والاستقصا وما على شاكتهما، وذلك هو المحمل الذي يتعين أن يحمل عليه، وبه يحصل الجمع بينه وبين كلام المؤرخين الذين ذكروهم في صدر هذا الموضوع، بما فيهم من عبد الواحد المراكشي الذي كان معاصرا للدولة الموحدية، ومطلعا على أخبارها. وبعد هذا نذكر تفصيل عمل يعقوب في حمل الناس على المذهب الظاهري وتحريق كتب الفروع، وتوعد من خالف أمره في ذلك، قال في المعجب (184) : وفي أيامه - يعقوب - انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء. وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، أحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون. وكتاب ابن يونس ونواذر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحوها.

لقد شهدت منها - وأنا يومئذ بمدينة فاس - يوتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة...

وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك، وإزالته من المغرب مرة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث. ومما يفسر تلك العقوبة الشديدة التي توعد بها يعقوب من اشتغل بالفقه المالكي، ما ورد في كتاب بيوتات فاس المذكورة آنفا (5) أن الموحدين - والمراد يعقوب - أوقعوا المحن بذوي الفروع وقتلوهم وضربوهم بالسياط، والزموهم الايمان المغلظة من عتق وطلاق وغيرها على أن لايتمسكوا بشيء من كتب الفقه.

ولقد استفاد الفقه من هذه الحركة الظاهرية أن نبغ في هذا العصر فقهاء عظام، يستنبطون الفقه من معين الكتاب والسنة، ويفتون ويحكمون بها، وكان على رأس هذه الطائفة يعقوب المنصور، ذكر عنه السرخسي في رحلته : أنه يتكلم في الفقه كلاما

بليغا، وأن فقهاء وقته كانوا يرجعون إليه في الفتاوي، وله فتاوي مجموعة (20). كما ذكر عنه في المعجب 184 : أنه أمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدراقطني، وسنن البيهقي : في الصلاة وما يتعلق بها، على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة، فأجابوه الى ذلك، وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب، وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال.

وبعد يعقوب نذكر بعض المغاربة الآخرين الذين كانوا حينئذ ينتحلون هذا المذهب، ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن خيار البلنسي الأصل الفاسي 541 - 605 (21). وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هارون المراد الفاسي يعرف بابن الكماد، ت 633، (22). وكذا أبو الخطاب بن دحية الكلبي السبتي 547 - 633، وأخوه أبو عمرو 546 - 634، وصفهما بن خلكان في الوفيات (2) 432 بالاجتهاد والمراد أنهما كانا معتنقين للمذهب الظاهري أخذا مما تقدم، وقد صرح بهذا في الشذرات (5) 160 في حق أبي الخطاب.

وكما استفاد الفقه ما ذكر، كذلك ظهرت تأليف مهمة في أحاديث الأحكام استدراكا ونقدا وشرحاً، فقد استدرك القاضي الصقلي على الأحكام الكبرى لعبد الحق أحاديث كثيرة في أكثر الكتب رأى أن صاحب الأحكام أغفلها، وأنها أولى بالذكر مما أورده (23).

وألف ابن القطان كتاباً في بيان الوهم والايهام الواقعيين في كتاب الأحكام (24)، وتعقب كتاب ابن القطان تلميذه أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن صاف يعرف بالمواق (4)، كما شرح أحكام عبد الحق الامام المزدغي الفاسي انتهى الأقضية منها، وسمى الشرح أنوار الأفهام في شرح الأحكام الجذوة 138.

الفقه المالكي

وبقدر ما كان الخلفاء الموحدون محبين للمذهب الظاهري، كان أكثر فقهاء عصرهم من المغاربة وغيرهم سائحطين على هذا المذهب، متعصبين للمذهب المالكي مناصرين له،

(20) نقله في الفتح 2. 99

(21) التكملة 1917. الذخيرة السنية 41.40. الحذوة 306 - 307

(22) الحذوة 84

(23) الاعلام 79.3

(24) صلة الصلة 268. الاعلام. 41.3. الحذوة 138

وللتدليل على هذا نثبت فيما يأتي جملة مهمة من المغاربة الذين كانوا يعتنقون المذهب المالكي لهذا العهد ومنهم أبو محمد يشكر بن موسى الجورانيء الغفجومي ثم الفاسي فقيهاً 598، له حواشي على المدونة (25)، عبد الرحيم بن عمر اليزناسني كان يعيش نحو أواخر القرن السادس، إمام في فقه مالك محصل له (26)، أبو الحسن علي بن سعيد الرجرجي كان حياً في التاريخ المذكور، ألف مناهج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل، (النيل 200)، إسحاق بن ابراهيم الغماري السعيد المجابري قاضي فاس وستة وشلب. تـ 609، فقيه مالكي حافظ للرأي قائم على المدونة، يقال : أنه كان يستظهرها (27)، أبو زيد عبد الرحمان بن يوسف الفاسي الشهير بابن زانيف تـ 612، كانت تشد إليه الرحال في مذهب مالك، وكان يقوم على المدونة قياماً تاماً، الجذوة 254، كتبت المدونة من حفظه النيل 138، أبو محمد صالح الفاسي، تـ 631 (28)، قيد عنه شرح الرسالة انظر الديباج 129 - 130، أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي تـ 637، من أعلم الناس بمذهب مالك، ولما ظن فقهاء عصره أنه لا يحسن المذهب أقرأ التذهيب وأبدى فيه الغرائب، وبين مخالفته للمدونة في بعض المواضع (29).

فهذه زمرة كريمة من الفقهاء المغاربة الذين كانوا يعتنقون المذهب المالكي ويتعصبون له، ولم يكن هذا في المغرب وحده، وإن الأندلس هي الأخرى كان لمذهب مالك بها رواج حينئذ، ونذكر من رجاله على سبيل المثال : سليمان بن عبد الواحد الغرناطي تـ 599، ألف في الفقه كتاب المسائل المجموعة على التهذيب للبرادعي في تسعة أسفار (30)، وجعفر بن عبد الله الخزاعي الأندلسي تـ 624، حفظ نصف المدونة وأقراها (31)، وعبد الله بن علي الأنصاري الأوسي الأندلسي الأستجي، تـ 646، كان يدرس الأصول ومذهب مالك باشبيلية وقرطبة (32). بل إن بعض أعلام المالكية لهذا العهد جاهر بالرد على شيخ الظاهرية الثاني أبي محمد بن حزم.

ومن هذا الصنف أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن زرقون 539 - 621، ألف المعلل في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم (33)، ومن هذا

(25) وفات ابن قنفذ 46

(26) العمود 153. 154. الجذوة 266. 267

(27) التكملة ط الجزائر ع 517. الجذوة 99، النيل 99

(28) هذا ما أثبتته الديباج في تاريخ وفاة أبي محمد صالح الفاسي والصحيح أنها كانت عام 653، انظر السلوة 2. 43

(29) العنوان 86.85 - النيل 102 - النفع 1. 411

(30) الديباج 123

(31) النيل 103

(32) التكملة 1461

(33) التكملة 967، الديباج 286. الشذرات 5. 96

الصنف أيضا من تقلد القضاء في عاصمتي الموحدين : مراکش بالمغرب واشبيلية بالأندلس، وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الله الأنصاري المهدوي الأصل ت 631، له بدوره كتاب في الرد على ابن حزم، دل على فضله وعلمه (34)، ومن ألف من المالكية في الرد على ابن حزم أبو يحيى المواق جمع من كتب ابن حزم مسائل كثيرة انتقدت عليه. انظر الخبر المغرب، لأبي رأس العسكري.

الفرائض - الوثائق

ويتبع الفقه الفرائض والوثائق، وقد كانا مزدهرين على هذا العهد، ومن ألف في الفرائض أبو الحسن الحرالي الآنف الذكر، قال في عنوان الدراية 87 : إن كتابه في علم الفرائض المسمى بالوافي ما ألف مثله في ذلك الفن، لأنه أعطى الفرائض موصلة مفصلة معللة بأخصر بيان وأوضح تبيان، كما ألف في الوثائق أبو الحسن على ابن يحيى الصنهاجي الريفي، (ت 585) : مختصره : (المقصد المحمود في تلخيص العقود)، وهو كتاب مفيد جدا قال في زوائد التكملة رقم 2378 : وكثر استعمال الناس له لجودته.

أصول الفقه - أصول الدين

وعلم أصول الفقه شاع في هذا العهد بعد أن لم يكن كذلك بالمغرب، يقول ابن رشد في كتابه فصل المقال (5) : إن علم الأصول يروج في جميع البلاد ما عدا المغرب. أما الكلام فكان قبل إنما هي العقيدة السلفية، وفي هذا العصر تقرر علم الكلام على مذهب إمام الموحدين - ابن تومرت - في التوحيد، وكان مذهبه فيه كما في المعجب 121 على مذهب الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، كان يطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه على العامة شيئا.

ولقد ازدهر العلمان في ظل الموحدين ازدهارا، ناهيك منه أن الأندلسيين صاروا يرحلون إلى المغرب لقراءة هذين العلمين، ترجم في التكملة 1445 لأبي محمد عبد الله بن باديس بن عبد الله اليحصبي الأندلسي من أهل جزيرة شقر ت 622، فذكر عنه أن ارتحل إلى فاس فلقى بها أبا الحجاج بن نموي وطبقته من أهل الكلام وأصول الفقه فأخذ عنهم.

ومن أشياخ المغرب في هذين العلمين أبو الحسن علي بن محمد بن خليل الأندلسي المعروف بابن الأشبيلي ت 567، قال في الصلة في ترجمته 205 : وهو الذي قرر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس حيث إنه استقر بها، وكذا أبو عمرا وعثمان بن عبد الله القيسي

القرشي المعروف بالسلالجي ت 564 تلميذ أبي الحسن قبله، واليه مرجع الفاسيين في علم الكلام (35)، وهو منقذ أهل فاس من التجسيم (36)، ومختصره في التوحيد المسمى بالعقيدة البرهانية والذي لازال مخطوطا مشهورا - محفوظ في بعض المكاتب، وقد شرحه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الأشيلي المعروف بالخفاف كما في كشف الظنون. ومن نبغ من المغاربة الآخرين في العلمين أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي يعرف بابن الكتاني ت 596، كان إماما في علم الكلام وأصول الفقه، وله رجز في هذا العلم الثاني (37)، وأبو الحسن علي بن محمد الخزرجي الأشيلي الأصل الفاسي يعرف بابن الحصار ت 611، صنف في أصول الفقه كتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب البيان في تنقيح البرهان، وأرجوزة في أصول الدين شرحها في أربعة أسفار (38)، وأبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي يعرف بابن نموي 554 - 614، كان إماما في علم الأصول والكلام (39).

المهدوية والعصمة

ومن نوابغ علم الكلام مسألة المهدوية والعصمة عند ابن تومرت فقد كانت هذه في أول أمر الموحدين عقيدة مفروضة لاجمال للبحث فيها، ولقد بلغت من السمو أول أيامهم إلى حد أن بعض علمائهم وضع تأليفا في إثبات الهداية الموحدية، استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز.

قال ابن غازي في الروض المتهون بعد هذا : كان شيوخ طلبة الموحدين يسألون أبدا عن هذا الكتاب، ويشنون عليه وعلى واضعه، إلى أن ولي الشيخ أبو إبراهيم اسماعيل بن محمد بن أبو المصالي عمل مكناس، وكان متشيعا للمهدي حافظا لتأليفه قائما على مذهبه من طلبة الموحدين وزهادهم، وكان ناقدًا عليهم غير راض عما ابتدعوه، فألح في طلب هذا الكتاب حتى ظفر به، فكان آخر العهد به، ومؤلف هذا الكتاب كما في المصدر المذكور هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حماد بن زغبوش المكناسي، وله ترجمة في التكملة تحت عدد 1486 باسم عبد الله بن حماد.

ولئن بلغت هذه العقيدة أول أيام الموحدين المبلغ الذي وصفنا، فإنها لم تلبث أن أخذت تفقد صولتها. فقد كان يعقوب المنصور لا يرى رأي الموحدين في ابن تومرت ولا يقول

(35) صلة 205.

(36) حذوة 290.

(37) تكملة 1062.

(38) تكملة 1918.

(39) تكملة 2099.

بعصمته (40)، ثم أجهز على هذه العقيدة تماماً ادريس المامون الموحدى الذى لعن ابن تومرت فوق منبر جامع المنصور بمراكش، وقال : أيها الناس لاتدعوه بالمهدى المعصوم، وادعوه بالغوى المذموم، وأعلن نبذ أمره النحس - على حد تعبیه - ثم كتب الى جميع البلاد بتغيير سير المهدى، وما كان ابتدعه للموحدين وجرى عليه عملهم وسير ملوكهم

العلوم اللسانية

لغة - نحو - بيان - عروض

إن هذه العلوم كانت شائعة في هذا العهد ولا سيما اللغة والنحو، فقد بلغا غاية كبرى، وكان على رأس اعلامهما يوسف بن عبد المومن الذي كان من أحفظ الناس للغة، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو (1).
وفيما يخص اللغة ظهر لهذا العهد لغويون حفاظ كبار، منهم أبو الخطاب بن دحية، عنوان 160. وأخوه أبو عمرو بن دحية (2).

ومن اللغويين الذين كانوا موحدين بالمغرب في هذا العصر أبو القاسم علي بن حمزة البصري، فقد اكتشف بمكتبة القرويين أوراق من تأليف في اللغة بخط مؤلفه المذكور كتبها برباط الفتح سنة 586، وكذا أبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن اصبغ الأزدي المعروف بابن المناصف 563 - 620، كان له حظ وافر من اللغة، وله فيها : أرجوزته الألفية الفائقة، المسماة المذهبة في الحلى والشيات وغيرها نظمها بمراكش كما في النيل 229، توجد نسخة منها بمكتبة برلين تحت عدد 5370، وفي بعض المكاتب بالمغرب، وقد نشرت كاملة ضمن التقويم الجزائري لسنة 1330 - 1912، صحائف 73 - 122.

وعلم النحو كذلك ازدهر حتى في مدن المغرب الثانوية، ومنها طنجة التي كانت أحد مراكز النحو، وفي هذا العهد رفع نجاتها ومقرئوها سؤالاتهم للنحويين والمقرئين من أهل اشبيلية حتى انتدب الجواب عنها في تقييد خاص أبو بكر محمد بن خلف بن محمد ابن صاف اللخمي الاشبيلي 512 - 586. (3). ولا شك أن رئيس نخاة المغرب في هذا الوقت هو أبو

(1) معجب 155

(2) صلة 140. الوفيات 1. 482. النفع 1. 366

(3) تكملة 821 بعة 40

موسى عيسى ابن عبد العزيز الجزولي المراكشي، تـ 607، له : المقدمة المشهورة التي ألفها إملاء على الجمل للزجاجي، وتسمى بعدة أسماء : بالمقدمة الجزولية وبالجزولية. وبالقانون والاعتماد. وهي كتاب جليل في هذا الفن، قال عنها ابن خلكان في الوفيات (1) 498 : ولقد أتى فيها بالعجائب، وهي في غاية الإيجاز، مع الاشتغال على شيء كثير من النحو، ولم يسبق إلى مثلها، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها، ومنهم من وضع لها أمثلة، ومع هذا فلا تفهم حقيقتها، وأكثر النحاة ممن لم يكن قد أخذوها عن موقف يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها، فإنها كلها رموز وإشارات.

ولقد نعت من بعض أئمة العربية المشار إليه في وقته وهو يقول أنا ما أعرف هذه المقدمة، وما يلزم من كوني ما أعرفها أن أعرف النحو، وبالجملة فإنه أبدع فيها، وقال عنها ابن مالك أول شرحه عليها : إن كتاب القانون في النحو وإن كان صغير الحجم، لكنه كثير العلم مستعصى على الفهم، مشتمل على لباب الأدب، منطوق على سر كلام العرب، متضمن للنكات الغريبة التي خلا عنها أكثر شروح النحو... (4).

ولهذه الأهمية الكبرى التي للجزولية اشتهرت من عصر مؤلفها وقرئت عليه (5). كما وضعت عليها شروح عديدة في عصر المؤلف وقريب منه، كتبها غير واحد من المغاربة والأندلسيين وغيرهم، وفي مقدمة المغاربة الجزولي نفسه، شرحها في مجلد كبير أتى فيه بغرائب وفوائد (6).

ومن الأندلسيين إمام نحاتهم في عصره : أبو الحسن بن عصفور الحضرمي 597 - 663 (7)، وكان هذا الشرح يحتاج إلى تكميل فأتمه الشلوبين الصغير الأندلسي تلميذ بن عصفور تـ حدود 660 (8).

وسوى هؤلاء كثير، وسيمر بنا بعضهم، وتوجد طائفة من شروح الجزولية بمكتبة القرويين بفاس أرقام : 1181 - 1185 - 1192 - 1198، وبمكتبة الاسكوريال من إسبانيا أرقام 190.36.2.

ومن مؤلفات الجزولي الأخرى : شرح أصول ابن السراج (9)، أما بقية النحاة المغاربة، فمنهم أبو القاسم عبد الرحمان بن القاسم بن يوسف المغيلي الفاسي تـ 619، من أعيان أهل

(4) ذكره في كشف الظنون 2. 505

(5) صلة 95

(6) وفيات 1. 499

(7) نغية 357

(8) نغية 80

(9) نغية 339

هذا الشأن (10)، وأبو العباس أحمد بن محمد ابن خلف البكري السلوي ثم المراكشي 581 - 611، له : شرح على المفصل، وشرح على الجزولية (11)، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن داوود التادلي المراكشي، مبرز في النحو متحقق به درسه طويلا (12)، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المصمودي ت 649، النحوي الامام، كان يقرأ كتاب سيبويه (13)، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد العبدري الفاسي يعرف بالصري في ت 651، من أئمة هذا الشأن وحفاظه (14).

ونختم ذكر علماء النحو بعد علماء اللغة بعالم لغوي نحوي. وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي ت 570، كان قائما على العربية واللغة، وألف فيهما : كتاب الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل، وإصلاح ما وقع في شواهد سيبويه وفي شرحها - للأعلم - من الوهم والخلل، وكتاب لحن العامة، وشرح الفصيح لثعلب (15).
وعلم البيان هي الأخرى كان لها بعض رواج على هذا العهد سيما في أواخره، ولا شك أن من أبرز شخصياتها حينئذ أبا عبد الله محمد بن العابد الأنصاري الفاسي، أخذ ما تقدم عنه لدى الحديث عن علم التفسير : أنه اختصر الكشاف للزمخشري... فإن هذا الكتاب لا يمكن أن يقرأه فضلا عن أن يختصره إلا من كانت له ملكة تامة في هذه العلوم (16).
وكذلك علم العروض كان شائعا في هذا العصر، ومن ألف فيه ممن استوطن فاسا : أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الحشني الجبالي الأصل 535 - 604، له فيه تأليف صغير (17).

(10) بكلمة 1656، نعة 300 - 301

(11) نعة 156 - 157

(12) الاعلام 3 144

(13) نعة 301

(14) نعة 114 - حذوة 138

(15) تكلمة 1053، نعة 19 - 20

(16) راجع مقدمة ابن خلدون 507

(17) الكلمة ع 1098

التاريخ

إن التاريخ ازدهر بهذا العهد ازدهارا يتناسب ومقام الموحدين العلمي، وظهرت طائفة كبيرة من المؤرخين المغاربة كتبوا تواريخ عديدة، وتناولوا كثيرا من فنون التاريخ، ألفوا في السير، والأنساب، والتراجم، تاريخ الملوك، وتاريخ البلدان، وفي غير ذلك، وهذا تفصيل الفنون التي ألفوا فيها ..

فن السير

من حسن الصدف أن نجد - في هذا العهد - مغربيين من أهل سبتة كانا من أول من ابتكر التأليف في مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأول هذين المغربيين هو أبو العباس أحمد بن محمد العزفي اللخمي 557 - 633، له : الدر المنظم في مولد النبي المعظم صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم، وقد أكمله ولده أبو القاسم، ذكر فيه بعض ما خص به النبي (ص) وفضل به، وما امتن به عليه وعلى أمته (1).

أما المغربي الثاني فهو أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية الكلبي المعروف بابن الجميل 547 - 633، ألف كتاب التنوير، في مولد السراج المنير (2). ومن مؤلفات المغاربة الأخرى في السير : اللمعة في ذكر أزواج النبي (ص) وأولاده السبعة، تصنيف أبي عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي القاسمي ت 603 (3)، وكتاب نهاية السؤل، في خصائص الرسول والآيات البينات، في ذكر ما في أعضاء رسول الله (ص) من المعجزات، ومن ملحقات السير : كتاب الاعلام المبين، في المفاضلة بين أهل صفين : الثلاثة لأبي الخطاب ابن دحية (4).

(1) انظر ازهار الرباض 2. 375 - 376 توجد نسخة منه بالمكتبة الزيدانية العامة بمكناس في مجلد كبير.

(2) انظر وفيات الاعيان 482.1 والنفح 1. 371

(3) السلسلة 269.3

(4) نفح 1. 371

فن النسب

وهذا الفن كان به مزيد اعتناء في هذه الدولة، ومن مظاهر هذا ما ذكره أبو القاسم الزباني في كتابه : تحفة الجادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب (خ) : فإنه بعدما ذكر أن منصب النقابة في بني أمية وبني العباس كان يعدل منصب الوزارة، وأفاض في هذا، قال : وكذلك كان شأن النقابة بالمغرب أو قريب منه أيام لمتونة والموحدين... كما ذكر قبل هذا عند حديثه عن بيت آل عبد الرحمان من ذرية السيد عبد الله بن المولى ادريس الثاني : أنه كان في هذه العائلة نقيب الاشراف أيام الموحدين.

ومن التتاليف التي وضعت في النسب لهذا العهد : كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، لمؤلف مجهول كان يعيش في هذا العهد، وقد عمر الاستاذ : م ليفي بروفنسال في مكتبة الاسكوريال على تاليف مقتبس منه فأخرجه وصححه وترجمه للفرنسية ونشره سنة 1928 ضمن : (كتاب اخبار المهدي للبيدق) وتقييد أبي عبد الله المراكشي المعروف بالأصولي في الشرفاء العمرانيين، وبعض وفيات الأعيان. وغير ذلك من الأمور المهمة (5). يقع هذا التفسير في ستين مجلدا، فسر في كل مجلد حزبا واحدا من القرآن، أشار لهذا عرضا في المقصد الشريف، في التعريف بصلحاء الريف. ترجمة أبي القاسم ابن الصبان.

التراجم

وزيادة على ما ذكر، فقد قامت لكتب التراجم سوق في هذه الدولة، ومنها : ذيل الصلة بالشكوالية لأبي العباس أحمد بن يوسف ابن فرتوت السلمي الفاسي ت 660. عن نيف وثمانين سنة، وهو كتاب حفيظ، وإن كان مؤلفه لم يتفرغ لتنقيحه وتصحيحه (6)، وما يدل على أهميته، ما ذكره الأستاذ بروفنسال في تصديره للقسم المطبوع من صلة الصلة : إن أهم ما أخذ ابن الزبير في مجموعه اثنان : تاريخ الملاح، والذيل لابن فرتوت الذي هو من أشياخ ابن الزبير نفسه، قال : فكاد ينقل من كتاب الذيل في كل ترجمة من تراجم مجموعه، ويذكره قائلا : قال الشيخ في الذيل، ومن كتب التراجم : اختصار المدارك لأبي عبد الله بن حماد السبتي تلميذ القاضي عياض، ولا نعلم عن هذا المؤلف شيئا (7)، كما أننا

(5) الاعلام 86.3

(6) جذوة 56

(7) يوجد في الجذوة 304 والسلوة 309.3 — 310 ترجمة لابن حماد السبتي، ولكن بكنية ابي الحسن، وهذا موجز ما

كتب عنه : علي بن موسى بن حماد من أهل عدوة سبتة يكنى ابا الحسن، من أهل العلم والادب والناهة توفي بفاس سنة 564 ومولده سنة 503

لأنعلم عن المؤلف سوى أنه من جملة مراجع صاحب الديباج، وهو الذي نبه إليه أولاً ص 361.

ثم من مراجع مؤلف الدر النفيس الذي نبه عليه ثانياً ص 16، وأفادنا أنه بقي موجوداً إلى عصره، كتاب المستفاد في ذكر الصالحين والعباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، في سفرين، تصنيف أبي عبد الله بن عبد الكريم التميمي المار الذكر (8)، والغالب أن هذا الكتاب هو المذكور في كشف الظنون في حرف التاء باسم وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وبستان العابدين وربحان العارفين، في ذكر أهل الصفوة، والانتقطاع إلى الله بالخلوة، للمؤلف المذكور (9)، والتشوف، إلى رجال التصوف، لأبي الحجاج يوسف بن يحيى التادلي، تـ 627، مخطوط محفوظ بعدة خزائن، وتأليف في صلحاء المغرب للمؤلف المذكور، النيل 352، وتصنيف أبي الخطاب ابن دحية في رجال الحديث، رآه الغبريني وذكر أنه لا بأس به، عنوان 161، وشيوخ الداخر قطني، لأبي عبد الله محمد بن يحيى بن المواق المراكشي ثم الفاسي 583 - 642 (10). يضاف لكتب التراجم حينئذ الجزء الذي عقده أبو عبد الله محمد ابن القاضي عياض لترجمة والده. وقد نقل عنه في الديباج-168 وأزهار الرياض ج (1) 24 و (ج) (3) 7 - 8.

البرامج والفهارس

وهي في عداد كتب التراجم، ومما ظهر منها في هذا العهد : برنامج عبد الرحيم ابن الملجوم الفاسي 524 - 603، صلة 358، وفهرسة محمد بن قاسم التميمي السالف الذكر، التي جمعت نحواً من 100 شيخ، واسمها : النجوم المشرقة، في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثقة واختصارها (11)، وفهرسة ابن أبي الصبر السبتي تـ 609، (12) وبرنامج ابن القطان الفاسي تـ 628، (13) وبرنامج أبي العباس العزفي السبتي 557 - 663، صلة 357 (14)، وفهرسة أبي الحسن علي الغافقي الشاري تـ 649، فهرس الفهارس (2) 251، وبرنامج أبي العباس اد- فرتوت الفاسي (15).

(8) انظر عن نسبة الكتاب للمؤلف المذكور . السلسلة 1 9 و 3. 269 والفتوحات 1. 244

(9) السلسلة 3. 269

(10) الاعلام 3. 142

(11) تكملة 1064

(12) صلة 201 - تكملة 2380.

(13) زوائد التكملة عدد 1920.

(14) زوائد التكملة 1903

(15) جذوة 57

والغالب أن من نوع فن التراجم تقييد أبي زيد عبد الرحمن ابن الملجوم الفاسي الذي نسب له في ترجمته من التكملة 1652، وعبارته في تحليته : من أهل المعرفة بالشعر والانسان والحفظ للتواريخ، وله في ذلك تقييد مفيد، وقد وقع النقل عن هذا التقييد في زوائد التكملة عدد 2119.

تاريخ الملوك

تاريخ الدولة العباسية، المسمى : كتاب النبراس، في أخبار خلفاء بني العباس، لابن درجة (16)، وكتاب المجموع في تاريخ الموحدين، لمؤلف غير معروف من أهل هذا العصر، اقتبس منه البيدق في تاريخه الآتي الذكر 81 - 84، وقد يكون من مصادر الأنيس المطرب ينقل عنه باسم بعض المؤرخين، كأنه لم يقف كذلك على اسم مؤلفه، انظر 113 و 114، وتاريخ الموحدين لابي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، وهو عبارة عن مذكرات شاهد عيان، كتبها المؤلف المذكور عن قيام الموحدين وانتهى إلى أواخر أيام عبد المومن، وهو مطبوع مترجم أيضا ضمن (كتاب اخبار المهدي للبيدق).

تاريخ البلدان

المعجب، في أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي 581 - 625، مشهور مطبوع مترجم، وتقييد القاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ مكناس، وهو أحد مصادر ابن غازي خلال الروض الهتون.

وينبغي أن يلحق بهذا النوع رسالة أبي يحيى ابن المعلم الطنجي في تفضيل المغرب على الأندلس، هذه الرسالة التي عارض بها أبا الوليد الشقندي الذي فضل الأندلس على المغرب، وكان كل هذا بمجلس الأمير أبي يحيى ابن أبي زكرياء والي سبتة، فإن أبا يحيى بن المعلم كتب رسالته المذكورة كما ينطق بهذا كلام النفع (2) 138 في حديثه عن هذه القصة، إلا أن رسالة الشقندي حفظها قومه وخلدوها، ورسالة أبي يحيى أهملها أهله واضاعوها.

ونذيل الحديث عن التاريخ لهذا العهد بالتنبيه على أوهام وقع فيها المؤرخ الالماني يوسف أشباخ في كتابه : (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين)، عند تعرضه لبعض مؤرخي هذا العصر (2) 262، فقد ذكر : أن من مؤرخيه أبا علي بن رشيد، وابن ختم، وقد عاشا في أواسط القرن الثاني عشر، وعاصرا المهدي وحملوا عليه صراحة، وقد اختصرهما أبو مروان الذي عاش في القرن الثالث عشر، هذا كلام المؤرخ الالماني، ونعلق عليه أولا بأن

الظاهر أن غالبه مأخوذ من الحلل الموشية 75. وعبارتها بعد ذكر نسب المهدي ابن تومرت إلى علي بن أبي طالب : اثبت هذا النسب أبو علي بن رشيق في شجرة انساب الخلفاء والأمراء، وحققه ابن القطان، واختصره أبو مروان ابن صاحب الصلاة، فقد بينت الحلل الموشية أن المؤرخين الذين مسخ اسمهما إلى ابن رشيد وابن ختم إنما هما ابن رشيق وابن القطان، كما أنها لاتنص على معاصرة هذين المؤرخين للمهدي، وسيأتي ما يؤيد هذا في الجملة، وأخيرا تذكر الحلل أن ابن صاحب الصلاة إنما اختصر النسب ولم يختصر التأليفين.

وبعد هذا فمن هم هؤلاء المؤرخون : ابن رشيق وابن القطان وابن صاحب الصلاة ؟ أما ابن رشيق فقد عقد له ترجمة في الجذوة 111 - 112 وسماه الحسن بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلب يكنى أبا علي، مرسى الأصل، سبتي الأستيطان، وبعدما وصفه بأوصاف عالية ذكر له : التاريخ الكبير، وميزان العمل وغيره.

ومن هذا الغير شجرة أنساب الخلفاء والأمراء، الذي نقلت عنه الحلل الموشية آنفا، وإننا لانعلم شيئا عن التاريخ الكبير، كما لانعلم عن شجرة الأنساب سوى أنه أحد مصادر الحلل، أما الكتاب الثالث : ميزان العمل، فهو أيضا من مصادر الأنيس انظر ص 114، وقد حظي بشيء من الاعتبار من صاحب كشف الظنون فوصفه في العبارات التالية : ميزان العمل في التاريخ، اقتصر فيه على عدد الأيام من دول الملوك .

ومن المفيد أن ننبه إلى أن صاحب الجذوة قال عن ابن رشيق إنه كان حيا سنة 777، ولا شك أنه سبقه القلم فجعل سبعمائة عوض ستمائة، كما أن صاحب الكشف التيس عليه ابن رشيق هذا المرسى ثم السبتي بابن رشيق القيرواني، فنسب ميزان العمل للثاني غلطا، والأنيس هو الآخر تصفه نسخه المتداولة بابن رشيق المويسي تصحيف المرسى .

أما ابن القطان فلا نعلم عنه أكثر مما ذكره الأستاذ م. ليفي برونفسال في مقدمة (مجموع رسائل موحدية) : أنه عثر على جزء من كتاب : (نظم الجمان) لابن القطان، يشتمل على تاريخ ابتداء الموحدين، وسيطبع عن قريب، (ولم يطبع وقد مر على هذا الوعد زمن غير قريب)، هذا ما نعرفه عن ابن القطان.

وقد جاء في النفع (2) 136 نقلا عن ابن سعيد ما يأتي :

وذكر ابن غالب أن الفقيه أبا جعفر بن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن، قال ابن غالب : وفارقه سنة 565 والظاهر أن ابن عبد الحق القرطبي هو المترجم في التكملة باسم محمد بن عبد الحق أحمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي الفقيه (17)، كما جاء

في ترجمة أبي الحسن ابن القطان المحدث الشهير المار الذكر أنه كان ذاكرة للتاريخ (18)، فهل ابن القطان صاحب نظم الجمان واحد من الاثنين أو ثالث لانعلمه ؟ هذا ما لم يترجح عندي فيه شيء، ثم تبين أن المؤلف هو ابن أبي الحسن.

وبعد ابن القطان نحاول أن نعرف من هو ابن صاحب الصلاة ؟ إن هذه الكنية أطلقت على غير واحد من فضلاء الأندلسين، ولكن صاحب التاريخ هو المترجم في التكملة عدد 1726 بالعبارات التالية : عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، يكنى أبا مروان وأبا محمد، ويعرف بابن صاحب الصلاة، وهو صاحب التاريخ هذا ما كتبه ابن الأبار في ترجمة ابن صاحب الصلاة، وهو إن لم ينص على تاريخ وفاته ولا ولادته، فقد ذكره بين تاريخ 580 وتاريخ 608، مما يدل على أن وفاته كانت بين التاريخين، وكما لم ينص ابن الأبار على ما ذكر، كذلك لم يبين نوع التاريخ الذي لابن صاحب الصلاة، ونرى المقرئ في النفع ينقل عنه في (1) 484 باسم تاريخ للموحدين، وفي (2) 136 يذكره باسم تاريخ في الدولة المتونة، وجمعا بين كلام النفع، نرجح أن له تاريخين : في دولة المرابطين وفي دولة الموحدين، أو أن له تاريخا واحدا يتناهى الدولتين والظاهر أن هذا التاريخ أو تاريخ الموحدين، هو الذي يسميه مؤلف الأنيس 114 و 116 : كتاب المن بالامامة.

ونختم هذا الموضوع بذكر ترجمة مؤرخ لهذا العهد يحليه في الأنيس بمؤرخ دولة الموحدين، ويذكره بالقاضي أبي الحجاج يوسف ابن عمر، وقد وقفت له على ترجمة قصيرة في التكملة رقم 2826، وعبارتها : يوسف بن عمر - منسوب الى جده - الأموي من أهل اشبيلية يكنى أبا الحجاج، له تاريخ. ولم يذكر له وفاة ولا ولادة، ولكنه أورده بين سنة 605 ونحو سنة 620، فتكون وفاته بين التاريخين، ونجد النقل عن تاريخ أبي الحجاج في التكملة 1207، مسنيا والده هناك غمر بالغين المنقوطة.

الجغرافيا

وكانت للجغرافيا دولة أيما دولة في هذا العهد، بما توافر من السائحين والجغرافيين والجغرافيات، وبما اكتشف فيه من المجاهل، وظهر فيه من الأفكار الجغرافية المبكرة. وبما أذكى هذه النهضة : أن بعض خلفاء وأمراء الموحدين كان لهم - بدورهم - ذوق جغرافي خاص، ظهر في كثير من ملاحظاتهم ومخاطبتهم ومجالسهم، ومن هذا : أنه لما قال الخليفة يوسف بن عبد المومن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي، ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها؛ فقال الخليفة : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعل بصيرة : الديار المنفسحة الكبيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج الناضر، والمحراث العظيم، والشعراء الكافية، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها. قال فقلت ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول (1).

وقال الخليفة يعقوب المنصور لأحد رؤساء أجناد الأندلس ما تقول في قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامة الأندلس بقوله : جوفها شمام، وغربها قمم، وقبلتها مدام، والجنة هي السلام. - المصدر (1) 75، وقال تاج الدين ابن حموية السرخسي - حاكيا عن يعقوب المذكور - وقال لي يوما : كيف ترى هذه البلاد ؟ وأين هي من بلادك الشامية ؟ فقلت له : يا سيدنا بلادكم حسنة أنيقة جميلة مكملة وفيها عيب واحد، فقال : ما هو ؟ فقلت : إنها تنسى الأوطان؛ فتبسم وظهر إعجابه بالجواب، وأمر لي من غد بزيادة رتبة، النفع (2) 100.

وقيل للسيد أبي يحيى أخي السلطان يعقوب لما انفصل عن ولاية قرطبة : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال : مثل الجمل، وإن خفت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح،

ما ندي أي رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه (2)، وجرّت مناظرة بين يدي يعقوب المنصور بين الفقيه أبي الوليد بن رشيد والرئيس أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (3).

وكانوا يهدون لامراء الموحدين رسائل من هذا النوع، ومن هذا رسالة تتضمن المفاضلة بين بلاد الأندلس خاطب بها أديب الأندلس أبو بحر صفوان ابن ادريس الأمير عبد الرحمن بن الخليفة يوسف بن عبد المومن وقد أوردها بنصها في النفح (1) 80 - 83، وإن قصة التفضيل بين المغرب والأندلس جرت في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى ابن أبي زكرياء صهر ناصر بني عبد المومن، وبأمره كان تدوين هذه المفاضلة (4).

والى جانب هذا فإن ملوك الموحدين قاموا بأعمال كان لها أثر في تشجيع الرحلات والأبحاث الجغرافية، مثل توطيد الأمن بالمغرب حسبما تقدم، ومثل بناء المنازل من السوس الأقصى الى سويقة بني مطكود (5)، ومثل ما قاموا به من تكسير بلاد المغرب وافريقية من برقة الى بلاد نول - من السوس الأقصى - بالفراسخ والأميال طولا وعرضا (6)، ومثل حركة الاحصاء التي كانوا يقومون بها، وحافظ لنا ابن أبي زرع - ص 26 - وغيره على نوع منها - بفاس - يعطينا نموذجا من الاحصاء الذي كانوا يقومون به في سائر المغرب بعد فاس.

السياحة

وكان للمغاربة غرام خاص بالسياحة، وولوع بالتجول في الأرض : طولها والعرض، شأن العرب إبان نهضتهم الكبرى، وشأن الغربيين في نهضتهم الحالية، وقد شهد لهم بهذا الاهتمام بالرحلة والتجوال غير واحد، نذكر منهم - الآن - الأستاذ برانشفيك الذي قال في مقدمة كتابه عن رحلة عبد الباسط : ومن الطبيعي أن ينتج المغرب الاسلامي مؤلفي الرحلات بوفرة عظيمة، وينبغ به عدد جم من الرحالين الذين أثبتوا مشاهداتهم وتأثيراتهم في تصانيف قيمة، فإن الأندلسيين والمغاربة كانوا يشعرون بدافع شديد ينزع بهم الى كتابة ذكرياتهم، وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلاتهم الى الشرق بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحج.

(2) النفح 1. 75

(3) المصدر المذكور 1. 75

(4) ارجع الى النفح 2. 138. 155

(5) فوطاس 139

(6) فوطاس سنة 554 ص 126

وقد كانوا يشدون الرحال الى الشرق بقصد زيارة البقاع المقدسة أولا: وبالجاذبية القاهرة التي تستقدمهم كالمغناطيس لزيارة مراكز الدين، ومعاهد العلم الكبرى مثل مصر وسوريا والعراق وقد نبغ هؤلاء في جميع العصور (7).

وما ذكره حضرة الأستاذ برانشفيك من أن المغاربة كان يدفعهم للرحلة للشرق طلب العلم وأداء فريضة الحج، نلاحظ عليه :

أولا : أن سياحة المغاربة - في هذا العهد وغيره - لم تكن للشرق دائما وأبدا، بل كانوا يقصدون نواحي أخرى غير الشرق، وسنذكر كثيرا ممن رحلوا للسودان وسائر البلاد الأخرى.

ثانيا : أن دافع المغاربة للرحلة ليس هو العلم والحج فقط، بل كما كانوا يرحلون لهدين، كانوا يسيحون للتجارة، ومنهم من كان يرحل للبحث والاكتشاف أو للسفارة، ومنهم ملوك رحلوا بدافع الغزو والجهاد أو التفقد والتعهد، ومن رحلوا في هذا العهد للبحث والاكتشاف - كما سيأتي لنا - الادريسي، والمراكشي، وصاحب الاستبصار، وابن فاطمة. أما سياحات المغاربة للتجارة في السودان وسائر البلاد الأخرى فمن شواهدنا قول الشريشي في شرح المقامات : وبها - غانة - من تجار المغرب كثير، يدخلون للتجارة فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر، ويقول الادريسي في النزعة عن أهل أغمات : وهم أملياء تجار مياسير، يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال، الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون، والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف النظم من الزجاج والأصداق والأحجار، وضروب الافاوية والعطر، وآلات الحديد.

وفيها أيضا، لدى كلامه على سبتة : ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان، الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبمدينة سبتة سوق لتفصيله، وحكه وصنعه خرزاً، وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجه به الى سائر البلاد.

وكان الموحدون يشجعون جدا السياحة التجارية، ومن أمثلة هذا ما جاء في النفح (2) 100 - من رسالة للأمير الموحي أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الى ملك السودان بغانة، ينكر عليه تعويق التجار، وما جاء في هذا الكتاب : وقد بلغنا احتباس مساكين التجار، ومنعهم من التصرف فيما هم بصدد، وتردد الجلالة الى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكننا لانستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله.

السياحة البحرية

ولا ننسى أن ننبه هنا أنه نشطت في هذا العهد السياحة البحرية نشاطا كبيرا، حتى إنه بلغت أساطيل المسلمين على هذا العهد من الكثرة والاستجادة الى ما م تبلغه من قبل ولا من بعد، انظر ما سيأتي عن مقدمة ابن خلدون في مبحث الفنون، وهنا الفات نظر لأبد منه، وهو أن العلامة سارطون في مقدمته لتاريخ العلوم، يثبت أن البحارة المسلمين – على الأرجح – هم أول من استعمل خاصية الاتجاه المغناطيسي في عمل الابرة في الأسفار البحرية، حسبما نقله بعض الباحثين عن المقدمة المذكورة. (1) 741، فإذا لاحظنا تفوق المغاربة في البحرية على هذا العهد، نرى أنه لا يبعد أن يكونوا استعملوا بيت الابرة في عهد الموحدين.

الجغرافيا والجغرافيون

أولا : الشريف الادريسي السبتي

خرائطه - مؤلفاته

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي السبتي، من نسل الامام ادريس الفاتح العربي الشهير، ولد بسبته أو تطوان سنة 494 = 1100، وتوفي في صقلية نحو سنة 562 = 1166.

إننا لانعلم شيئا عن نشأة الادريسي وأساتذته، وإنما نعلم أنه بدأ أسفاره وهو في 16 سنة من عمره، وأخذ في قرطبة عن علمائها فاشتهر في معرفة الهيئة، والجغرافيا، والفلسفة، والطب، والنجوم، وقرض الشعر، ولقد كانت سلسلة تلك الأسفار التي بدأها الادريسي في حادثة سنه طويلة جدا، فقد سافر الى بقية بلاد الأندلس ومصر، وشمال افريقيا وتغلغل فيها، وساح في آسيا الصغرى والقسطنطينية، ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدها، كما طاف في سواحل فرنسا وانكلترا، وبعد هذا توجه قبيل سنة 533 = 1138 الى صقلية بدعوته ملكها روجر الثاني ملك صقلية وايطاليا وانكردة وقلوية، كما يحليه بهذا الادريسي طالعة النزهة.

1. الخريطة الحائطية : وقد رغب روجر من الادريسي أن يرسم له خريطة عالمية كاملة، يبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك، فرسم له الادريسي هذه الخريطة الحائطية وفق رغبته.

2. المائدة الفضية أو الخريطة الأرضية : ثم رغب منه ثانيا أن تحفر هذه الخريطة على لوح من الفضة. فأحضر روجر الصانع المهرة الذين اتقنوا هذا العمل تحت رعاية الادريسي

ورقابته. وبعد أن جعل الملك مقدار 400 ألف درهم من الفضة - كما روى خليل الصفدي - تحت تصرف الادريسي لهذا الغرض، اتخذ الادريسي أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة، يبلغ طولها كما قدر الاستاذ ميللر ثلاثة أمتار ونصفاً، وارتفاعها متراً ونصف متر تقريباً، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة خريطة بغاية الدقة والاتقان، وتماز الموافقة لتلك الخريطة التي رسمها من قبل، وكتب على هذه الخريطة الفضية بأحرف عربية كل ما عرفه من البلدان المختلفة، ولقد بلغ ثقل هذه المائدة الفضية نحو 140 كيلو غرام، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل في يناير 1154 م.

3. كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : وكشرح للخريطين، وتعليق عليهما، ألف الادريسي كتابه هذا، وهو يقسم - فيه وفي الخريطة - الأرض المعروفة - إذ ذاك - الى سبعة أقاليم أو مناطق، ثم يقسم كلا من هذه الى عشرة أقطار متساوية (8)، فجاءت 70 قطراً، ضمنها 70 خريطة، لكل قطر خريطة، وطريقه في هذا التقسيم : أنه ابتداءً بوصف القسم الأول من الاقليم، متدرجاً من الشرق الى 10، ثم عاد الى القسم الأول من الاقليم الثاني متدرجاً الى العشرين، وهكذا سار في طريقه الى أن تم الكلام على القسم الأخير من الكرة، وهو القسم السبعون، وعند كلامه على كل قسم منها حدد وبين موقعه، وتكلم عن مدنه وجباله، وبحاره وأنهاره، وعن كل ما يحويه من ماء ويابس، وعن الدول التي تشغله، وعن سكانه وجنسياته وعاداتهم، وعما يعيش فيه من حيوان، وما ينبت من نبات، مبينا كثيراً من خواص ذلك، طبيعية وطبية، وقد وصف البحار وصفا مسهباً دقيقاً، ووصف جزرها والبلاد التي تقع عليها، الى غير ذلك.

ومما يذكر للادريسي بالاعجاب، أنه حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة إثبات درجات العرض وتحديددها، وإنه أفلح في هذا الى حد كبير، ولقد أثبت درجات العرض بعد قياسات صحيحة مطابقة للواقع، بمقدار يدعو المقدر للخريطة الادريسية علمياً الى أن ينظر لها بعين الاكبار والاحلال.

(8) هذا ما يقوله هذا المصدر، أما المعلم السناني في دائره 675.2 والذكور يوسف شحت، في مقال له بشبه مجلة المستمع العربي 15.3، فشتان أن الادريسي قسم كل اقليم الى احد عشر جزءاً لاعشة حيث اصح العالم المعروف اداك شكوك من 77 جزءاً أو قطراً.

أما خطوط الطول فقد ترك الإدريسي إثباتها عن قصد، إذ تبين له أن مقادير المقاييس التي وصلت إليه غير صحيحة، ولأنه لم يتيسر له - بعد إجراء قياسات أرضية لبيان درجات الطول، وقياس الكرة السماوية - وإن كان في الاستطاعة - فإنه لا يعطى نتيجة مقطوعاً بها. وخريطة الإدريسي تمثل القسم المعمور، وهو القسم الشمالي من الكرة الأرضية، وأضاف الإدريسي إلى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءاً بسيطاً من القسم الجنوبي إلى درجة 16 جنوب خط الاستواء، هذا الجزء الذي تقع فيه منابع النيل، حيث يبين عليه منابع النيل بشكل واضح، يدل على مقدار براعته العلمية، وقد مد من الساحل الشرقي لأفريقيا نحو الشرق وجعله حد المحيط الهندي من جهة الجنوب، ولم يلق هذا الجزء عناية من الإدريسي لخلوه من السكان....

كذلك لم يثبت الإدريسي درجات العرض إلى درجة 28 شمال خط الاستواء، وإنما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة.

مآل الخريطين والكتاب

المائدة الفضية

ولقد ضاعت هذه المائدة خلال الثورة التي قامت سنة 555 = 1160 م على ابن روجر (فلهم)، كسرهما الثوار واقتسموها فيما بينهم.

الخريطة الحائطية

كما ضاعت المائدة الفضية، كذلك فقد الأصل للخريطة الحائطية، وإنما بقيت أجزاؤها موجودة في قطع متفرقة داخل كتاب نزهة المشتاق، موزعة في السبعين قطعة التي هي أقسام الأقاليم، أو مستقلة بذاتها، ومجموع هذه القطع الموجودة إلى الآن يبلغ 255 قطعة، كما ذكر الأستاذ ميللر - توجد بمكتاب باريس - واكسفورد، استانبول ولينغراد، والقاهرة عن هذه القطع استخرج الأستاذ ميللر خريطة تامة مشتبكة أجزاء، وطبعها طبعة ملونة سنة 1928، وهي أول طبعة لها، وتتضمن هذه الخريطة من أسماء المدن فقط، التي كانت ماثجة بالعمران في ذلك العصر 2064 اسماً، 36 بأفريقيا، 740 بأوروبا، 959 بآسيا. وهناك خريطة تدعى الخريطة الإدريسية الصغيرة طبعتها ميللر كذلك في مجموعته، وهي ليست للإدريسي وإنما هي لابنه محمد، وضعها سنة 588 = 1192 م واسمها روض الفرج. ولقد وجدها بعض الباحثين في استامبول في 73 قطعة، وإذا وازنا بينها وبين خريطة والده، فإننا نجده قد أخذها صورة طبق الأصل عنها بشيء يسير من التغيير، ومع هذا فقد فاقتة عناية والده في الرسم.

نسخ النزهة المخطوطة

كانت توجد نسخة كبيرة لها في دير الاسكوريال، فتلفت في حريقه، ويقول المعلم البستاني في الدائرة بعد هذا : إنه كان مع غريبو في انكلترا النخسة الأصلية بكاملها مع عدة خارطات متقنة الرسم، وإنه حصل المعلم باكوكا على نسختين عظيمتين منها. أتى بهما من مصر. أما النسخ المعروفة الآن من كتاب الادريسي، ففي مكتبة باريس مخطوطان، واكفسورد مخطوطان، واستامبول مخطوط واحد في أيا صوفيا، وعن هذا المخطوط الأخير نقل المرحوم زكي باشا نخسة مصورة بالفهتغراف محفوظة في دار الكتب المصرية، كما يوجد بمكتبة القرويين جزء منها متضمن للخرائط والرسم، وقد غاب هذا الجزء عن علم كثير من الباحثين في هذا الموضع، كما أن خرائط غابت عن علم الأستاذ ميللر.

ما طبع وترجم من النزهة

لم تطبع النزهة طبعة كاملة مع رغبة الأوربيين فيها وحاجتهم إليها، وأول ما طبع منها مختصها العربي، طبع في روما سنة 1001 = 1592 م في صحائف 326، بعنوان نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار، والبلدان والحزر والمدائن والآفاق. وهو أول ما طبع بالعربية، ونشئ بباريس سنة 1029 = 1619 م ترجمة هذا المختصر اللاتينية الناقصة التي قام بها المارونيان حريبا سمنتا، وجون هرنستا، كما ترجم أصل الكتاب الى الفرنسية عن نسخة مكتبة باريس الملكية ترجمة كثيفة الخطأ، قام بها أمديه جهير، ونشرت الترجمة سنة 1252 = 1836 - 1256 = 1840.

وقد نشئت من النزهة أقسام بالعربية وغيرها على حدة، فطبع بالعربية المعلم باكوكا المبحث الذي يتعلق بمكة المشرفة مما استخرجه من النسختين اللتين أتى بهما من مصر، ثم أعاد طبع هذا المبحث ثانيا المعلم قاسيبي، وطبع قسم من هذا الكتاب في بانور سنة 1205 = 1790، كما طبع القسم المختص بالأندلس تحت اسم ذكر الأندلس، تأليف شريف الادريسي مع ترجمة كهندي له إلى الاسانية، مدريد 1214 = 1799، صحائف 20، 234. وطبع أيضا في مدريد ومعه ترجمة اسانية سنة 1299 = 1881، وطبع ميللر وصف الشام وفلسطين في ليسبك 1244 = 1828، وطبعت القطعة نفسها في بون 1303 = 1885 - صحائف 28، وطبع دوزي قسما منها فيه صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ومعه مقدمة و ترجمة وفهرس الأسماء، وشح الكلمات الاصطلاحية الموجودة في الكتاب، وكلها بالفرنسية، وسمي الكتاب : صفة المغرب والسودان؛ مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لندن 1281 = 1864 - صحائف 23، 242. وكذلك طبعت قطعة

تشتمل على مقدمة وصفة البلاد التي هي الآن مملكة إيطاليا، ومعها ترجمة ايطالية، وشروح وتعليق، روما 1296-1878 - صحائف 15، 156، 144، ونشر منه العلامة الألماني هارتمان قطعاً أخرى.

مميزات الخريطة وشرحها

إن الخريطة الادريسية أقدم خريطة عالمية يعرفها التاريخ، وإنها قد امتازت مع شرحها بالمميزات الآتية :

□ تجنب الادريسي ذكر الخرافات التي كانت شائعة في العصر المتوسط، والتي تورط في ذكرها غيره من المؤلفين. ولقد كان من حنكته أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن حدود العادة نسبته الى ناقله، ثم أعقبه بكلمة احتياط كقوله : والقادر على كل شيء أعلم بما في هذا من الحقيقة؛ ولم يرسم ما كان شائعاً عند علماء الجغرافية مما يمثل الغرائب الخرافية، وطبعاً كان لتعاليم الاسلام الفضل الأكبر في هذا.

□ انفردت الخريطة الادريسية بأنها هي الخريطة الوحيدة التي تعطينا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزويني وصحراء العجم، في مدة من الزمن تبلغ نحو قرن، هذه المدة التي لولا خريطة الادريسي لظلت حلقة مفقودة في تاريخ هذه البلاد.

□ إن خريطة الادريسي وحدها هي التي مثلت لنا دولة الاسلام العربية وهي في عصرها الذهبي قبل أن تجني عليها أيدي التتار الأثيمة.

ملاحظتان

□ لا ينبغي أن يفهم من وصف المائدة الفضية بالاستطالة ما يفهمه ظاهر هذه العبارة : من أن لها طولاً وعرضاً، بل الواقع أنها كانت مستديرة، ومن صرح بهذا الأستاذ سيديو في خلاصة تاريخ العرب ص 229، والأستاذ جرجي زيدان في مختصر آداب اللغة العربية 184، ولكن استدارتها كانت على شكل اهليلجي على هيئة البيض، وهذا هو المراد باستطالتها حسب مذهب الادريسي في تكوير الأرض، فإنه كان يعتقد أن الأرض مكورة على شكل ببضوي، وما يؤكد هذا : أن الأستاذ ميللر لم يقدر عرض المائدة الفضية، وإنما قدر طولها قاصداً به تقدير محيطها.

□ شاع في غير ما كتاب : أن المائدة الفضية هي أول كرة عرفها التاريخي، وهذا كلام مخالف للواقع، وما يردده ما أثبتته العلامة داربرد الأستاذ بجامعة نيويورك الأمريكية في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : أنه كان بالمكتبة الفاطمية بالقاهرة كرتان أرضيتان : احدهما من الفضة، والأخرى من البرنز، قيل إن الأولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه، وإنها

استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب، اه نقله في الدائرة الوجدية - 8 - 586 و 587، وفي غير هذا المكان.

وأصل هذا الكلام لابن القفطي في أخبار الحكماء ص 286، فقد نقل في ترجمة ابن السبدي عنه : أنه عاين في مكتبة الفاطميين كرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، قال : وتأملنا ما مضى من زمنها فكان 1250 سنة، وكرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة، وزنتها ثلاثة آلاف درهم، قد اشترت ب 3000 دينار.

ثناء علماء الجغرافية على الخريطة الادريسية وشرحها

وهذه كلمات تقدير وتنويه للخريطة الادريسية وشرحها صدرت عن كبار علماء الجغرافية، نثبتها فيما يلي :

إن كتاب الادريسي لا يمكن أن يوزان به أي كتاب جغرافي سابق له، وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الأمور المتصلة بها (9).
إن روجار الثاني والادريسي بوضعهما هذه الخريطة قد وضعاً أهم حجر أساسي في انتشار العلم الانساني (10).

وسيدكر اسم الادريسي ويخلد إن لم يكن لخدماته في سبيل النهوض بالعلم، فللتقدم العظيم الذي يمثله مجهوده في ميدان الجغرافيا العلمية، وحصافة رأيه وتجرده من التحيز، وموقفه الانتقادي الدال على ذكاء نحو أسلافه (11).

ولقد كانت جغرافية الشريف الادريسي معول أهل أوربا في تقويم البلدان أجيالا، ولا سيما عن بلاد الشرق، وقد رسموا خرائطها وتناقلوها وترجموها الى ألسنتهم (12).
تركت - خريطة الادريسي - أثرا واضحا في المؤلفات والخرائط الجغرافية التالية لهذا العصر في الشرق والغرب، وظلت مع شرحها مآت السنين المرجع الوحيد لعلماء الجغرافيا من العرب والافرنج، ومعينهم الذي يستمدون منه معلوماتهم (13).

4. روض الأنس ونزهة النفس - أو كتاب المسالك والممالك - وهو نسخة كبيرة منقحة من نزهة المشتاق، وضعها الادريسي لابن روجر الثاني (غليوم الأول) 1154 - 1166

(9) البارون دي سلان الحلة الآسيوية الفرنسية عدد أبريل سنة 1841

(10) كوراد ميللر في حاقمة عنه عن كتاب نزهة المشتاق

(11) د. يوسف شخت، مجلة المستمع العربي السنة 3 العدد 15

(12) حرجي زيدان في تاريخ الاداب العربية

(13) محمد عبد الله ماضي مجلة الرسالة ح 2. عدد 65.

وما يزيد المسألة تأكيداً أن الشريف الإدريسي السبتي قص في نزته خبر الاخوة المغرورين الذين لججوا في المحيط الاطلانطيكي ليعرفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤه، حيث وصلوا الى بعض جزء الانتيل بين أمريكا الشمالية والجنوبية. فإذا تحقق هذا فإن المغاربة سبقوا في هذه الفكرة سلطان غانة الذي حاول أن يعرف غاية الاطلانطيكي، وأبا الثناء محمود الاصفهاني وقطب الدين الشيرازي اللذين تخيلا بدورهما وجود أمريكا وأخيرا مهذا السبل للبحار الجنوبي كريستوف كولومب؛ الذي ابتداءً على يد اكتشاف أمريكا.

مغريان يكتشفان منابع النيل في هذا العهد

وما يفتخر به هذا العصر، أنه فيه عرفت منابع النيل لأول مرة في تاريخ الاسلام، واكتشفت على يد مغربيين صميمين. وأول هذين المغربيين : هو الشريف الإدريس، فقد ذكر في نزته منابع النيل عند خط الاستواء بكيفية واضحة حسبما سلف لنا، وارجع الى حسن المحاضرة (2) 183، كما رسم في إحدى خرائطه منابع النيل وصورها بحيرات عند خط الاستواء، كالتي اكتشفها أهل التمدن الحديث، وهذه الخريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا، وقد أثبت صورتها الأستاذ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية، وكتب تحتها : خريطة الإدريسي نقلا عن نسخة خطية في متحف سان مرتين؛ رسمت 1160.

أما المغربي الثاني، فهو أمير موحدي من آخر أمرائهم، في مسالك الأبصار (1) 68 : حدثني أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي : أن الأمير أبا دبوس بن أبي العلي أبي دبوس، ووالده آخر سلاطين بر العدو من بني عبد المومن، حدثه أنه وصل الى هذه البحيرة (حيث منبع النيل) في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين.

وإن هذين المغربيين سبقا باكتشافهما هذا، أولئك الذين زعموا اكتشاف منابع النيل في القرن الماضي، مدعين أن الفضل في اكتشافها لأوربا، والواقع أن المغاربة في هذا الميدان سابقون وغيرهم لاحقون.

اكتشاف بعض مجاهل إفريقيا

كما أنه في هذا العصر اكتشف مغربي بعض مجاهل إفريقيا، حسبما يدل لهذا ما سبق أن ابن فاطمة توغل في كشف الساحل الافريقي الغربي، إلى أبعد مما كان معروفا عند الأوربيين حينذاك.

هل قال المغاربة في هذا العصر بدوران الأرض ؟

جاء في عقود الجمان للشطبي (خ) : أن المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، كان كثيرا ما ينشد بيتي القاضي عبد الوهاب :

ومن أعجب الأشياء أنك قاعد على الأرض في الدنيا وأنت تسير
وسيرك يا هذا كسير سفينة يقوم قعود والشرع تطير

فهل يدل هذا على أن ابن تومرت كان يعتقد حركة الأرض ؟ وهل يوخذ منه أنه كان يقول بفكرة دورانها ؟ إن الجواب عن هذا بالاجاب هو الظاهر، وهو الذي يفيد ترمه بالبيتين، وكثرة إنشاده لهما، وأضيف الى هذا : أن غير ابن تومرت من المغاربة قد يكون مال الى هذه الفكرة.

ومما يشير لهذا، أن محيي الدين ابن العربي الحاتمي، قرر في باب معرفة بدء الجسم الانسانية من الفتوحات (1) 123 - دوران الأرض حول نفسها، وقال : غير أن حركة الأرض خفية عندنا، وحركتها حول الوسط لأنها أكرة.

ومفهوم من ترجمة ابن العربي أنه دخل غير مدينة من مدن المغرب مثل سبتة، وفاس، ومراكش، وأفاد بكتبه وأفكاره، التي لا يبعد أن يكون في ضمنها قوله بحركة الأرض، وأن يكون بعض المغاربة الذين اتصلوا به استفادوا منه هذه الفكرة، وقالوا بقوله فيها، فإذا ثبت هذا يكون المغاربة سبقوا عضد الدين الأيجي، الذي صرح بها في كتابه : المواقف ؛ وبالتالي مهدوا السبل لكوبرنيس وغاليلو للتوسع في هذه الفكرة.

وهل تخيلوا وجود أمريكا ؟

يذكر العلامة المؤرخ بيم التونسي في كتابه صفوة الاعتبار (1) 85 ما يأتي : نقل لي ثقة أنه رأى في بعض كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي، أن وراء المحيط أما من بني آدم وعمرانا وينقل ابن خلدون في المقدمة ص 44 عن ابن رشد الثاني أنه كان يقول : أما ما وراء خط الاستواء في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا؛ وابن رشد أيضا ممن أقام بمراكش من المغرب مدة، وبه توفي.

فلا يبعد - بعد هذا وبعد ما ذكرنا آنفا من مقام ابن العربي بالمغرب - أن بعض المغاربة الذين اتصلوا بابن العربي أو بابن رشد رأى مثل رأيهما، وتخيل وجود أمريكا كما تحلاها.

ثالثا : عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي 581 = 1185 - 625 - 1228، ختم كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب بنبذة غير مطولة، ذكر فيها أقاليم المغرب وعين مدنه، وحدد ما بينهما من المراحل عددا : من لدن برقة الى السوس الأقصى، وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها، كما ذكر معادن المغرب وأنهاره العظام، مع الأنهار الكبار المشهورة بالأندلس، وهو مطبوع مترجم.

رابعا : أبو علي المراكشي، وهو إن اشتهر في الحساب والفلك، فقد كان له اعتناء بالجغرافيا، حسبما يوضح من خلاصة تاريخ العرب لسديو ص 230.

خامسا : ابن فاطمة : الغالب أنه مغربي، أخذ ما جاء عنه أنه قام برحلة بحرية جنوبي مراكش، وغرقت السفينة التي كان فيها عند الرأس الأبيض (جنوبي المستعمرة الاسبانية التي تعرف الآن باسم ساحل الذهب)، بعد أن توغل في كشف الساحل الأفريقي الغربي الى أبعد مما كان معروفا عند الأوربيين حينذاك، والظاهر أن ابن فاطمة قام بأسفار طويلة في افريقية، ولعله كتب أخبار هذه الرحلات، ولكن شيئا من آثاره لم يصل إلينا، ما خلا الذي نقله عنه ابن سعيد حين أشار إليه في أكثر من موضع واحد - الرحالة المسلمون 122.

سادسا : المسالك والممالك للمراكشي، هكذا ذكره في كشف الظنون (2) 423، وقبله ذكره ابن الوردي في طليعة خريدته (3) كمصدر من المصادر التي رجع إليها. وبين العلامة المؤرخ عباس بن ابراهيم في مقدمة الاعلام (1) 140 هذا المراكشي بأنه ابن عذاري، والغالب أن هذا إنما هو مجرد فهم فهمه الأستاذ المذكور، فإنه لم يؤكد بنص يستند إليه، والظاهر أن المراكشي مؤلف المسالك هو الشريف الادريسي، فقد تقدم لنا أن من جملة تأليفه : كتاب المسالك والممالك، وهذا وإن كان يبعده وصف المؤلف بالمراكشي مع أن الادريسي سبتي بلدة وشهرة، فإنه يقربه أن الادريسي هو المغربي الوحيد الذي عرف له كتاب المسالك والممالك.

سابعا : عبد الرحمن بن هرون المغربي : ممن سافر الى الصين وأقام به وبجزائره مدة طويلة حتى صار يعرف بالصيني، وكان صاحب غرائب، واتصل بالحافظ ابن الجوزي المولود والمتوفى نحو 508 - 597 وذكره في كتابه المسمى بكتاب الحيوان، انظر خريدة العجائب. 76 - 77 - 97، وهذا الأخير لأجزم بمغربيته الأقصوية، لما أن مادة (مغربي) مشتركة اشتراكا واسعا، وإنما ذكرته ليحتفظ به ويبحث عن نوع مغربيته.

ونتبع الحديث عن الجغرافيين والجغرافيات بما ظهر في هذا العهد من الأفكار الجغرافية المبكرة، وما اكتشف من الاكتشافات الهامة وما إلى ذلك :

م. وقد فقد هذا الكتاب ولم يبق منه إلا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفداء عند كلامه على الجغرافية العربية، كذلك حدث عنه الشاعر الأندلسي ابن بشرون، وذكر أن الادريسي ألفه سنة 557 = 1161.

5. أنس المهج وروض الفرج - أو روض الفرج ونزهة المهج - كتاب جغرافي صغير، اختصره الادريسي من الكتاب قبله، وهو لا يزال باقيا إلى اليوم، محفوظا في مكتبة حكيم أوغلو علي باشا باستانبول رقم 688، وكان أول من أشار إليه هو وفتر عندما كان ينقب في مكاتب استانبول باحثا عن مخطوطات في التاريخ. والغالب أن خريطة ابن الادريسي المارة الذكر، ص 81 والمسماة روض الفرج، هي خريطة لهذا الكتاب كما يشير لهذا موافقة اسمها لاسم الكتاب (14).

ثانيا : صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار ممن نشأ بالمغرب. يدل لهذا ما ذكره عند حديثه عن مراكش : أنه كان أيام عبد المومن يعوم هو (ورفقاؤه) في البحيرة التي غرسها هذا الخليفة غرب مراكش، وأنه لا يكاد القوي منهم يقطع الصهرج إلا عن مشقة وكانوا يتفاخرون بذلك. ونحن نعلم أن العوم في هذه البحيرة من جملة ما رأى به عبد المومن الحفاظ : صغار الطلبة - فقد كان يأخذهم يوما بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه، الخ (15). فإذا لاحظنا هذا وذاك، نستنتج استنتاجا لا غبار عليه أن مؤلف الاستبصار ليس من أهل المغرب فحسب، بل من حفاظ الموحدين ثم إذا لاحظنا بعد هذا أن حفاظ الموحدين لما أتموا دراستهم عزل بهم عبد المومن أشياخ المصامدة وولاهم الولايات كما في الحلل أيضا ص 114، فإذا لاحظنا هذا يترجح أن صاحب الاستبصار لابد أن تكون له وظيفة في الدولة الموحدية، وقد يكون توظف بفاس لما يفهم من كتابه الاستبصار أنه كان وقت تأليفه سنة 587 بفاس.

وبعد هذه اللوحة القصيرة عن المؤلف ننتقل إلى المؤلف، ونبين أنه يتناول البلاد ومسافاتها، وطبائعها، وعادات أهلها.... يبدأ بطرابلس الغرب بفاس، والقيروان وتاريخها، وما يليها من البلاد، مثل صبرة، ورقادة، وسائر مدن المغرب، وهو جزيل الفائدة، ومنه نسخ مخطوطة محفوظة بالرباط والجزائر، وفيينا، وهذه المدينة الأخيرة طبع طرف يسير منه سنة 1856، وترجم إلى الفرنسية وطبع سنة 1910.

(14) رجعت فيما كتبه عن الادريسي وآثاره زيادة على المصادر التي صرحت بالنقل عنها، إلى دائرة المعارف البستانية (2) 674 - 675 ودائرة لمعارف الإسلامية (ع) 1. ع. 3، وتاريخ الادب العربية لحورجي زيدان (3) 84 - 86 وتاريخ سوريا للمطران يوسف وكتاب الرحالة السلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن. 64 - 67 ومجلة الرسالة السنة الثانية اعداد 64 - 66، ومجلة المستمع العربي، السنة الثانية ع. 15، وبرنامج مكتبة القرويين، وتحسن مقارنة هذه الصفحات عن الادريسي بما نشره في مجلة دعوة الحق السنة 9 ع. 8.

(15) الحلل الموشة ص 114.

إنشاء المغاربة فرقا للكشفية

ومما يلحق بهذا مما يدل على علو كعب المغاربة في السياحة : أنهم الذين اهتموا هم الأولون لتأسيس فرق رياضية أعطوها اسم الكاشف، فقد ذكر بعض الباحثين عن الخليفة الموحي عبد المومن أنه لما اجتاز الجواز الثاني للأندلس، وجد عقبة بن الحجاج والي الأندلس أنشأ طائفة من الدرك (الفرسان) لتوطيد الأمن في البلاد سماها بالكاشف، وعاین نظامها عبد المومن، وأعجب بها، فلما رجع الى المغرب أحدث المدارس، وأسس فيها الألعاب الرياضية، وفرقا للكشفية أعطاهم هذا الاسم، وطورها من حراسة الأمن الى التربية والعمل على نشر الفضيلة وقمع الرذيلة.

وبهذا العمل يكون المغرب قد سبق أوربا لهذا الابتكار، ويكون عبد المومن هو المؤسس الأول للكشفية، وبإذن بول الانجليزي الذي اشتهر عند الكثير أنه المؤسس الأول لمناهج الكشفية، إنما له فضل تنظيم هذه الفرق، وبعث مناهجها في العصر الحاضر.

تأسيس ركب الحجاج المغربي

ولئن دل ما سبق على اهتمام المغاربة بسياحة البحث والاكتشاف، فإن هذا يدلنا على اهتمامهم بنوع آخر من السياحة، وهو سياحة الحج الى الأراضي المقدسة، وإن الفضل في الدعوة الى هذه السياحة، يرجع للشيخ أبي محمد صالح المتوفى سنة 631، فقد كون الركب الحجازي لأول مرة في تاريخ المغرب، وكان مهما انتهى اليه أخذ يطلب الانخراط في طريقته، يجعل أهم الشروط لقبوله إياه حج بيت الله الحرام، أو على الأقل يبرهن على أنه خدام طريق الحجاج.

ولقد جعل من أصحابه كجمعية تبشيرية تدعو الناس لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وتبني منازل لنزول الحجاج في ذهابهم وإيابهم، وكانت تبتديء هذه المنازل من بلاد حاجة بالمغرب الأقصى الى الاسكندرية، ولقد بث أصحابه في المراكز من آسفي الى الحجاز، وجعل ولده السيد عبد العزيز بمصر حتى توفي (16).

ويظهر أنه بسبب عمل أبي محمد صالح هذا تعددت ركاب الحج في المغرب، فكان زيادة على الركب الصالح ركب سجلماسية، وأقدم ركب وقفت عليه من هذا، هو الركب السجلماسي الذي وفد مع رئيسه الشريف السني المولى الحسن القادم، جد العائلة المالكة العلوية الشريفة (17).

16) انظر المناهج الواضح 352 — 353 — 375. واسفي وماإليه 99 — 100

17) انظر الاشراف لابن الحاج (خ).

مظهر آخر من مظاهر ولوع المغاربة بالسياحة

ونشأ عن كثرة سياحة المغاربة، وهجرة بعضهم الى خارج المغرب : أن خصصت لهم في غير ما جهة من جهات الأرض أماكن خاصة بهم، ووقفت أوقاف مقصورة عليهم، ومنحوا امتيازات لهم.

ومن أمثلة هذا ما قرأته في رحلة ابن جبير 21 - 22 : أن سلطان مصر صلاح الدين الأيوبي جعل مسجد ابن طولون الواقع بين مصر والقاهرة، مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، قال ابن جبير : ومن أعجب ما حدثنا به أحد المختصين منهم : أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل لأحد يدا عليهم، فقدموا من عند أنفسهم حاكما يمثلون أمره ويتحاكمون في طواريء أمرهم عنده.

ومن هذا أيضا ما جاء في الرحلة المذكورة ص 266 - لدى كلامه على دمشق : ومن مناقب نور الدين رحمة الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة، منها طاحوتان وسبعة بساتين. وأرض بيضاء. وحمام ودكانان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه أن هذا الوقف المغربي يغل إذا كان النظر فيه جيدا خمسمائة دينار في العام، وارجع إليها ص 10 و 258.

نقلت كلام ابن جبير هذا الذي اعتم به الحديث عن الجغرافيا، لما أن أهل المغرب الأقصى من مشمولات المغاربة في كلامه.

الفلسفة

وكان لعلوم الفلسفة نفاق كبير في هذا العهد، وكان المغرب من الأقطار التي يفزع إليها في مشاكل الفلسفة، ومن شواهد هذا أن فردريك الثاني ملك إيطاليا وجه مسائل فلسفية إلى علماء سبتة ليحيوا عنها؛ حيث ندبوا للجواب عنها الفيلسوف المسلم الكبير ابن سبعين 614 - 669. وكان إذ ذاك بسبتة، ولقد انتدب هذا الفيلسوف للجواب عن تلك المسائل في كتاب عنوانه : «المسائل الصقلية»، وقد اشتمل على 49 صفحة، وتوجد منه نسخة خطية في أكسفورد (1).

وبصفة أخص؛ كان للفلسفة في أيام يوسف نهضة كبيرة، ويوسف نفسه كان على رأس المشتغلين بها المحبين لها، فقد طمح بهذا الخليفة - كما في المعجب 155 - شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزاءها، انظر ما يأتي في مبحث خزائن الكتب.

وكما جمع كتب الفلسفة كذلك جمع إليه علماءها وفي مقدمتهم ابن طفيل الذي أحبه هذا الخليفة حبا جما قال في المعجب 156 - 159 : ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب، وكان ممن صحبه من العلماء المتفنيين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين، كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة... قال ورأيت لابي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والألهيات وغير ذلك، فمن رسائله الطبيعيات؛ رسالة سماها : رسالة حي بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الانساني على مذهبهم، وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن.

ومن تصانيف الالهيات؛ رسالة في النفس رأيتها بخطه رحمه الله، وكان قد صرف عنايته في آخر عمره الى العلم الالهي ونبذ ما سواه، وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشرعة، معظما النبوة ظاهرا وباطنا، هذا مع اتساع في العلوم الاسلامية.

وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به، والحب له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهارا لا يظهر ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار، وينبه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنبه بهم، وهو الذي نبه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم، أخبرني تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر برود بن يحيى القرطبي، قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما، فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي، ان قال ما رأيهم في السماء ؟ يعني - الفلاسفة - أقديمة أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت اتعلل وانكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، التفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل السلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظه لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل ييسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنينة ومركب.

وبفضل هذا الاهتمام من يوسف ابن رشد ما ترجم من كتب أرسطو الطبيعية، قال في المعجب 159 عن تلميذ ابن رشد السالف الذكر عنه قال : «استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به، لما أعلمه من جودة ذهنك، وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك الى الصناعة، وما يمنعي من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي الى ما هو أهم عندي منه، قال أبو الوليد : فكان الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس، وقد رأيت أنا لابي الوليد هذا تلخيص كتب الحكماء في جزء واحد. في نحو مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع، لخص فيه كتاب الحكماء، المعروف بسمع الكيان، وكتاب السماء والعالم. ورسالة الكون والفساد، وكتب الآثار

العلوية، وكتب الحسن والمحسوس، ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء».

وتكميلاً للفائدة نقول : إن صاحب المعجب إنما رأي لابن رشد شرحين على ما ذكره من كتب أرسطو صغيراً ومبسوطاً، والواقع أن له شروحات ثلاثة : أكبر، وأوسط، وأصغر، أما شروحه الصغرى فتوجد بالعربية في مجريط باسم كتاب جوامع كتب أرسططاليس، وتشتمل على شرح كتب أرسطو الآتية : الطبيعيات، السماء والعالم، الكون والفساد، الآثار العلوية، النفس، وبعض مسائل فيما بعد الطبيعة، وأما الشرح الأوسط فيوجد منه مكتوباً نصه العربي بحروف عبرية تفسير ما يأتي : الكون والفساد، الآثار العلوية، النفس، شرحه للطبيعيات الصغرى (2)، كما توجد شروحه الثلاثة باللاتينية والعبرية على : الطبيعيات، السماء والعالم، النفس، وما بعد الطبيعة، وقد فقدت شروحه الكبرى على كتب أرسطو الأخرى (3).

وإذا أردنا أن نتبين أثر تلك العناية بالفلسفة من يوسف فينبغي أن نعلم أن العالم المفكر عامة، وأوروبا بصفة خاصة، قد استفادوا من هذا الاهتمام استفادة كبرى؛ فإن ترجمة ابن رشد لكتب أرسطو اعتمدها من جاء بعده ولا سيما أهل أوروبا، وللتدليل على هذا نسوق ما يأتي :

قال المؤرخ الفرنسي الشهير أرنست رينان 1823 - 1892 : لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو (4).

وقال غيره : ترجمة ابن رشد هي معتمد أوروبا، وقال المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون : أمر لويس الحادي عشر بتدريس مذهب ابن رشد ومذهب أرسطو الفيلسوفين في كل جامعات فرنسا ونافار (5).

وقد فشلت هذه الفلسفة مع فلسفات إسلامية أخرى في مدرسة الطب في مونبليه سنة 1220، وانتشرت منها إلى جامعات بورغونيا ولومباردي، وسويسرا، ولوفان، فظلت هذه الفلسفة تدرس فيها حتى سنة 1650 (6)، وممن اشتغل بفلسفة ابن رشد فردريك الثاني ملك إيطاليا الذي قرأ ترجمة ابن رشد (7).

(2) المكتبة الإلهية ساريز رقم 307 - 310

(3) ارجع الى دائرة المعارف الإسلامية (ج) ع 3 ص 168

(4) المستشرقون 52

(5) المقطع ص 74 - 5 ص 535

(6) المستشرقون 15

(7) المستشرقون 16

وقد نقل شروح ابن رشد الى العربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر يعقوب الأنطولي (1232 م) وهو من مدينة نابلي، وموسى بن تبون (1260 م) وهو من مدينة لونيل، وقلونيموس (1314 م)، وشمويل ابن تبون، ويهوذا بن سليمان كوهين (1247 م) وهو من مدينة طليطلة، وشم طوب بن يوسف بن فلغري، وقد شرح ليون بن جرشون كتب ابن رشد كما شرح ابن رشد كتب أرسطو.

وفي العالم المسيحي بدأ ميخائيل سكوت 1175 - 1275 م ينقل مصنفات ابن رشد من العربية الى اللاتينية عام 1230 - 1240 م، فترجم شروح ابن رشد على ما كتبه أرسطو عن السماء والأرض والنفس، وقد كان ابن رشد لا يزال حيا حتى سنة 1198، وبهذا يرجع ذبوع اسم ابن رشد الى ميخائيل سكوت، ثم لخص ارمنجان فلسفة ابن رشد، وحوالي نهاية القرن الخامس عشر اصلى كل من نيفوس وزيمارا الترجمات القديمة، وقد ترجم كتب ابن رشد ترجمة جديدة معتمدة على النص العربي يعقوب منتينو الطرطوشي، وابرهام ده بالمر، وجيوفاني فرنسيسكو بورانا من ثيروننا، وكان نيفوس (1495 - 1497 م) ويونتاس (1553 م) أفضل من ترجم ابن رشد، وترجم ليون جوتيه الفرق بين الدين والفلسفة لابن رشد في كتبه : فصل المقال، التهافت، فصل الخطاب، وهي الأطروحة التي أعدها لنيل الدكتوراه 1909.

وأخيرا من الفريق الذين كتبوا عن فلسفة ابن رشد رينان المار الذكر : ألف كتاب ابن رشد والرشديين، قرر فيه سيرته ومؤلفاته وقال عنه : إنه كان أعظم فلاسفة القرون الوسطى، التابعين لأرسطو والناهجين سبيل حرية الأفكار، وأقواله خالية من الميل، وقد طبع هذا الكتاب في باريس 1892 (8).

هذا ولا ندع الحديث عن الفلسفة - التي تناولت كثيرا الطبيعية منها - دون أن ننبه الى مسالتين، الأولى : أن الاعتناء بالفلسفة لم يكن مطردا أيام الموحدين، وموقف يعقوب المتناقض منها معروف، وانظر بالخصوص المعجب 204 - 205، والمأمون منهم كان منحرفا عنها على طول الخط، وقد أدى به هذا الى أن قتل الفيلسوف الأندلسي ابن حبيب من أجل اشتغاله بهذا العلم (9). كذلك بعض علماء هذا العصر كان يقاوم الفلسفة والفلاسفة، وسنرى ما يشهد لهذا في مبحث النماذج من قسم الآداب، وستقف عليه في خطبة أبي

(8) دائرة المعارف الاسلامية مج 1 ع 3 ص 173 - 174. المستشرقون 15 - 20 - 52 - 59

(9) ارجع الى التفخ 2. 138

حفص الأغماتي وشعره في الاجتماع فيما يأتي، ولا يبعد أن قصيدة ابن حبوس التي يعلن فيها موقفه ضد الفلاسفة - وستأتي فيما بعد - قالها على هذا العهد.

أما المسألة الثانية فتتناول فيها مسألة وردت في تاريخ الآداب العربية للأستاذ جرجي زيدان (3) 99، فقد نسب فيه للمهدي ابن تومرت : كتاب كنز العلوم في الفلسفة الطبيعية والشرعية، وذكر أنه توجد نسخة منه في الخزانية التيمورية بالقاهرة، والغالب أن هذا الكتاب ليس للمهدي ابن تومرت، فإنه لم ينسبه له واحد ممن ترجم له فيما وقفت عليه سواء، ولما أورد في كشف الظنون هذا الكتاب (2) 335 نسبه لابن تومرت أيضا، ولكنه آخر غير المهدي المشهور نسبة وبلدة، فقد سماه محمد بن أحمد بن تومرت، ووصفه بالأندلسي، فكأن الأستاذ جرجي زيدان ظن أن ابن تومرت هذا هو المهدي المشهور، والتبس عليه الأندلسي بالمغربي.

وبعد هذا النزوع من الفلسفة - الطبيعي - أتابع الحديث عن العلوم الفلسفية الأخرى التي كانت شائعة على هذا العهد.

العدد

الحساب - الجبر - المعاملات

وكان للعلوم العددية نهضة في هذا العهد، نشطها الموحدون بتقديرهم لهذا العلم تقديرا كبيرا، وانظر في هذا الى ما جاء في نفح الطيب (2) 253 : أنه لما مدح عبد المومن أبو القاسم بن سعدة الأوسي - وكان من ذرية ملوك - كتب اسمه وزير عبد المومن في جملة الشعراء، فلما وقف على ذلك عبد المومن ضرب على اسمه وقال إنما يكتب هذا في جملة الحساب.

ولما قاوم يعقوب المنصور الفلسفة مقاومته - التي لم يلبث أن رجع عنها - أبقى على العلوم العددية ولم يقاومها (1)، ولقد كان هذا العلم من العلوم المقرر تدريسها عند الموحدين، ومن اشتغل بتدريسها الامام أبو العباس السبتي الذي كان يقرئ الحساب والنحو ويأخذ على ذلك أجرة (2)، وأبو الجسن علي بن محمد بن فرحون القيسي القرطبي المتوفى 601، استقر بفاس وسكنها مدة حيث أقرأ بها الحساب الذي كان بصيرا به، وله فيه تأليف سماه : اللباب في مسائل الحساب، وقد حدث به وسمع منه بفاس سنة 587 (3)، ومن اشتغل به أيضا عبد المنعم بن محمد المراكشي الذي كان حيا سنة 598، كان الى جانب معرفته بالعربية والآداب حيسوبيا (4)، وأبو عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي، المتوفى سنة 662، كان إماما في هذا الفن مقدما في إقامة البرهان عليه (5).

وبصدفة خاصة كان فن الجبر والمقابلة رائجا في هذا العهد، ومن رجاله : أبو عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسين الفاسي، المتوفى قتيلا 601، إمام في هذا الفن،

(1) المعجب 205

(2) الاعلام 1. 243

(3) صلة الصلة 238. جذوة 306

(4) نكلمة 2175. جذوة 278.

(5) نغية 77. جذوة 144

ألف فيه منظومته في الجبر والمقابلة التي تجاوزت شهرتها المغرب، وقرئت على مؤلفها باشبيلية، وهي مخطوطة محفوظة في غير مكتبة، كما ألف أرجوزته الأخرى في أعمال الجذور، توجد نسخة خطية منها بخزانة الاسكوريال، ومن رجاله أيضا أبو علي المراكشي، وسيأتي لنا أنه تناول في كتابه جامع المبادي والغايات الحساب ومسائل على طريق الجبر والمقابلة، وكما اشتغل رجال هذا العصر بالجبر والمقابلة كذلك اشتغلوا بفن المعاملات.

ومن ألف فيه : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان، المتوفى سنة 628، له مقالة في الأوزان (6)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي 557 - 633، له كتاب إثبات لا بد منه لمريد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد (7).

وختاما يرد علينا سؤال لامفر منه وهو : ماهي الاقلام الحسابية التي كانت مستعملة في هذا العهد ؟ وللجواب عن هذا نبين أن الأقلام التي كانت مستعملة في هذا العهد على ما يظهر هي :

1. قلم الغبار المتعارف.

2. القلم العربي : ابجد الخ، وكان يستعمل في الزيجات وما في حكمها.

3. القلم الفاسي استنادا لما ذكر عن هذا القلم القاضي المؤرخ عبد الحفيظ الفاسي في مقال له نشر بعدد المغرب الممتاز، فقد جاء فيه : أن الأرقام الحسابية المعروفة بالقلم الفاسي التي كان يستعملها الموثقون بفاس في تقييد التركة والفرضيون في تقدير النفقات، أصلها روماني بقيت عند أمراء ويلي من جملة ما بقي من آثار الرومانيين، فكانت هي الأرقام الرسمية المستعملة في دواوين حسابهم ودفاتر مالية دولتهم، ولما انتقل كرسي المملكة الى فاس انتقلت الأرقام المذكورة إليها بانتقال دواوين الحكومة، وبقيت مستعملة بفاس محافظا عليها حتى نسبت إليها وأصبح يقال لها : القلم الفاسي.

الهندسة

وكان لهذا العلم نهضة كبيرة في هذا العهد، شجعها الخلفاء الموحدون الذين جعلوا لطائفة من المهندسين جامكية منظمة كما يؤخذ من المعجب 157.

ولقد كثر المهندسون في هذا العهد كثرة فائقة؛ حسبنا تفيد هذا قصة تكسير عبد المؤمن لبلاد افريقية والمغرب من برقة الى بلاد نول من السوس الأقصى كما تقدم، فإن هذا

يتطلب مهندسين عديدين وعديدين جدا، ولا يبعد أن يكون من بين هؤلاء المهندس الشهير أبو جعفر أحمد بن حسان القضاعي البلسني ثم المغربي المتوفي سنة 598، وهو الذي عمل الشكل الهندي لاستخراج القبلة ليعقوب المنصور بمراكش، ويظهر أن إليه أضيف جامع حسان بالرباط (8)، وكذا المهندس الفنان الحاج يعيش، المعروف بالأحوص المالقى الذي أشرف على بناء جبل طارق مع الشيخ أبي إسحاق بزار بن محمد، وهو الذي تولى صنع المقصورة الميكانيكية الآتية الذكر (9)، وكذا المهندس البناء أبو عمران موسى ابن حسن بن أبي شامة (10).

وبصفة أخص كانت الهندسة الميكانيكية - الحيلة - الهوائية والمائية شائعة في هذا العهد بالمغرب، ومن ألف فيها من المغاربة أبو علي المراكشي الآتي الذكر، له فيها بدون شك كتاب في القطوع المخروطية لم يعثر عليه بعد، وفي كتابه جامع المبادي والغايات يدرس خاصيات القطوع، ويحسب محاورها بالتبع إلى الأعراض وميلان الشمس وعلو المقياس (11). وعدى التأليف، فقد ظهرت بالمغرب في هذا العهد آثار ميكانيكية راقية بالنسبة لوقتها : ناطقة بتقدم المغرب في هذا الشأن، فقد كانت المقصورة التي يجلس فيها خلفاء الموحدين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب، فقد كانت تسع نحو ألف شخص، وكانت تتحرك بواسطة عجلات تثبت في أسفلها، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة، وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت، بل تدور جميعها في أتم سكون، ونظمت المحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعا في وقت واحد، متى رفع الستار عن أحد البابين الذين يدخل منهما أمير المؤمنين إلى المسجد عند صلاة الجمعة. وكانت المقصورة تبرز من جانب، ويبرز المنبر من الجانب الثاني، وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب، ويغلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه المحركات، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته (12). قال المقرئ في الصفحة المذكورة. وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن وبقيت آثارها، حسبما

(8) مقدمة سوق المهر (د)

(9) رسائل موحدة 97 - الحلل الموسية 109 - 118

(10) انظر القرطاس 37. زهرة الأس 64، الجذوة 45

(11) مجلة المباحث 39 من السلسلة الجديدة.

(12) تاريخ الاندلس 2. 253 - الحلل الموسية 109 - الغرناطي في شرح المقصورة 1. 71 - نفع الطيب 2.

شاهدته سنة 1010، وهذا مظهر آخر من مظاهر نهضة المغرب الميكانيكية، وهو ما جاء في المعجب لدى كلامه عن مدينة فاس (239) : أن في داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثاء طاحونة تطحن الماء.

ولعل هذا العهد كان أيام تأليف المعجب، وأما قبله أيام المنصور والناصر فكان بفاس من الارحاء أربعمائة حجر دون ما بخارجها كما في الأنيس 26.

التنجيم

الهيئة - الميقات - الزيج

علم التنجيم من العلوم المحبوبة عند المغاربة، وحتى الأسر المغربية كانوا يشجعون دراسته تشجيعاً، أما الخلفاء الموحدون فقد كان تشجيعهم له بالغاً حده، وقد أُلّف فيه المنصور كما سيأتي لنا، ولما قاوم هذا الفلسفة المقاومة الآنفة الذكر، أبقى على شيء غير قليل من هذا العلم.

ومن مشاهير المنجمين في هذا العصر.

1. الخليفة يعقوب المنصور : أسس في مسجد اشبيلية الجامع برجا عاليا ليكون مرصداً، ومن الواضح أنه أول مرصد بني في أوربا (1). ومراده بهذا البرج صومعة اشبيلية - الجبرالدا - التي كان يؤذن فيها للاعلام بدخول الوقت وكانت تستعمل أيضا مرصدا لرصد النجوم حسبما أشار لبعض هذا المصدر السابق (2). كما أن المنصور نفسه وضع أزياجا فلكية عن كسوف الشمس (3). والغالب أن هذه الأزياج ضاعت.

2. الشريف الإدريسي، وقبل يعقوب المنصور صنع الإدريسي صورة القبة السماوية، أو هيئة السماء، وهي أول ما صنعه لروجار (4). والغالب أيضا أنها ضاعت.

3. البتراجي المراكشي، كان معاصرا للمنصور : اخترع في ترتيب الأفلاك والمراكز مذهبا جديدا منبثا عن تجرده من اعتقاد الفرضيات الفلكية الباطلة، التي كان عليها أهل الاحقاب الخالية، وألف رسالة عن الاجرام ترجمت الى اللاتينية وطبعت (5).

(1) تاريخ الاندلس 2 - 250

(2) العدد المذكور 255.2

(3) المصدر المذكور 2 - 260

(4) مجلة المستمع 15.3

(5) خلاصة تاريخ العرب 215. تاريخ الاندلس 2 - 260

4. أبو بكر محمد بن يوسف الليثي الاشبيلي ثم السبتي، من أهل هذا العصر كما في شرح الماواسي على روضة الأزهار للجاردي لدى باب توسط المنازل مع البروج (خ)، له رصد اعتمده مع رصد آخر الجاردي في حساب الطول والعرض، حسبما أشار لهذا في الباب المذكور من روضة الأزهار.

5. أبو علي حسن بن علي المراكشي المتوفى سنة 660 كما نقل هذه الوفاة - في أحد دروسه التوقيتية بالقرويين - شيخنا العلامة المشارك المتخصص في علوم الهيئة أبو عبد الله محمد العلمي أبقاه الله، عن الأستاذ كارلون الايطالي الذي ذكر وفاته في محاضر له عن علم الهيئة ألقاها بالجامعة المصرية.

جاء أبو علي هذا في أول القرن الثالث عشر (م) جزيرة اسبانيا وجزءا عظيما من شمال افريقيا، وحرر ارتفاع القطب الشمالي في احدى وأربعين مدينة، أولها افراطة التي على الساحل الغربي من بلاد المغرب وآخرها القاهرة (6)، وقد ألف جامع المبادي والغايات في البحث عن آلاف علم الفلك، قال في كشف الظنون وهو أعظم ما صنف في هذا الفن، ذكر أنه رتب على أربعة فنون : الأول الحساب، وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلا، الثاني في وضع الآلات يشتمل على سبعة أقسام، الثالث في العمل بالآلات ويشتمل على خمسة عشر بابا، الرابع في مطارحات يحصل بها الدراية والقوة على الاستنباط وهو يشتمل على أربعة أبواب؛ في كل منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة.

وأفاد شيخنا المذكور أنه لم يقف على هذا الكتاب كاملا بالعربية، وإنما وقف على ورقات قليلة منه مباشرة وعلى فقرات منه ينقلها عنه أبو علي التوزري، وقد نقل الأستاذ سديو بعضه للفرنسية 1834 - 1835 في جزئين.

6. أبو العباس أحمد ابن علي بن اسحاق التميمي المعروف ابن الكماد التونسي ؛ الراصد بحضرة مراکش، ممن اشتهر أول المائة السابعة. وقد وضع زججا مصححا كان معتمدا عند المغاربة، وهو الذي لخصه أبو العباس ابن ألبنا في كتابه منهاج (الطالب لتعديل الكواكب) (7). يضاف هؤلاء ما ذكره أبو العباس الماواسي في شرح روضة الأزهار : «وذكر أبو إسحاق أن رجلا من أهل مكناسة رصد الميل الكلي في عام اثنين وستمئة للهجرة، فوجده ثلاثة وعشرين درجة واثنين وثلاثين دقيقة وثلاثين ثانية».

7. أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك المالكي الفاسي المعروف بابن السكاك نحو 500 - 596، كان معدلا (8).

(6) خلاصة تاريخ العرب 215

(7) ارجع الى أوائل منهاج الطالب (خ). مقدمة ابن خلدون 426 - 427. كشف الظنون 16-17

(8) تكملة 1490. جذوة 236. سلوة 3. 300

8. أبو عبد الله الخراز؛ موقت الجامع الأعظم بمراكش (9).
9. محمد عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشلبي ثم الفاسي المتوفى 639، كان له معرفة بالأوقات والنجوم (10).
10. أبو الحجاج يوسف بن محمد بن علي السقطي القصري فيما يظهر، كان له معرفة بالأوقات (11).
11. أبو محمد عبد الله بن يوسف بن زيدان الفاسي 592 - 644، كان معدلا

(12).

وعلاوة على ما تقدم، فقد ظهر في هذا العصر كآثار لازدهار التنجيم ابتكارات مهمة في هذا الميدان، فقد كان على باب جامع الكتبيين بمراكش ساعات ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعاً؛ تنزل فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم، تتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد، وتسمى عندهم الفحانة، ذكرها العمري في مسالك الأبصار (خ)، وقال إنها في عهده بطالة لاتدور، وهذا كان في عهده. أما الآن فلم يبق لها أثر، وكذا ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى (5) 162، ومما يستحق أن يذكر أيضاً أن في إحدى جدران صومعة حسان على يمين الصاعد نافذتين عظيمتين مقوستين بهندسة غريبة واتقان، وأمامها بيت مربع في جوف قطب المركز الذي تدور عليه جدران الصومعة، فإذا سامتهما الشمس ارتسم الضياء النافذ منهما في داخل البيت المذكور في كيفية عجيبة، على شكل خطين منحرفين مشتبكي الوسط متفرقي الأطراف؛ ولم يدر إلى الآن ما الفائدة المقصودة منهما؛ فعسى أن تراح عنها بالمستقبل ستور الخفاء، تتجلى لعالم الوضوح والمعرفة (13).

كما ظهرت أفكار مبكرة في هذا العلم مثل أفكار أبي بكر ابن طفيل الفيلسوف العربي الكبير؛ فقد صرح في رسالة حي بن يقظان بأن الشمس ليست حارة بذاتها، وإنما كرية الشكل، وأعظم من الأرض بكثير. وأن الأرض كرية مثلها والذي يستضيء منها أبداً بالشمس أعظم من النصف، من مسامرة للأستاذ العلامة الحجوي : (النظام في الإسلام)، المطبوعة ضمن خطب ومحاضرات المؤتمر السادس لمعهد المباحث العليا الغربية ص 42.

وابن الطفيل وإن كان أندلسياً فقد أقام بالمغرب مدة طويلة 558 - 580 كطبيب خاص ليوسف الموحدي؛ ذي مرتبة سامية عنده. وهذه الإقامة الطويلة لا تخلو - طبعا - من

(9) الاعلام 1. 244

(10) قرطاس 44

(11) نفس المصدر 44

(12) بغية الوعاة 293

(13) مقدمة الفخ 106 - 107

احتكاكه بغير واحد من المغاربة، وسريان أفكاره إليهم، ومثل هذا ينبغي أن يراعى في ابن رشد الثاني؛ الذي روي عنه أنه رأى كلفتين على وجه الشمس، وأثبت ذلك في مختصر المجسطي؛ مع أنه لم تستعمل النظارة إلا بعد زمانه (14).

ثم بعد كتابة هذا البحث عثرت بأثر نفيس يدل على ما كان حينئذ من الاعتناء بمراقبة الأهلة؛ وذلك أنه كان يوجد في هذا العصر خارج باب الجيسة من فاس؛ قبله سيدي علي المزالي برج جليل - لا أثر له الآن - يسمى برج الكوكب، كان مخصوصا بمراقبة الهلال، وقد جعل في أعلاه نوافذ على عدد شهور السنة يراقب كل شهر من واحدة منها، يدل لوجود هذا البرج إذ ذاك : إن ابن الأبار ذكره في القسم المفقود من طبع قديرة للتكملة آخر ترجمة وردت تحت غرد 494، وسماه برج الكوكب، وقد بقي هذا الاسم معروفا الى زمن صاحب الجذوة، بل حتى زمن صاحب السلوة (15).

المنطق

وزيادة على ما ذكرنا من العلوم. فقد اشتغل المغاربة على هذا العهد بعلم المنطق، ومن رجاله أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي، الذي كان أعلم الناس بهذا الفن، وله فيه تصنيف (1)، وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي، وقد صدر مقدمته في النحو بفصل نزر فيما يتعلق بالبحث المنطقي (2)، وأبو محمد عبد الله بن محمد ابن يحيى الأغماتي، من رجال هذا العلم (3).

الجدل

ويلحق بالمنطق علم الجدل، الذي توافرت أسباب شيوعه في هذا العصر، بما حمل عليه الموحدون الناس من القول بالمهدوية والعصمة وما يتبع ذلك؛ وبما الزمهم من اعتناق المذهب الظاهري، ونبذ المذهب المالكي، هذا إلى أنه في هذا الوقت قامت بالأندلس الحروب الصليبية (4)، التي أوقد نارها هناك رجال المسيحية، وفتحوا بها واجهة غربية بالأندلس، لتتعاون

(1) عنوان — 86

(2) كشف الظنون 2. 505

(3) عنوان 131.

(4) إذا أردنا أن نتصور كيف كانت الحروب صليبية إلى أقصى حد، فينبغي أن نعلم عن واقعة العقاب، أنه اشترك فيها من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة أسانبا زهاء 70.000 مقاتل، كان آلاف منهم يتقلدون الصليب، وأن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا، وأنه في روما أمر البابا أوتوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكثفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الحيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السجاد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، والقى البابا نفسه موعظة صليبية طلب فيها إلى النصارى أن يصعدوا إلى الله التماسا لنعيم الأسانيين، وأنه تقرر تخليدا لانتصار الأسان في موقعة العقاب، أن يحتفل في السادس عشر من يولييه كل عام في طليطلة، ثم في قشتالة كلها فيما بعد باقامة حفل عظيم للشكر يسمى نظير الصليب، وأن الأسان أرسلوا بعد انتصارهم إلى البابا طائفة من الهدايا النفيسة، حيث عرضت في كنيسة القديس بطرس تدكاً للصلب، حسبما يقرر هذا ناسع مما أشرنا له في هذه التعلقة تخرج يوسف أشباح في تاريخ الاندلس (2) 109 — 112

مع الواجهة الصليبية التي كانت تحارب المسلمين في بلاد الشام من الشرق، يضاف لهذا وذاك ما ظهر حينئذ بالمغرب من بعض المذاهب الجديدة في التصوف الاسلامي، ولا شك أن كل ما ذكر يستدعي مجادلات ومحاورات، وأخذاً ورداً وقبولاً ورفضاً، بالقلم تارة وباللسان آونة، بين أنصار ما ذكرنا من المسائل الاعتقادية وخصوصها؛ وبين أشياع المذهب الظاهري واتباع المذهب المالكي، وبين رجال الاسلام وعبد الصليب، وأخيراً بين بعض أنصار التصوف وأضداده.

وعملياً ظهر ذلك في كثير من آثار هذا العهد؛ فأبو محمد عبد الله بن محمد زغبوش المكناسي وضع تأليفاً في إثبات الهداية الموحدية، استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، الروض الهتون، والكاتب عبد الملك بن اياس أبو الحسن القرطبي وضع كتاباً يطعن فيه على حكومة الموحدين والمباديء التي تقوم عليها، وقد انتدب عبد المومن بعض الأعلام الذين امتازوا بقوة الحجة لكتابة رد على هذا المؤلف (5)، كما ألف في الرد على شيخ الظاهرية ابن حزم غير واحد من فقهاء هذا العهد؛ فأبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن زرقون، ألف المعلل في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم (6)، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الله الأنصاري، ألف كذلك كتاباً في الرد على ابن حزم (7).

وكان الموحدون يعتقدون مجادلات ومحاورات لترجيح المذهب الظاهري على المذهب المالكي، ومن هذا المحاورة التي جرت بين يوسف بن عبد المومن والحافظ أبي بكر بن الجدد، وهي مذكورة في المعجب 185، ولا يبعد (8) أن يكون من هذا الباب المجلس الذي ورد ذكره عرضاً في الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي 145 - 146، والذي وقعت خلاله المجادلة بين الظاهرية والمالكية في حضرة أحد الأمراء.

(5) انظر تاريخ الاندلس ليوسف أشياخ 54.2

(6) التكملة 967. الديباج 286 الشذرات 96.5

(7) التكملة 1812

(8) بعدما كتبت هذا وقعت على ما يؤيد ما ذكرته وهو ما جاء في كتاب الخبر المغرب لابي راس العسكري وهذا نصه : قال ابن زرقون، كنت في العلماء الذين جمع عبد المومن بن علي وقام الوزير ابو جعفر بن عطية وقال : بلغ سيدنا أن قوما تركوا الكتاب والسنة وصاروا يفتنون بفروع لا اصول لها : وقال : من نظر فيها عاقبته. وأن عندهم كتابا يقال له المدونة لا يرجعون الا اليه ثم قال ومن المعجب قولها باعادة الصلاة في الوقت. كل ذلك مراده ان يحمل الناس على مذهب ابن حزم قال ابن زرقون فحملتني الغيرة فتكلمت بان رسول الله (ص) لما صلى اعزاني امامه فقال له صل فانك لم تصل كما في البخاري، فقال لأحسن غيرها، فعلمه ولم يامر به بالاعادة لما خرج وقته. فقام عبد المومن وسكن الحال ولم ار منه بعد ذلك الا الكرامة. هذا كلام الخبر المغرب. وكما افاد ما ذكر كذلك بقوي ما أسلفته في مسحت علم الفقه من أن الذي وقع من عبد المومن هو الدعوة الى المذهب الظاهري من غير تنفيذ.

وفوق هذا الجدل الذي كان يدور على مبادئ الموحدين تأييدا ورداء، فقد ظهرت كذلك بعض المؤلفات التي تطعن في معتقدات الصليبيين الفاسدة، فقد ألف أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي القرطبي ساكن مدينة فاس 519 - 582 مقام المدرك. في افحام المشترك، ومقامع الصلبان وروائع رياض الأعيان، يرد به على بعض القسيسين بظليطة، وكان ذلك من أحفل ما ألف في معناه (9)، كذلك عقدت في هذا العصر مجالس للمجادلة مع بعض المسيحيين حول أحقية الدين الاسلامي، ويوجد بجامع المعيار (11) مذاكرة من هذا النوع جرت - بمرسية - بين أبي علي الحسن بن رشيق أول شبابه وبعض القسيسين، وهي مجادلة طويلة استغرقت من المصدر المذكور من ص 118 الى ص 121، والظاهر أن ابن رشيق هذا هو أبي علي بن رشيق المرسي الأصل السبتي الاستيطان : المار الذكر في علم التاريخ.

جلبت كل ما سطرته وأن تقدم كثير منه في أماكن متفرقة من- هذا الكتاب؛ لما في ثناياه من البرهنة والتدليل على نفاق علم الجدل لهذا العهد بالمغرب؛ ورواجه واشتغال بعض المغاربة به.

وبعد هذا أذكر بعض المغاربة الآخرين الذين اشتغلوا بهذا الفن حينئذ، ولا ريب أن في مقدمتهم إمام هذه المدرسة بالمغرب المهدي ابن تومرت الذي كان طبقة عالية في هذا الميدان، ومن حسن الحظ أن حافظ لنا ابن أبي زرع في الأنيس 109 - 110 على نموذج صغير من جدله؛ فإنه لما ذكر المجلس الذي عقده علي بن يوسف اللمتوني من الفقهاء لمجادلة ابن تومرت؛ ذكر عن هذا الأخير أنه قال للذين اجتمعوا لمجادلته : قدموا من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم، وسلموا عند شروط المناظرة، وتركوا اللجاج، وقدموا أحكم ممن تثقون بمعرفته وتقدمه...

ثم كان أول ما سأله عن أن قال للذي تقدم للكلام : أيها الفقيه أنت لسان الجماعة المتقدم للكلام؛ فأخبرني : هل تنحصر طرق العلم أم لا ؟ فأجاب : هي تنحصر من الكتاب والسنة والمعاني التي بنيت عليها، فقال له المهدي : إنما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا ؟ فلم تذكر إلا واحدة منها، ومن شروط الجواب أن يكون مطابقا للسؤال، فلم يفهم مقالته وعجز عن الجواب، ثم سأله عن أصول الحق والباطل ما هي ؟ فعاد الى جوابه الأول، فلما رأى عجزه وعجز أصحابه عرفهما السؤال وفحوى الخطاب، ولما لم تكن لهم معرفة بالجواب، شرع لهم في تبين أصول الحق والباطل، فقال لهم : أما أصول الحق والباطل

فهي أربعة العلم والجهل والشك والظن، فالعلم أصل للهدى، والشك والجهل والظن أصل للضلال، ثم أخذ في تبين طرق العلم فبهرهم وعجزوا عن جوابه، ولم يفهموا له معنى خطابه، هذا كلام الأنيس ويفيد ما صدر به ابن تومرت مجادلته أنه كان على علم تام بشروط الجدل وآدابه؛ وما يتعلق بذلك الأمر الذي يدل على مدى تبرزه وتقدمه في هذا العلم.

أما المغربي الآخر والأخير الذي نختم به رجال الجدل على هذا العهد، فهو الامام أبو العباس السبتي الذي جاء في ترجمته من النيل 59 : أنه أعطى بسطة في اللسان، وقدرة الكلام، لا يجادله أحد إلا أفحمه، ولا يسأله إلا أجابه، كأن القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب، ويسحر العامة والخاصة ببيانه، يأتيه المنكرون للانكار فما ينصرفون إلا مسلمين منقادين.

المنظرة

ويقصد بها النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب. على خلاف علم الجدل المذكور آنفا؛ فإنه يراد به المنازعة لالزام الخصم، سواء كان كلامه في نفسه فاسدا أولا.

وهذا العلم - المناظرة - وإن لم نقف على تفاصيل الاشتغال به لهذا العهد، فإننا نستطيع أن نستشف من بعض العبارات العرضية ما كان للمناظرة بالمغرب حينئذ من ازدهار، وذلك ما يرد خلال كثير من تراجم المغاربة من استعمالهم للمناظرة في دروسهم، وكذا ما يذكر في تراجم بعض الوافدين على المغرب من أقرائهم بهذه الطريقة، ومن الأول ما يرد في ترجمة أبي زيد عبد الرحمان بن زكرياء بن محمد الرجرجي (ت) 605 : أنه نوظر عليه بقرطبة (1).

وفي ترجمة أبي الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي المعروف بابن نموي 554 - 614 : أنه نوظر عليه باشبيلية (2)، وفي ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي (ت) 637 : أنه ناظر فبرع خلال رحلته للبلاد الشرقية (3)، يضاف هؤلاء أبو الحسن علي بن عبد الله بن ابراهيم الأنصاري المعروف بالمتيطي (ت) 570 الذي كان - بدون شك - له معرفة بهذا العلم، حسبما يؤخذ مما جاء في ترجمته : أنه لما خرج من مدينة فاس واستوطن سبتة، لازم بها مجلس أبي محمد عبد الله بن القاضي أبي عبد الله بن عيسى بالمنظرة والتفقه (4).

ومن الأعلام الوافدين على المغرب الذين ناظروا به : أبو الحسن نجيه بن يحيى الرعيني الأشبيلي ساكن مراكش 521 - 591 ناظر عليه بهذا في كتاب سيبويه أبو البقاء حيان بن

(1) تكملة 1653

(2) تكملة 2099

(3) زوائد التكملة : 1921

(4) حذوة 305 نل 199

عبد الله الأوسي البلمسي (5)، وكذا أبو بكر محمد بن طاهر الليثي الأشبيلي ت 603، ناظر عليه بفاس أبو القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم الفاسي في نحو الثلث من كتاب سيبويه (6). ذلك ما استطعت أن أقف عليه فيما يتعلق بالمناظرة، وأنه على قلته شاهد بما قلنا، ملوح لما كان لهذا العلم إذ ذاك من نهضة وازدهار.

الكيمياء

ولم يخل المغرب على هذا العهد من الاشتغال بالكيمياء النافعة، ومن شيوخه في هذا العلم أبو الحسن علي بن موسى بن علي الأنصاري السالمي الجياني المعروف بابن النقرات؛ ترجمه في التكملة وزوائدها (ع) 1877 والجدوة 305 والشذرات (4) 317، وقد ذكروا عنه أنه نزل بمدينة فاس، كما ذكرت عنه زوائد التكملة والجدوة : أنه تصدر للاقراء بفاس، وولي الخطبة بجامع القرويين منها، مولده بجيان في رمضان عام 515 وكان حيا سنة 593 أو نحوها كما تقول هذا التكملة وزوائدها والجدوة، وعينت الشذرات سنة وفاته في (594)، وما في كشف الظنون من أنه توفي سنة 500 فوهم ليس إلا.

وقد نسبت المصادر المذكورة الى أبي الحسن هذا شنور الذهب في الأكسير (نظم)، وهو كتاب جليل علما وأسلوبا، وصفه الجلودكي في شرحه عليه بأنه استوعب جميع الحكمة المطلوبة، والنعمة المرغوبة، نقله في الكشف (2) 48، وقال عنه آخر : لم ينظم أحد في الكيمياء مثل نظمه بلاغة معان، وفصاحة ألفاظ، وعذوبة تراكيب، حتى قيل فيه : إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب، وف عبارة بعضهم : إن فاتك ذهبه؛ لم يفتك أدبه، نقله في النفع (2) 342 ونحوه في الشذرات.

ولم يكن أبو الحسن ابن النقرات الوحيد في هذا الفن بالمغرب، وقد عاناه غيره من صميم المغاربة، مثل المعروف بابن تاتلي من أولاد المثلثين، ذكره في طبقات الأطباء عرضا (2) 203 - 204 أثناء ترجمة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي اجتمع بالمذكور في بغداد، وقد وصفه بالامعان في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها، وأنه أتى على كتب جابر بأسرها، وعلى كتب ابن وحشية.

كذلك ممن اشتغل من المغاربة بالكيمياء على هذا العهد المسمى بأبي الطواجين القصري الكتامي، كان ينتحل هذا العلم وكذا ابنه محمد الثائر الشهير عام 625، تلقوا الكيمياء عن والده، حسبما يؤخذ هذا من الاستقصا (1) 197.

الطب والصيدلة

وكان للطب دولة وصوله، وقد اهتم به الموحدون وبخاصة يوسف ويعقوب اهتمبالا فائقا، ففوق اعتنائهم بالطب الخاص بهم. كذلك اعتنوا بشؤون الرعاية الصحية؛ فبنوا المستشفيات، ونظموا هذه المهنة، وجعلوا لها رؤساء؛ منهم أبو جعفر الذهبي الذي كان مزورا للأطباء كما كان مزورا للطلبة⁽¹⁾، وكان الطب يدرس على عهدهم بالمغرب، ومن أساتذته أبو الحجاج يوسف بالمريبطري، قرأ عليه الطب بمراكش أبو العباس الكنبناري⁽²⁾، وكذا ابن حسان - الذي استقر بالمغرب آخر عمره الى أن توفي بفاس، وكان مقرنا للطب كما في الجندوة⁽⁷²⁾ - لايبعد أن درسه بالمغرب.

وفن الصيدلة هو الآخر كان له ازدهار على هذا العهد، وكان موظفا بمستشفى مراكش وبيلاطات الخلفاء عدد من الصيادلة.

الأطباء المغاربة

ومن رجالات الطب والصيدلة في هذا العهد 1. الخليفة يوسف الموحي الذي استهل به أسماء الأطباء حينئذ، كان له طموح الى هذا العلم، وكان يستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل⁽³⁾ 2. الطبيب السبتي أبو الحسن علي بن يقظان، ورد الى مصر عام 544، أخبار الحكماء 160، 3. أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان بن بقي السلوي ت 563، اشتغل بالطب وظهر فيه، فكان يعيش نفسه مما يعود عليه منه، قاله الضبي في البغية 1464، وترجمة أيضا في التكملة 2782 ووصفه بأنه من

(1) طبقات الاطباء 2. 77

(2) المصادر المذك. 2. 81

(3) المعجم 155

أهل سلا، 4. الشريف الادريسي : ألف الكتاب الجامع لصفات اشبات النبات لازال موجودا، وهو أحد الكتب التي اعتمدها ابن البيطار في كتابه في النبات : كما ألف كتابا في الأقرباذين (الصيدلة) (4). 5. الطبيب سعيد الغماري، ورد ذكره عرضا خلال قصة جرت مع يوسف الموحد ميسرة في : وفيات الأعيان (2) 494 - 595، 6. أبو الحجاج يوسف بن يحيى بن اسحاق الأسرائيلي الفاسي المغربي ت 623، قرأ ببلاده، وكان فاضلا في صناعة الطب والهندسة وعلم النجوم، واشتغل في مصر بالطب على الرئيس موسى بن ميمون الاسرائيلي القرطبي، وسافر بعد ذلك الى الشام وأقام بحلب وبها توفي، وله من الكتب كتاب في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها، وشرح الفصول لابن قراط، إصلاح هيئة بن أفلح الأندلسي اجتمع على تحريرها هو وموسى بن ميمون المذكور (5). 7. أبو الحجاج يوسف بن فتوح القرشي المري، استقضى بمدينة فاس وتوفي 561، له معرفة بالنبات كان يحلبه ويتجر فيه (6)، 8. أبو العباس أحمد ابن عبد الله بن موسى القيسي الأشبيلي، سكن مدينة فاس وبها توفي 571، كان ذا معرفة للطب (7)، 9. أبو العباس أحمد بن عبد الملك الجذامي القرطبي الأصل، نشأ بسبته وبها سكن وتوفي بمراكش 650، كان ماهرا في الطب (8). 10. ونختم أسماء الأطباء في هذا العهد بطبيب كبير أصله من المغرب، فنذكره هنا لبحث عن نوع مغربيته، وهو القطب المصري أبو إسحاق ابراهيم بن علي بن محمد السلمي المغربي قتله التتار بنيسابور عام 617، أصله من المغرب، ثم انتقل الى مصر وأقام بها مدة، ثم سافر الى بلاد العجم وأخذ عن الامام فخر الدين الرازي؛ كان من أشهر تلامذته؛ عالما بالمعقولات، وألف كتباً كثيرة في الطب والحكمة، منها : شرح الكلبيات بأسرها من كتاب القانون لابن سينا (9).

وزيادة على هؤلاء فقد كان بالمغرب في هذا العهد عدد وفير من الأطباء والصيادلة الآخرين برسم خدمة خلفاء الموحدين، وبرسم خدمة المارستانات، وهذه جملة ممن خدم الخلفاء منهم :

(4) نفع الطبيب 2. 44، 138. مقال للدكتور يوسف شخت مجلة المستمع العربي س 3 ع 15 مقال الاستاذ مصطفى

زيبس. مجلة الفها س 3 العدد الممتاز الخاص بالمغرب

(5) اخبار الحكماء 256 - 258 طبقات الاطباء 2. 213

(6) التكملة 2079. الصلة 410

(7) الجذوة 70

(8) التكملة ط. الجزائر 326

(9) طبقات الاطباء 302 طبقات الشافعية 48.5 حسن المحاضرة 232.1

أطباء الخلفاء الموحدين.

عبد المومن

طبيياه : أبو مروان عبد الملك بن زهر الأيادي الشيبلي ت 557، ألف لمخدومه الترياق السبعيني، واختصره عشارياء، ثم اختصره سباعيا، كما ألف له كتابا في الأغذية (10)، وقد أثر ابن زهر هذا أثرا بليغا في الطب الأوربي، وظل هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وذلك بفضل ترجمة كتبه الى العبرية واللاتينية (11)، أبو بكر محمد الحفيد ابن الطبيب قبله 507 - 595، خدم بالطب عبد المومن، وخدم من بعده يوسف ثم يعقوب المنصور ثم محمد الناصر، وكان مكيئا بصفة خاصة عند يعقوب، وألف له الترياق الخمسيني (12).

يوسف

أطبائه : الوزير أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي ت 575، (القرطاس 131). الوزير أبو بكر ابن طفيل القيسي الودآشي ت 581، المصدر 131. أبو جعفر بن هارون الترجالي الأشبيلي، (طبقات الأطباء (2) 74. أبو الوليد ابن رشد استدعاه يوسف إلى سكنى مراكش سنة 578 برسم الطب، وخدم أيضا المنصور والناصر، وكان يلاقى احتراماً خاصاً منهما (13).

المنصور

أطبائه : عبد الله بن علي بن عبد الله بن غلنده الأموي مولا هم السرقسطي أبو الحكم ت 581 (14). أبو الحسين بن أسدون شهر بالمصدوم، ت 588 (15). أبو جعفر أحمد بن حسان القضاعي البلنسي ت 598، ألف لمخدومه : كتاب تدبير الصحة (16). أبو جعفر بن الغزال المري، كان المنصور يعتمد عليه في الأدوية المركبة والمعاجين ويتناولها منه (17). ابن الخلاء المرسي (18). أحمد بن عتيق البلنسي ثم المراكشي الذهبي 554 - 601، خدم المنصور بالطب

(10) طبقات الاطباء 2. 66 التكملة 1717

(11) دائرة المعارف الاسلامية ج. 1 ع 3

(12) طبقات الاطباء 2. 68 التكملة 855. دائرة المعارف الاسلامية ج. 1. ع 3.

(13) القرطاس 131، 137 طبقات ط 2. 76

(14) طبقات الاطباء 2. 79 التكملة 1516

(15) طبقات الاطباء 2. 79

(16) طبقات الاطباء 2. 79

(17) طبقات الاطباء 2. 80

(18) طبقات الاطباء 2. 81

ثم خدم بعده للناصر (19). أبو مروان عبد الملك بن قبال الغرناطي، خدم به المنصور ثم الناصر (20). أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي المريطري تـ 619، خدم المنصور والناصر والمستنصر (21).

الناصر

أطبائه : أبو بكر محمد بن الحفيد أبي بكر ابن زهر 577 - 602. أبو محمد عبد الله بن أبي الوليد ابن رشد الحفيد. أبو محمد الشذوني الاشبيلي (22). أبو عبد الله بن سحنون المعروف بالندرومي؛ خدم الناصر في آخر دولته ثم المستنصر (23). أبو جعفر أحمد ابن سابق القرطبي (24). أبو إسحاق بن طملوس البلنسي (25).

المستنصر

عبد العزيز بن سلمة الباجي (26).

الطبيات في دور الخلفاء

وكما اختص الخلفاء الموحدون بأطباء لأنفسهم؛ كذلك اختص حرمهم بطبيبات لأنفسهن، ومن هؤلاء أخت الحفيد أبي بكر ابن زهر وبناتها، كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور، ولا يقبل المنصور وأهله ولدا إلا أخت الحفيد وبناتها لما توفيت أمها، (27).

بيت الأشربة والمعاجين الطبية

وكان هذا البيت أو الخزانة خاصة بخلفاء الموحدين، وهو من مظاهر تنظيم الطب في عهدهم، وقد تولاه أيام يوسف : أبو محمد قاسم الاشبيلي، وتولاه أيام يعقوب : أبو يحيى بن

(19) طبقات الاطباء 2. 81 النكلمة 2410 ط الجزائر

(20) طبقات الاطباء 2. 79

(21) طبقات الاطباء 2. 78

(22) طبقات الاطباء 2. 79

(23) طبقات الاطباء 2. 81

(24) طبقات الاطباء 2. 81

(25) طبقات الاطباء 2. 81

(26) طبقات الاطباء 2. 79 80

(27) طبقات الاطباء 2. 70

قاسم المذكور، وبقي في وظيفته هذا الى أن توفي أيام المستنصر، فجعل ولده في موضعه عوضا عنه (28).

... والأمراء الموحدين

والأمراء الموحدين هم الآخرون كان لهم اهتمام بهذا الفن، ومنهم : السيد أبو علي بن عبد المومن صاحب اشبيلية؛ خدمه بالطب الدكتور أبو بكر بن أبي الحسن الزهري القرشي الاشبيلي (29)، والسيد أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن؛ كان يجالس الطبيب ابن رشد، وهو الذي اقترح على هذا الأخير أن يصنع شرحا على الأرجوزة المنسوبة لابن سينا في الطب، كما أشار لهذا طالعة الشرح المذكور، الذي توجد منه نسخة بمكتبة كاتبه.

المستشفيات

ولم يشغلهم اهتمامهم بالطب الخاص عن الاهتمام بالطب العام، فقد أسس يعقوب مارستانات للمرضى والمجانين وأجرى الانفاق على أهلها (30)، أسسها في مراكش، وشالة، والقصر (31).

أما مارستانات شالة والقصر فلم أقف على من وصفها، وإنما وقفت على وصف أعظم هذه الثلاثة وهو مستشفى مراكش، الذي أسسه يعقوب شرقي الجامع المكرم على حد تعبير صاحب الاستبصار. وهذه صفة هذا المستشفى، قال المراكشي في المعجب 190 - 191 : «وبنى - يعقوب المنصور - بمدينة مراكش بيمارستان ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تحير ساحة فسيحة باعدل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه، فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المسمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجا عما جلب اليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء. فإذا برىء المريض فإن كان فقيرا أمر له عند

(28) طبقات الأطباء 2. 79

(29) طبقات الأطباء 2. 80

(30) القرطاس 138

(31) الغيا. السنة 3 عدد المغرب الممتاز

خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيا دفع إليه ما له وتركته وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج، إلى أن يستريح أو يموت، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات رحمه الله . هذا كلام المعجب في وصف هذا المارستان العظيم، وهو يفيدنا عن نظامه : أن يعقوب أجرى له ثلاثين دينارا يوميا يرسم الطعام وما ينفق عليه فقط. وأنه كان به قسم للصيدة أقام فيه يعقوب الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال. وكان به للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء وأن كل من مرض بمراكش من الغرباء حمل إليه وعولج... فإن كان المريض غنيا حوفظ على ما معه من مال ومتمول حتى يبرأ فيدفع إليه، وإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به حتى يستقل. وإن الخليفة يعقوب كان يراقب هذا المستشفى بنفسه، فكان يزوره كل جمعة بعد صلاته ويعود مرضاه، ويستفسرهم بيتا بيتا عن حالهم وحالة القومة عليهم.

ويلاحظ على صاحب المعجب بأنه بقدر ما تبسط في وصف شكل المارستان المادي، فإنه أجحف فيما سوى ذلك، فلم يسم ولا طبيا من موظفيه، وحتى اسم رئيسه لم يذكره، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء (2) 79 : أسماء بعض رؤسائه، فإنه لما ترجم لأبي إسحاق إبراهيم الداني البجائي الأصل قال عنه : ونقل إلى الحضرة - مراكش - وكان أمين البيمارستان وطيبه بالحضرة، وكذلك ولداه، والأكبر منهما وهو أبو محمد قتل في غزوة العقاب في الأندلس مع الناصر، وتوفي الداني في مراكش في دولة المستنصر بن الناصر. كما أنه لم يبين هل كان به قسم خاص بالمصابين بالأمراض العقلية، كما هو الحال في مارستانات الشرق التي كانت معاصرة لمرستان مراكش ؟ وهذا تجبيننا عنه عبارة القرطاس الأنفة ص 129، فإنها تنص على أن المارستانات التي ابتناها يعقوب كانت للمرضى والمجانين، وبعد هذا فإن ابن أبي أصيبعة يذكر في طبقات الأطباء عن نظام المستشفيات الإسلامية ما يأتي :

كانت البيمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين بعضها عن بعض : قسم للذكور، وقسم للإناث، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء، وقوام ومشرفين وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض، قاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة، وقاعة للتجبير. وكانت قاعة الأمراض الباطنية منقسمة إلى أقسام أخرى : قسم للمحمومين، وقسم للممرورين، وقسم للمبرودين، ولمن به إسهال الخ. ولكل قسم رئيس، فمن رئيس الأمراض الباطنية، ورئيس للجراحية

والمجبزين، ورئيس للكحالين، وللبيمارستان بأجمعه رئيس يسمى ساعور البيمارستان (32). فهل كانت هذه الأنظمة متبعة في مستشفى مراكش الذي نحن بصدد الحديث عنه؟ لاشك أن ابن أبي أصيبعة الذي توفي سنة 668 كما في الشذرات (5) 327، إنما وصف نظاما كان العمل جاريا به في المستشفيات الإسلامية. ولا شك أيضا أن عبد الواحد المراكشي لم يكن مجازفا حيث قال عن مستشفى مراكش: ما أظن أن في الدنيا مثله، أي في شكله وفي نظامه، كيف وهو المؤرخ الثبت الذي سجل هذه الشهادة بعدما اتصل بالشرق والشرقيين، وزار مصر واستقر بالعراق حيث ألف كتابه المعجب. فإذا لاحظنا هذا وذاك، فهل يمكننا أن نعتبر أن تلك الأنظمة كانت معمولا بها في هذا المستشفى المغربي أو بالأحرى كان متوفقا بها؟ هذا ما لاستبعده، وإن كنت لا أستطيع الجزم به.

من ابتكارات الموحدين

ونختم الحديث عن الطب والأطباء في الدولة الموحدية بعجوبة من عجائب تنظيماتهم الطبية، واحتياجاتهم أيام الوباء، وذلك ما جاء في القرطاس 171 - 172 : إنه في سنة 571 كان الطاعون الشديد بمراكش وأحوازاها... فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه، فإن مات حمل إلى موضعه وأهله. وهذا النوع من (الكارني) الذي سبق الموحدون إلى استعماله، كاف في الأعراب عن عظمتهم؛ ناطق بعقوبة الموحدين في ميداني الابتكار والنظام.

وبانتهاء الحديث عن الطب تم بحث العلوم التي أوردت منها فوق الثلاثين علما؛ كلها كانت شائعة ناهضة في عصر الموحدين. وبديهي أن ما ذكرته من العلوم إنما هو مثال فقط للنهضة العلمية التي ظهرت حينئذ في أكثر من العدد المذكور، وازدهرت في علوم أخرى نخص منها بالذكر علم السياسات، وقد كانت موجودة بالمغرب - على هذا العهد - بعض أنواعه، وكانت تدرس - بدون شك - مسائل منه، يشهد لهذا ما مر بنا لدى الحديث عن مدرسة عبد المومن ص (23 - 24) : إن من المواد التي كانت تدرس دراسة حسنة بهذه المدرسة : عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة، وينبغي أن يراجع عن هذا الموضوع أيضا ما سنذكره في مبحث الفنون كمظاهر لنهضة بعض أصناف علم السياسة. كذلك من العلوم التي ازدهرت إذ ذاك علم التصوف بمذاهبه المتنوعة وأشياخه الكثرين، وما منعني من إدراجه في هذا البحث إلا عدم توافر المواد الكافية في الموضوع، فعسى أن يرفع هذا المانع، وتيسر المواد الكافية، حيث أدرس التصوف على حدة وأذيل به هذا البحث.

وبعد هذا انقل الحديث إلى الآداب في هذا العصر.

الآداب

نهضة الآداب

وجد الادب المغربي في هذه الحقبة أدبا مغربيا موسوما بسيما الاجادة والتفنن والابداع، وإن الفضل الأول في هذه النهضة يعود لأكثر خلفاء الموحدين الذين شجعوا هذه الحركة الأدبية بمثل ما تحدثنا عنه في المقدمة ص (19 - 20)، وبما كانوا عليه هم وكثير من أمرائهم من معاناة للأدب، ومعاطاة للشعر، حتى أنهم - بتشجيعهم المزدوج المادي والأدبي - ليحق فيهم قول اليتيمة في بني حمدان : ملوك وأمراء، ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وكان لغير واحد منهم ذوق خاص في تفهم الشعر ونقده، وانظر في هذا ما جاء عن عبد المومن، فإنه لما انشده ولد الشريف الطليق المرواني :

ما للعدى جنة أوق من الهرب

قال رافعا صوته : الى أين الى أين ؟ فقال الشاعر

أين المفر وجيش الله في الطلب

فما أتم القصيدة، قال عبد المومن «بمثل هذا تمدح الخلفاء»، (1)، ولما انشده ابن سيد

(اللص) :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر الى الجبل الراسي على جبل
إنني استقر به أنى استقل به إنني أرى شخصه العالي فلم يزل

قال له عبد المومن : لقد ثقلنا... (1).

وحين ألقى بين يديه أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي :

ماهر عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المومن بن علي
أشار عليه بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بالف دينار (3).
ويعقوب المنصور هو الآخر؛ ورد عنه بعض ما ذكر، ومن هذا أنه كان بمجلس أبيه
يوسف وهو حينئذ وزيره، فانشد ابن مجير يهنئ يوسف بفتح :

إن خير الفتوح ما كان عفوا مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوي حاضرا، فقطع عليه معترضا بأنه اهتدم بين وضاح :

خير شراب ما كان عفوا كأنه خطبة ارتجالا

فبدر المنصور وسنه إذ ذاك قرب العشرين، وقال : إن كان اهتدمه فقد استحقه،
لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف، فسر بجوابه، وعجب الحاضرون (4).
ولقد سرى الاعتناء بالأدب من الملوك للأمة، والناس على دين ملوكهم، فاهتموا بسائر
مواضيع الأدب : حفظا ودرسا، حتى الهجو، ومن هذا قول المعجب 197 لدى حديثه عن
ابن حزمون الشاعر الهجاء : «ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلدا إلا وأهاجي هذا الرجل
تحفظ فيه وتدرس»، كما صارت المفاضلة بين الأدباء حديث المجالس، وانظر في هذا إلى ما جاء
في ترجمة الشيخ الشهير أبي العباس السبتي من الأعلام (1) 251 : إنه سئل يوما في مجلسه
من أشعر ابن حبوس أو أبو العباس الجراوي ؟

وكان من أثر هذا أن قامت للأدب في أيامهم نهضة كبرى ظهرت عظمتها في كثير
من المقامات، منها في الندوة الأدبية التي أقامها عبد المومن على ظهر جبل الفتح. حيث تبارى
الأدباء المغاربة والأندلسيون : كتابهم وشعراؤهم، وتفصيل الحديث عن هذا اليوم الجليل يوجد
في المعجب 137 - 142 مع الحلل الموشية 118 - 119 وزاد المسافر 2 و52، 85 والنفع
(2) 336 و446، ومنها يوم رجع يعقوب المنصور عن غزوة الأرك الشهية. فقد ورد عليه
الشعراء من كل قطر من أقطار مملكته يهنئونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل شاعر
قصيدته، بل كان يختص منه بانشاد البيتين أو الثلاثة المختارة، وانتهت رقاع القصائد وغيرها في
هذا اليوم إلى أن حالت بين يعقوب وبين من كان أمامه لكثرتها (5).

(3) وفات الاعان 1. 391

(4) النفع 2. 162

(5) النفع 2. 430

ويلحق بهذا ما ذكره في المعجب 114 عن الأمير عثمان بن عبد المومن، قال : اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده.

وإن هذه النهضة الأدبية بلغ صداها حتى قطر السودان الغربي ولأول مرة في تاريخ هذا القطر ينبغ - في هذا العصر - شاعر من أبنائه وهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن فارس الذكراني من أهل كانم من السودان تـ 608، كان عالما بالآداب شاعرا مفلقا، ترجمه في القسم الأول من التكملة ع 461 وحلاه بما ذكر، كما ذكره في الوفيات (2) 434 والنفح (2) 537. والاستقصا (1) 181، وقالوا عن هذا الشاعر الأسود : أنه دخل على يعقوب المنصور وأنشده :

أزال حجابي عني وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقتراي

وجد الأدب المغربي في هذه الحقبة في أعقاب العصر العباسي، وبجوار الأدب الأندلسي، وعلى انقراض الأدب المرابطي، ولم يكن لينسلخ عن التأثير بالآداب الثلاثة، وبخاصة الأخيرين؛ فإنه أخذ منهما وتأثر بهما ولكن بمقدار، لم تضع معه شخصيته المغربية الموحدية التي كانت مطبوعة بمميزات ميزته عن سواه، وأول ما يظهر من هذه المميزات أن الأدب المغربي في هذا العصر خلا في غالب مظاهره - خلافا لما كان شائعا في الآداب العربية الأخرى لهذا العهد - من الزخرف والصنعة، سراية من البساطة التي نشأت عليها الدولة، كما خلا - في الجملة ولا سيما أيام عظمة الموحدين - من السفاسف التي كانت شائعة في الأدب العربي حينئذ، فنذر فيما وقفت عليه شعر الخمريات، وقل أدب التغزل المكشوف، وذلك تأثرا بالطابع الديني الذي كانت عليه الدولة إبان عظمتها، حتى إن عبد المومن لما أنشد في مجلسه أبو بكر محمد بن ميمون بن عبد الله القرطبي أبياتا ثلاثة يتغزل فيها في شاب من أهل أغمات، هجره هذا الخليفة ومنعه من الحضور في مجلسه، وصرف بنيه عن القراءة عليه (6).

وما يؤثر من شعر لعبد المومن في التغزل بفتاة قدت فؤاده، ومساجلته في هذا الموضوع مع وزيره ابن عطية الى آخر القصة الشهيرة، فالغالب أن ذلك مفتعل على عبد المومن من خصومه، وما يؤيد هذا أنه لم يجزم بالقصة واحد ممن رواها؛ فالأنيس أوردها 129 بلفظ قيل والنفح (3) 101 بعبارة : وقد حكى، والاستقصا (1) 154 صدرها بقوله : يروى،

وأن من يقرأ صدر ص 134 من (مجموع رسائل موحدية)، ويضيف ذلك لموقف عبد المومن مع ابن ميمون، يحزم بما ذكرنا، ويقطع بأن القصة لأرأس لها ولا ذنب. وكما تأثر الأدب في هذا العهد بما ذكر، كذلك تأثر بالهداية ومبادئها، والدولة ونظامها، وبكثير من العلوم الفلسفية التي كانت شائعة في هذا العصر، وظهر هذا بصفة خاصة في الشعر، وبصفة أخص في أشعار ابن حبوس وأبي حفص الأغماتي وابن خبازة، بل وتأثر الأدب أيضا بالعلوم الأخرى، حتى علم اللغة ظهر أثر نهضته في شكل مغل ببلغة الأدب في بعض رسائل ومخاطبات أبي الخطاب ابن دحية وأخيه أبي عمرو، وانظر عن أبي الخطاب عنوان الدراية 160 ونفخ الطيب (1) 369، عن أخيه الصلة 140. والتكملة 1837. وبغية الوعاة 322.

كذلك ظهر أثر عظمة الدولة في أدب هذه الحقبة؛ فوجد شعراء عباقرة متفننون تناولوا أكثر أبواب الشعر العربي. ونبغ من بينهم أفراد مكثارون طوّلوا النفس، جمعت لهم دواوين ضمت آثارهم كما ظهرت مؤلفات أدبية قيمة.

ومن الدواوين الشعرية التي جمعت في هذا العهد :

1. ديوان أبي عبد الله بن حبوس الفاسي، قال في الذيل والتكملة، وقد جمع له بعض أصحابه المختصين به ما علق بحفظه منه أو حضروه ذكره أو أسأرتهم عوادي التنقل والاضطراب إلى آخر ريعي ستين وخمسمائة، فناهز ذلك ستة آلاف بيت وخمسمائة بيت، وقد وقفت منه على مجلد متوسط، وكانت وفاته سنة 570 (7).

2. ديوان أبي بكر عتيق بن علي الصنهاجي الحميدي المكناسي ثم الفاسي، ذكره في التكملة 2433، والجذوة 278.

3. ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن (8)، جمعه له الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي (9).

4. ديوان أبي العباس الجراوي التادلي، وقف عليه ابن الأبار، وحدث عنه في التكملة القسم الأول ع 323.

5. ديوان أبي عمرو ميمون ابن عبد الخالق الريفي الصنهاجي الخطابي المعروف بابن خبازة، جمع فيه كثيرا من شعره أبو عمرو ابن سالم بن صالح البهراني المالقي (10).

(7) انظر الاعلام 3. 31

(8) النفح 2. 102

(9) المصدر المذكور 1. 368

(10) انظر ازهار الرياض 2. 380

6. ديوان أبي عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري، أشار له في البغية 77. ومن الكتب الأدبية المؤلفة بهذا العصر: المطرب في أشعار أهل المغرب لأبي الخطاب ابن دحية (11)، وتأليف أبي القاسم عبد الكريم بن عمران القصري في شعراء عصره، أخذنا من شعر للمذكور اثبتته في الاعلام (3) 102، وصفوة الأدب وديوان العرب لأبي العباس الجراوي، وهو مجموع يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق (12)، واختصار الصفوة المذكورة لمؤلفها، وهو الحماسة المتأخرة، ويوجد من هذا الاختصار نسخة خطية في خزانة السلطان الفاتح بالاستانة، وقد أخذت لها صورة فتوغرافية في الأيام الأخيرة بهمة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي أحسن الله إليه، (13). ومن الكتب الأدبية الأخرى اختصار الأغاني للامير أبي الربيع الموحدي الأنفي الذكر (14)، ورسالة البرهان، في ذكر حنين النفوس الى الأحبة والأوطان، لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (15)، وشرح المقامات لعقيل ابن عطية المراكشي (16)، وليوسف بن يحيى التادلي عرف بابن الزيات، وهو شرح نبيل جدا (17)، واسمه نهاية المقامات في دارية المقامات (18)، وشرح أبي موسى الجزولي المار الذكر في علم النحو على ديوان المتنبي، اختصره من أحد شرحي أبي جني عليه (19)، وشرح مقصورة ابن دريد لابن هشام السبتي (20)، ونختم قائمة التأليف الأدبية فنذكر أن شرح الشريشي - ت 619 - الأوسط على المقامات - وهو الشرح اللغوي - كان باقتراح أهل سجلماصة على مؤلفه في هذا العهد (21).

ولم تكن عظمة الدولة لتظهر في هذا النوع من الأدب فقط، وأنه قد ظهر أثر فخامتها وتجليدها بصفة أجلى وأكمل في أدب النثر الفني كتابة وخطابة وغيرها.

فالكتابة تنوعت في هذا العهد الى ديوانية واجتماعية وسياسية وأدبية وإخوانية وتوقيعات، كما سيمر بنا تفصيل هذا، وتنوعت الكتابة الديوانية الى كتابة إنشاء وكتابة جيش، ولكل من الصنفين كتاب على حدة، هكذا كان شأنهم من عهد يوسف فما بعده حسما

(11) كشف الظنون 2. 455

(12) وفیات الاعيان 2. 494

(13) ارجع الى الملحق الثقافي لجريدة المغرب ع 9، ومجلة الانوار ع. ربيع 1367 فبراير 1948

(14) نفح 2. 102

(15) سلوة 3. 268، 269

(16) الصلة 313، الدياج 219

(17) نيل 352

(18) كشف 2. 498

(19) ارجع الى الدفات 1. 498

(20) التكملة 1053 نفة 20

(21) كشف 2. 498

يؤخذ هذا من المعجب 160 و 174 و 209 و 218، وبخاصة الرسائل الموحدية ظهر فيها أثر التجديد الموحدى جلياً، فإنهم نوعوا أسلوبها الى لونين : الأول أن تفتتح الكتابة بلفظ من فلان الى فلان والثاني أن تفتتح بلفظ أما بعد والأسلوب الأول - وهو الشائع كثيراً في السلسلة التي ظهرت من رسائل الموحدين - كان الرسم فيه أن يقال من أمير المؤمنين فلان ويدعى له بما يناسبه : الى فلان ويدعى له بما يليق به، ثم يوقى بالسلام، ثم بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والترضيه عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي ثم يوقى على المقصود ويختتم بالسلام، والخطاب يعبر فيه بنون الجمع عن الخليفة، وبميم الجمع عن المكتوب إليه (22).

وقد اكتمل تجديد رسائل الموحدين وطبعها بطابعهم نهائياً في عهد المنصور، على يد كاتبه ثم كاتب الناصر ابنه : أبي عبد الله محمد ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عياش التجيبي المتوفي بمراكش سنة 619، قال في المعجب 174 لدى حديثه عن ابن عياش هذا : «ولم يكتب لهم منذ قام امرهم... من كتبة الانشاء من عرف طريقتهم وصب في قلوبهم وجرى على مهيعهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله بن عياش هذا فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب من بعده على أسلوبه وسلوكه مسلكه، لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة»، وقد ختم (مجموع رسائل موحدية) بثلاث رسائل من إنشاء هذا الكتاب؛ وهي على نحو ما وصف في المعجب (23).

وكانت رسائلهم في هذا العهد ماثلة - في أغلب أحوالها - الى الاطناب والتوسع، كما تراه في مجموع رسائل موحدية. على أن أحد ملوكهم كان في بعض الأحيان يوجز الكتب غاية الايجاز، وينحو منحى الصحابة في فتوحاتهم، حسبما أمر بهذا يعقوب المنصور في غزوة الأرك بالأندلس (24).

ومن حسنات هذا العصر مجموع رسائل موحدية الذي يضم 37 رسالة من إنشاء كتاب هذه الدولة؛ اعتنى بإصداره الأستاذ بروفانصال وطبع في الرباط سنة 1941. والخطابة العربية هي الأخرى حاول القوم أن يعيدوا لها رونقها وبهجتها، بعد ما كادت تندثر من العالم العربي، وذلك بما أحيوا من الخطابة السياسية التي صدرت عن غير واحد من خلفائهم، مثل المهدي والمامون، وكذا خطابة الجهاد، ومن أمثلتها ما وقع في غزوة الأرك من هذا النوع، حسبما يعلم من القرطاس 144 وغيره وكذلك الخطابة عن الوفود وفي النوازل

(22) ارجع الى صبح الاعشى 2. 443 ومقدمة مجموع رسائل موحدية

(23) ارجع الى المجموع 228 - 259

(24) الرسائل السبئية 1 ع 8 الحلل المشوية 121

المهمة، قال في المعجب 161 في ترجمة أبي موسى عيسى بن عمران التسولي الوردشي : كان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة، وارجع إليه 218، كما أدخلوا تنظيمات على الخطابة الدينية، كما يعلم هذا من الوقوف على الخطبة من هذا النوع التي أورد نصها في المعجب 228 - 230.

ويلحق بالخطابة الوعظ، وقد قامت له سوق في هذا العصر، ومن أبرز شخصياته أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني المكناسي الأصل المعروف بابن الحجام 558 - 614، رئيس أهل عصره في هذا الميدان، والمؤلف فيه تأليفا حفيلا سماه (حجة الحافظين ومحجة الواعظين) (25)، وينبغي أن نضيف لابن الحجام زمرة كريمة ممن كانوا ينتحلون هذه المهنة، ومنهم أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان بن بقي السلوي ت 563 (26)، وأبو موسى عيسى بن واصل المراكشي ت 237 (27)، وأبو إسحاق إبراهيم بن جابر الخزومي المراكشي. ت 641 (28)، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هارون المرادي الفاسي يعرف بابن الكماد ت 633 (29).

ومن المميزات الأخرى لهذا العهد؛ أن الموحدين شجعوا نشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية أو سيرها، أو كتب المغامرات والقصص في جميع أنحاء المملكة سواء في المغرب أو الأندلس، بل لقد سمح بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد (30).

ومن القصص التي كانت شائعة على هذا العهد قصة الجازية والشريف، التي يرويها موجزة ابن خلدون في تاريخه، لدى حديثه عن دخول العرب الهلاليين لأفريقية، ويقول : وهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم الى افريقيا طرق، يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة، ويسمونه شكر بن أبي الفتوح؛ وإنه أصهر الى الحسن بن سرحان في أخته جازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولدا واسمه محمد، وأنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة، فاجمعوا الرحلة عن أرض نجد الى افريقيا، وتحيلوا عليه في استرجاع اخته جازية المذكورة، فطالبته بزيارة أبويها فازارها إياهم، وخرج بها الى حللهم، وأقام معها مدة الزيارة، فارتحلوا به وبها وكنمو رحلتهم عنه، وموهوا عليه بأنهم يباركون به الصيد والقتل

(25) انظر الاعلام 3. 87، 88

(26) التكملة 82. 27

(27) الصلة 96

(28) التكملة القسم الاول ع 462. جذوة 87

(29) جذوة 84

(30) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ج 2. 54.

ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها، فلم يشعر بالرحلة الى أن فارق موضع ملكه، وصار الى حيث لا يملك أمرها عليهم؛ ففارقوه ورجع الى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل؛ وإنما من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها الى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي على خبر قيس وليلى، ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المباني مثقفة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل المصنوع... وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه الشريف خلفا عن خلف، وجيلا عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون لتواترها بينهم (31).

هذا سياق حكاية ابن خلدون لهذه القصة التي هي أصل قصة أبي زيد الهلالي الشهيرة، ومما يؤيد شيوعها في هذا العهد بالمغرب قول ابن خلدون : أن بني هلال متفقون في الخبر عن حال جازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل، فهذا السلف والجيل الذين رويت عنهم القصة لابد أن يتناول العرب الهلاليين الداخلين للمغرب وأعقابهم في العصر الموحيدي، فهؤلاء لاشك أنهم تحدثوا بها وكانوا من السلف والجيل المذكورين في سند القصة. ومن القصص الأخرى التي كانت رائجة على هذا العهد في الجملة قصة حي بن يقظان الفلسفية تأليف ابن طفيل، ومن قرأها حينئذ عبد الواحد المراكشي الذي وصفا موجزا في كتابه المعجب 156، ويوجد بدائرة المعارف الاسلامية مج ل ع (4) ذكر لخلاصة هذه القصة.

وآخر المميزات التي نذكرها لهذا العهد أن فيه ظهر ميل المغاربة للبحوث القصصية، ومن أمثلة هذا أن يعقوب المنصور كان يقترح على الشعراء عروضاً يسمى الخشب، كما في المعجب 194. كما ظهر فيه استعمال الأوزان المولدة من التوشيح والزجل وما إلى ذلك، وبسطة الكلام عن هذه الأوزان المولدة نخصها ببحث على حدة.

التوشيح والزجل

لعلنا لانعدو الحق إذا قلنا إن المغاربة عانوا فن التوشيح في عصر الموحدين ؛ هذا النوع الذي وجد في الأندلس جارة المغرب قبل هذا العهد بأزمان وأجيال، وشاع بها في هذا العصر وفي العصر اللمتوني قبله شيوعا بلغ به الغاية من الوفرة والاتقان، كما يعلم من أواخر مقدمة ابن خلدون 542 - 546.

أما المغرب فلا شك أنه بدوره كان أهله يعانون فن التوشيح على هذا العهد؛ فقد كان هذا الفن محبوبا عند غير ملك من ملوك الموحدين، وقد مدح به الناصر منهم؛ مدحه به أبو

الحجاج يوسف بن أحمد بن علي المريبطري (32)، وأهدى بعض الأدباء للمرتضى الموحد من أواخر ملوكهم تأليفا يتضمن الكثير الطيب من التوشيح (33)، وكذا كان محبوبا لدى الأفراد، ومن أمثلة هذا ما جاء عن الشاعر الأندلسي الكبير الهيثم الأشبيلي المتوفى سنة 630 كما في التكملة 2023 : أنه مر بقصر كتامة يريد مراکش، فاقترح عليه الشيخ أبو علي القصري رسالة وموشحة وشعرا؛ حيث أجاب الشاعر الأندلسي طلب المقترح المغربي حيناً وبديهة، كما ورد في هذا : كتاب الوافي في القوافي تأليف أبي البقاء صالح بن شريف الرندي (خ). يضاف الى ما ذكر أنه في هذا العهد توافد على المغرب عدد من الوشاحين الأندلسيين واتصلوا بأهله، وأقام غير واحد منهم به، ومن هؤلاء الوافدين : أبو بكر بن زهر الحفيد الماز الذكر في الحديث عن الطب وموشحاته توجد نسخة منها بالأسكوريال من اسبانيا، وابن حزمون، كما يؤخذ من المعجب 196 - 197، والمريبطري الهيثم الآنف الذكر.

ومع هذا كله يبعد كل البعد أن لا يكون المغاربة عانوا التوشيح واشتغلوا به، بل المحقق أنهم نظموا فيه وشاركوا في نهضته على هذا العهد، والسبب في كونه لم ينقل لنا ولا بيت واحد منه : أن المؤرخين المغاربة في هذا الوقت - زيادة على إهمالهم - لم تجر عاداتهم بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة، كما يذكر هذا في المعجب (56)، اعتذارا عن عدم ذكر موشحات أبي بكر ابن زهر الآنف الذكر.

وينبغي أن يلحق بالتوشيح الزجل الذي وجد بالأندلس قبل هذا العهد، وأول من أبدع فيه لعصر اللمتونيين : أبو بكر ابن قرمان إمام الزجالين على الإطلاق، ثم بلغ هذا الفن مبلغا كبيرا بالأندلس في عهد الموحدين، ومن رجاله مدغليش وابن حجدرو تلميذه المجمع كما في المقدمة 548 - 550، وقد دخل بعض الزجالين الأندلسيين للمغرب، مثل أبي الحسن سهل بن مالك الغرناطي كما يؤخذ من النفح (2) 230، ومدح بعضهم الموحدين بالزجل مثل ابن حجدو المذكور، الذي فضل على الزجالين في فتح موقرة بالزجل الذي أوله.

من عائد التوحيد بالسيف يحق انابري ممن يعاند الحق (34)

بل إن الأزجال الأندلسية كانت مقروءة لهذا العهد بالمغرب، قال بن سعيد لدى حديثه عن أبي قرمان : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بمحاضر المغرب (35).

(32) طبقات الاطباء 2. 78

(33) أزهار الرياض 2. 230

(34) مقدمة 550

(35) مقدمة 548

وإن هذا ما يجعلني أميل الى أن هذا الفن الزجلي اشتغل به المغاربة على هذا العهد ونظموا على منواله، ولا يستبعد أن تكون أمصار المغرب مما يندرج في الأمصار المذكورة في قول ابن خلدون في المقدمة 548 : «ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية؛ من غير أن يلتزموا فيه أعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل...».

وكما رجحت ما ذكر، كذلك يترجح لدي أن العرب الداخلين للمغرب على هذا العهد أيام عبد المومن ثم المنصور، لابد أن يشتغلوا بدورهم بنظم الشعر بلغتهم العربية المستعجمة. فهذان الصنفان من النظم مما اشتغل به المغاربة في هذا العهد فيما يظهر لي وأميل إليه.

وهناك صنف ثالث من الشعر غير المعرب يقول عنه ابن خلدون في المقدمة 553 - 555 : «ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالמושح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه عروض البلد، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح لم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب إلا قليلا، فاستحسنه أهل فاس وولعوا به، ونظموا على طريقته، وتركوا الأعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم، ونوعوه أصنافا الى المزدوج والكاوي والملعبة والغزل، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها، ثم ذكر قصيدتين فيما قاله من المزدوج ابن شجاع من فحولهم، وهو من أهل تازا» الخ كلام ابن خلدون فهل حدث هذا الفن أيضا بهذا العهد ؟ هذا ما لاستبعده، وإن كان ليست لي الآن الأدلة الكافية لاثباته.

وإنما لم تنقل لنا هذه الأنواع من الشعر الغير المعرب لما ذكرناه في بحث التوشيح عن المعجب؛ بل هذا أخرى منه، ولما ذكره ابن خلدون في المقدمة 533 من أن الكثير من المنتحلين للعلوم وخصوصا علم اللسان، يستنكر مثل هذه الفنون إذا سمعها، وابن خلدون وإن ذكر هذا عن أهل عصره فهو جار أيضا في هذا العصر.

وقد شعر المقرئ في أزهار الرياض بهذا، فلذلك نراه بعد ما ذكر طائفة من الأزجال، يروح يعتذر ويقول (2) 227 : كأني بمنقذ ليس له خيرة يسدد سهام الاعتراض، ويتولى كبره، ويقول : ما لنا وادخال الهزل - الأزجال - في معرض الجدل الصراح ؟! وما الذي أحوجنا الى ذكر هذا المنحى ؟! والأليق طرخه كل الاطراح.

ويظهر لي أن ممن نظم في الشعر غير العرب من الشعراء الكبار لهذا العهد : ابن حبازة، نستمتع الى ابن عبد الملك في الذيل والتكملة يصفه بأنه كان ناظما ناثرا؛ له التفنن في أساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات (36).

وبيان هذا : أنه علم من كلام أزهار الرياض الآنف الذكر، أن الازجال في نظر بعض الناس إنما هي من باب الهزل ليس إلا، فإذا لاحظنا هذا، مع مقابلة ابن عبد الملك للهزل بالمعرب في كلامه، نستنتج استنتاجا واضحا أن المراد بالهزل في الكلام المذكور الشعر الغير المعرب، ويكون المعنى أن ابن حبازة كان متفنا في هذا النوع من الشعر على اختلاف اللغات : لغة الأندلس ولغة العرب الداخلين للمغرب، ولغة المغاربة... وقد سمى ابن خلدون في المقدمة هذا ونحوه لغات.

وكما عرفت بهذا الشاعر الذي كان ينظم في غير المعرب، كذلك وقفت على فرد آخر ممن كان يحترف بالغناء بهذا الشعر في العهد الموحيدي، وهو أبو علي حسن بن عمر الفهري السبتي؛ والمتوفى سنة 667، فقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة في ترجمة الابن : إن والده حسن المذكور كان قولا يغني في المحافل والأسواق (37) (...) مجربا بذلك، والمتلبس بهذا العمل يعرف في بلاد المغرب بالمحلي (...) (38).

شيخا محليا ذكر لي أنه من أصحابه ومقاوليه (هـ) بواسطة الأعلام (3) 149 - 150.

تعرب لغة المحادثة في العصر الموحيدي *

ونلفت النظر الى نقطة هامة في هذا الموطن؛ وهو أن تعاطي المغاربة لفن الزجل وما إليه؛ يدل على شيوع العربية في لغة التخاطب؛ وإن هذه اللغة كانت عربية شعبية. وزيادة على هذا فهناك كلمات عرضية وردت في بعض المصادر تدل على هذا دلالة الآثار على الديار، ومن هذا ما جاء في المعجب 239 في سياق حديثه عن أهل فاس : ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الاقليم، وإن من يقرأ كتاب لحن العامة لابن هشام السبتي المتوفى - كما سبق لنا - سنة 570، يلاحظ أن هذا حينما يقابل في كتابه المذكور الكلمات العربية بالكلمات العامية؛ كما ينطق بها أهل بلده في محادثتهم، يأتي بهذه الأخيرة عربية عامية، بل إن بعض أعلام هذه البلدة - سبتة - كان لا يتكلم إلا بكلام عربي فصيح، كما في الديباج

(36) بواسطة ازهار الرياض 2، 379

(37) ناض في الاصل

(*) المقصود شيوع التعرب حيث لا فإنه كان موجودا قبل هذا العصر وفي ترجمة أبي عبد الله مرون بن عبد الملك بن ابراهيم بن سحنون اللواتي في فهرسة القاضي عياض : أنه أخذ نفسه بالاعراب والتعبير في كلامه مع الخاصة والعامة فلا يكاد يأخذ عليه لمن.

م289. عن أبي عبد الله محمد حفيد القاضي عياض الشهير 584 - 665، وكما جاء هذا عن هذا الفاضل من أهل سبتة؛ كذلك نقل عن أديب كبير ممن سكن مراکش؛ وكان صاحب القلم الأعلى في دولة المنصور وابنه الناصر، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش الأنف الذكر، كان - كما في الاحاطة - قاصدا الأعراب في كلامه، لا يخاطب أحدا من الناس على تفريق أحوالهم إلا بكلام معرب، وربما استعمل في مخاطبة خدمته وأمنته من حوشي الألفاظ ما لا يكاد يستعمله ويفهمه إلا حفاظ اللغة من أهل العلم؛ عادة ألفها، واستمرت حاله عليها (هـ).

ويجدر بنا أن نقف قليلا عند هذا الكلام، لتفهم ما يدخل تحت كلمة الناس من أصناف المغاربة الذين كانوا يترددون على صاحب القلم الأعلى ويفهمون - طبعا - مخاطبته لهم بالكلام المعرب، فإن هذا - لا بد - يدلنا على مدى تعرب القوم في هذا العهد.

وينبغي أن نضيف لما تقدم أن دخول طوائف العرب للمغرب على هذا العهد، لا بد أن ينمي ويقوي عروبة لغة المحادثة بمدن المغرب، ويوجد لها بيواديها التي نزلها أولئك الأعراب، واقتسموها مع سكانها قبلهم، فقد خلص من هذا أن لغة المحادثة لهذا العهد كانت العربية غالبية عليها في المدن، ولا سيما في كبرياتها، وفي البوادي التي نزلها العرب الداخلون للمغرب.

السبب الذي حدا بالموحدين الى الاستعانة باللسان البربري

ولا بد أن يرد في هذا المقام سؤال لامناص منه، نذكره ثم نحقق الجواب عنه، وهو أن هناك ظواهر يدل بعضها على تمركز البربرية في هذا العصر بالمغرب : مدن وبادية، تمركزا بنا في ما تقدم من شيوع العربية في لغة المحادثة، ومن هذا ما جاء عن خلفاء الموحدين

1. إنه كان لا يؤم في أيامهم إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري كما في القرطاس 36، وعبارته 42 : كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري.

2. كذا جاء عن المأمون بن المنصور الموحدي : أنه نعى - فيما نعه - على المهدي ابن تومرت النداء للصلاة باللغة البربرية (39).

3. كان من التقاليد المتبعة لدى الموحدين أنهم يقرؤون عند ركوب الخليفة في المحافل الرسمية تواليف ابن تومرت بلسانهم البربري وباللسان العربي (40).

4. ألف ابن تومرت لأصحابه كتابا سماه بالتوحيد باللسان البربري، كما ألف لهم كتابا سماه بالقواعد، وآخر سماه بالامامة؛ دونهما بالعربية والبربرية، وكان ينقل إليهم المواعظ والأمثال ويقرب لهم المقاصد بالبربرية.

5. سلف لنا عن الرسائل الموحدية : أن عبد المومن أباح لمن لم يفهم اللسان العربي أن يقرأ توحيد ابن تومرت باللغة البربرية.

6. في ترجمة سالم بن سلامة السوسي المغربي المتوفى 589 الحافظ لمسائل الفقه : أنه كان قديرا على أداء هذه المسائل باللسان البربري (41).

وقبل الجواب عن هذا الكلام نقدم كلمة نبين فيها أن القوم كانوا - بصفة خاصة - شديدي الاهتمام بأمور الدين : من التوحيد والفقه وما في حكم ذلك، وكانت نشاطهم بمعدل كبير من معاقل البربرية - المصامدة - وقيام عصبيتهم الكبرى منه، من أكبر الأسباب التي حفزتهم أن يلقنوا تعاليم الدين وما إليها ويبيحوا قراءتها باللغتين العربية والبربرية لمن لا يفهم إلا هذه اللغة الأخيرة في تدريسهم وتأليفهم ووعظهم، وما نحى منحى هذا، درجوا على هذا أول دولتهم أيام إمامهم ابن تومرت، وبقيت بقايا منه بعده حتى في المدن لما ذكرنا، وللمبالغة في الافهام لمن يكون بالمدن ممن لا يعرف إلا البربرية.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ذكر من الإيرادات الستة وما شاكلها، مع ملاحظة ما تقدم من أنهم ما كانوا يتساهلون في استعمال البربرية إلا من أجل إفهام من لا يعرف سوى هذه اللغة، وما يشير لهذا عبارة رسائل الموحدين المشار لها رقم (5)، ونصها (132) : ويومر الذين يفهمون اللسان الغربي - البربري - ويتكلمون به : أن يقرءوا التوحيد بذلك اللسان... فهذا هو الحمل الصحيح الذي ينبغي أن يحمل عليه ما أشرنا له من الإيرادات، وهو الذي تدل عليه حالة القوم، وتشهد به سيرتهم، فقد كان لهم المكان المكين والمقامات الشهيرة في خدمة اللغة العربية وإحيائها وحمايتها، وكان كثير من خلفائهم وأمرائهم كتابا بلغاء، وشعراء مجيدين، وخطباء مصاقع، حسبما تقدم ويأتي، وما وقع في أيامهم من الجنوح لغير لغتهم الرسمية - العربية - في بعض المواطن إنما كان للضرورة، وهذا أمر واقع في كل جيل ودولة قديما وحديثا؛ وحتى الرسول العربي الهاشمي صلوات الله عليه وعلى آله، ثبت عنه أنه استعمل غير العربية في مواقف احتاج إليها (42)، وإلى الأيام القريبة من عصرنا نجد في بعض جهات المغرب أن بعض الكتب تؤلف أو تترجم بالبربرية وتقرأ وتدرس بها، وعلى سبيل المثال نذكر أحد أعلام سوس أبا عبد الله محمد بن مسعود البونعماني السوسي المتوفى 1330 : له

تأليف في الفقه باللهجة السوسية، الفه للاميين والنساء ليفقههم في الدين، وكذا معاصره أحد أشياخ سوس أبو الحسن علي بن أحمد الألفي السوسي، ترجم مجموع الأمير والحكم العطائية للغة السوسية، وزيادة على هذه التأليف فهناك تأليف أخرى مترجمة للسوسية، ومنها رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والمختصر الخليلي، وشرح البدة. وفي ترجمة الامام سيدي عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم السوسي الحاحي، أنه كان يعلم زائريه مهمات دينهم العربي بالعربية، والعجمي بالعجمية (43).

وهنا تنبيه لابد منه وهو أنه لا ينبغي أن يفهم مما ذكر إنهم كانوا يخطبون أو يعيدون الخطبة بالبربرية، أو أنهم يؤذنون رأسا بالبربرية، فإن هذا ليس بمراد، وليس واقعا قطعاً وتحقيقاً، وإن أوهمة العبارات المشار لها، وإنما المراد أنهم كانوا يشترطون في الخطيب ما ذكر من حفظ التوحيد - توحيد ابن تومرت - بالبربرية ليلقن خارجا عن الخطبة من لا يعرف العربية، كما أنهم كانوا يعيدون بعد الأذان الشرعي العربي النداء للصلاة بالبربرية.

والدليل على الأول - زيادة على ما تقدم - أمور : أولاً أن صاحب المعجب ذكر 228 - 230 مثالا من خطبة الجمعة التي كان يخطب بها بمحضر خلفائهم في صلواتهم للجمعة، ولم يذكر فيها ولا كلمة واحدة بالبربرية، ثانيا : ما جاء في القرطاس 42 : عن أبي محمد شكر بن موسى الجراوي أحد الخطباء الرسميين بجامع القرويين : إنه كان يؤم - في الصلوات الخمس - ولا يخطب، وإنما ينيب عنه غيره، لأنه كان أعجمي اللسان شديد العجمة، وعبرة الجذوة 38 : «وكان بلسانه يسير عجمة» أي بربرية كما هو ظاهر، فقد استتاب عنه غيره في الخطبة من أجل أن بلسانه عجمة بربرية، ثانيا : ما مر بنا آنفا من أن المامون نعى على ابن تومرت النداء للصلاة بالبربرية، ولو كانت الخطبة كذلك لكانت هي بدورها جديرة بأن ينعاها عليه، وينكرها ويندد بها.

أما مسألة الأذان بالبربرية فقد أجملت إجمالا، إما من المامون، أو من ناقلي كلامه مبالغة في الدعاية ضد الموحدين الآخرين وشيوخهم ابن تومرت، وحقيقتها ما جاء في مبحث البدع من معيار الونشريسي (2) 361 - 362، وعبارته : ومنها ما أحدثه المهدي الظاهري محمد بن تومرت... من إعادة الدعاء بعد الصلاة، والدعاء عليها بتصاليات الاسلام عند كمال الأذان، وتقام تصاليات وهي إقامة الصلاة، فقد تبين في كلام المعيار ما أشرنا له قبل، من أنهم لم يكونوا يؤذنون رأسا بالبربرية، وإنما كانوا يعيدون النداء لها بتصاليات الاسلام بعد كمال الأذان الشرعي العربي.

بعد هذه النظرة عن الأدب المغربي لهذا العهد؛ اتبعها بمبحثين : الأول يتناول أدباء عصر الموحدين بما فيهم من كتاب وخطباء وشعراء، وقد بلغ عددهم 51 أديبا، وسوف اقتصر على اسمهم ونسبهم... وعصرهم وحلاهم الأدبية، مع الاحالة على آثارهم النثرية والشعرية؛ التي لم تسبق الإشارة لها... وقد قسمت أولئك الأدباء الى ثلاثة أقسام : أ. الأدباء الذين وصلتنا آثارهم. ب. الأدباء الذين وصفوا بالكتابة أو الشعر من غير أن نقف لهم على اثر يذكر. ج. شاعران اثنان لم تقم لدي الادلة الكافية على مغربيتهما الأقصوية فأفردتهما بهذا القسم الأخير على حدة.

والمبحث الثاني أوردت فيه مختارات من النثر والشعر على هذا العهد، وقد انقسم النثر فيه الى كتابة وخطابة ووصايا وحكم كما انقسمت الكتابة الى : ديوانية واجتماعية وسياسية وأدبية وإخوانية وتوقيعات. وانقسمت الخطابة الى : سياسة واجتماعية. أما الشعر فقد ذكر منه في الأغراض التالية : المدح، الافتخار، الرثاء، الاعتذار والاستعطاف، الهجاء الذم، العتب، التأنيب، الوصف، الغزل، الاجتماع، السياسة.

أدباء عصر الموحدين

1. محمد المهدي بن تومرت عبد الله الهرغي 485 - 524

فصيح في وعظه وخطبه ووصاياه، بليغ في ترسله وكتابه، وقد أثبت له في المعجب 125 - 127 خطبها التي خطبتها على الموحدين لما حضرته الوفاة، وفي الوفيات (2) 52 خلاصة وصيته لأصحابه لما حضرته الوفاة أيضا، وفي الحلل 78 ورد له نص خطبة قصيرة يلوح فيها إلى مهديته، ويوعز إلى اتباعه في بيعته، وفي (2) 81 منها ذكر له نص رسالة وجيزة كتبها من إنشائه للمرابطين، كما أثبت من شعره في الوفيات (2) 53 أبياتا ثلاثة (ع) (1)، كذلك نسب له في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها، بيتين اثنين (ل).

2. عبد المومن بن علي الكومي الزناتي 495 - 558

من أئمة هذا الشأن، وله شعر رائع حسن، أثبت منه في المعجب 145 - 146 اثني عشر بيتا (ل) يستنفر فيها عرب إفريقية إلى الغزو بجزيرة الأندلس، كما أثبت له في الحلل 119 بيتين (ح) يشيد فيهما بانتصار الموحدين في بعض المواقع، وفي الشذرات (4) 183 نسب له بيتين (ب) قالهما لما كثر عليه الثوار.

3. موسى بن عبد المومن

من أدباء عبد المومن، ويوجد في القرطاس 129 أبيات ثلاثة من شعره (ث)، قالها بديهة في جواب بيتين كتب إليه بهما القاضي أبو يوسف حجاج.

(1) يلاحظ في الحديث عن أدباء هذا العهد أنني استعملت عقب الاحالة على الشعر حرفا مشكوكا، وأقصد بذلك روى الشعر المبال عليه وشكلته.

4. أبو علي الحسن بن عبد المومن

هو الأديب الثاني من أبناء عبد المومن الأمراء، وقد ذكر له في القرطاس 172 أبياتا ثلاثة (ب)، كتب بها الى أخيه يوسف لما عتب عليه.

5. يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المومن 555 - 595

أديب شاعر، وفي الحلل 121 - 122 تجد له وصية قصيرة؛ كما تقرأ له في النفع (2) 99 أبياتا عشرة من شعره؛ كتب بها الى العرب (م).

6. أبو الربيع سليمان بن عبد الله ابن عبد المومن بعد 600

كاتب شاعر، وقد أثبت في النفع 100.2 - 102 من نثو رسالة كتبها الى ملك السودان بغانة، ومن شعره قصيدة (ع) تشتمل على عشرين بيتا يمدح فيها ابن عمه المنصور، ويصف انهزام العدو، وأبياتا ثلاثة (م) يستعطف بها المنصور، وأبياتا ثلاثة أخرى في التغزل (ب)، وقطعة ثلاثية (لا) يخاطب بها المنصور أيضا، وبيتين (ع) كتب بهما الى ابن عمه السيد أبي الحسن الآتي الذكر، وبيتين (ب) يلغز بهما في جارية له، كما أثبت له صالح بن شريف في كتابه الوافي زيادة على البتين الأخيرين أبياتا سبعة (ع)، وبيتين (د) : الكل في موضوع اللغز. وأثبت صاحب المعجب (199) أن كاتب أبي الربيع محمد بن عبد ربه الذي أسلفنا أنه جمع (ديوانه)، نخل أبا الربيع كثيرا من شعره أيام كتابته له، قال صاحب المعجب عرفت ذلك بعد مفارقتة - ابن عبد ربه؛ - إياه - أبا الربيع - لأنني فقدت شعر السيد أبي الربيع واختلف على كلامه، ورأيت بخطه أشعارا نازلة عن رتبة الشعر جدا، فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه. هكذا يحكم المراكشي على شعر السيد أبي الربيع، وعلى عكسه نرى ابن سعيد في المغرب ينوه به ككاتب شاعر، أديب ماهر، له شعر مدون، حسبا ينقل هذا في النفع (2) 102. وإني وإن كنت لأستبعد صحة رأي المراكشي لمعاصرته لأبي الربيع؛ ولما استند إليه في حكمه، فإني احتفظ برأيي النهائي في الموضوع حتى يتسنى لنا الوقوف على ديوان السيد أبي الربيع.

7. أبو الحسن علي بن عمر ابن عبد المومن

من الأدباء الأمراء، وتجد في النفع (2) 102 أبياتا ثلاثة (ر) قالها في يعقوب المنصور يمدحه ويستزيده، ويطلب منه ما يقضي به ديونه، وبيتين اثنين (ع) أجاب بهما عن البيتين الذين أسلفنا أن أبا الربيع كتب إليه بهما.

(2) من حسن الحظ بسر الله لكاتب السطور من ديوان السيد أبي الربيع بعد ما قدم بحث الآداب للطبع، وفي النية كتابة بحث عن الديوان وصاحبه إن شاء الله.

8. السيد أبو محمد عبد الله صاحب فاس
من أهل هذه الكتبية، وتقرأ له في النفع (2) 103 أبياتا أربعة (ب) قالها في الفخر.

9. بعض السادة من بني عبد المومن
انشد له في النفع (2) 103 بيتين اثنين (د) في التغزل.

10. عبد العزيز بن يوسف بن عبد المومن
ترجمه في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها، ووصفه بأنه كان ينظم الشعر
ويجيده، وأثبت له أبياتا أربعة (م) في موضوع قول الشعر.

11. ادريس المامون بن يعقوب المنصور 581 - 629
عارف بالآداب، فصيح بليغ، خطيب كاتب شاعر، ويوجد بالقرطاس 161 مثال من
خطابته، كما أثبت في الحلل 125 قطعة شعرية له، تشتمل على أبيات أربعة (ر)، قالها في أهل
الحراة والفساد، وقد أورد هذه القطعة في القرطاس 162 بزيادة بيت خامس عليها.

12. أبو حفص عمر المرتضى 665
له حظ في الأدب، وقد أثبت له في الحلل 127 : أبياتا أربعة من شعره (د).

13. عبد الواحد بن أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المومن
أديب شاعر بليغ، وقد أثبت له في الاعلام (3) 157 - 159 قصيدة طنانة (ن) يمدح بها أبا
عبد الله بن رشيد البغدادي الوارد على مراكش، وهي تشتمل على أربعين بيتا *.

* بعدما حررت بحث (أدباء عصر الموحدين) وكثيرا مما يصدره وقع الى كتاب (أمرؤنا الشعراء)، تأليف الأخ العلامة المؤرخ
المطلع سيدي عبد الله كتون، أهده في ضمن مجموعة من الكتب الصديق العلامة المؤرخ البهالة سيدي محمد داود شكر الله
صله، وبالطبع كان أول ما قرأت من الكتاب قسم أمراء الدولة الموحدية؛ بحث وجدت المؤلف أثبت آثارا أدبية أخرى مهمة لكل
من السيد أبي الربيع والمامون المرتضى، وتتمهما لبحث أدباء عصر الموحدين رأيت أن أذيل بتلك الآثار على هذا البحث، وأبين أن
كتاب (أمرؤنا الشعراء) انفرد بالآثار الأدبية التالية : فقد أثبت للسيد أبي الربيع قطعة رباعية (ن) في الطيف، وقصيده (ر) بها
ثلاثة عشر بيتا في صفة الروض والحث على الشرب، وبيتين (ج) في وصف مسقية، وأبياتا خمسة (ب) في التوبة والدعاء، كما أورد
قصيدة أبي الربيع (ع) في مدح المنصور في ثلاثة وعشرين بيتا مع نديم وتأخير في بيتين منهما عما في النفع، وذكر شعره في
التغزل (ب) في نسخة أبيات، والمامون أثبت في ثمره صفحة لامية من رسالة، ومثالا من توقيعه، كذلك المرتضى ذكر له قطعة
سداسية (ل).

الأدباء الآخرون

وإذ ذكرنا الأدباء الخلفاء والأمراء في هذا العهد؛ تتبعهم بذكر أدباء عصر الموحدين الآخرين :

14. الطبيب الأديب علي بن يقطان السبتي

كان حيا سنة 544، ذكره ابن القطفي في أخبار العلماء بأخبار الحكماء (160) كطبيب شاعر أديب، وأورد له أبياتا سبعة من قصيدة (د) في العزير الجواد جمال الدين الأصفهاني بالموصل.

15. الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي

المراكشي 517 - 553

من أبلغ أهل زمانه كتابة وشعرا، ذكره في المعجب 128 - 129. والقرطاس 124 - 125. وفي النفح (3) 99 - 102 وفي غير ذلك، وقد أثبت له في القرطاس والنفح فصولا من الرسالة النثرية الشعرية التي يستعطف بها عبد المومن ويطلب عفوه، كما أثبت له المصدر الثاني فصولا من الرسالة التي كتبها عن أبي حفص عمر أينتي الى الموحدين بمراكش؛ يخبرهم عن صورة موقعة حربية انتصر فيها أبو حفص المذكور، وفي مجموع رسائل موحدية تجد له ست عشرة رسالة كتبها عن عبد المومن، وسبع رسائل 1 - 22، وسبع أخرى 26 - 71، ورسالة 95 - 99، ورسالة أخيرة 126 - 138.

وقد وردت هذه الرسالة الأخيرة مرتين : مبتورة وتامة أول وآخر الكتاب المعنون - بكتاب أخبار المهدي - للبيدق 13 - 17 و 134 - 145، وزيادة على الشعر الذي تضمنته الرسالة المشار لها أولا؛ فقد أثبت له في النفح بيتين آخرين (ح) كتب بهما من السجن الى عبد المومن.

16. الكاتب أبو عقيل عطية اخو ابي جعفر ابن عطية 520 - 553

أشار له في النفح (3) 99، وأثبت له في مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل 22 - 26 و 71 - 93.

17. شاعر من أهل سلا كان حيا 555

أورده عرضا ابن الابار في كتاب الحلة السيرافي ترجمة عبد الله ابن خيار الجياني، وأثبت له بيتين (ر) من الشعر يؤنب بهما الوزير عبد السلام بن محمد الكومي، انظر كتاب أخبار المهدي للبيدق 147 - 148.

18. الشريف الادريسي السبتي 494 - 62

كان يضيف الى معارفه الواسعة في الجغرافيا والفلك والطب اطلاعا واسعا على الشعر الأندلسي، وقد عانى بدوره صناعة القريض، ومن شعره الأبيات التالية نثبها برمتها لغرابتها :

ليس شعري أين قبري ؟	ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشتت	فاق في بر وبحر
وخبرت الناس والأر	ض لدى خير وشر
لم أجد جارا ولا دا	را كما في طي صدري
فكأنني لم أسر الـ	ساجيت أو بقفـز
دعني أجل ما نددت لي	سفينة أو مطية
لابد بقطع سيري	أمنية أو منية
ومن قبل أن أمشي على قدم المنى	سعى قلبي في المدح سعيًا على الرأس

مقال عن الادريسي نشر بمجلة المستمع (3) 15.

19. أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان بن بقي السلوي 563

أديب شاعر، ومن ترجمه ابن الأبار في التكملة 2782 ووصفه بأنه من أهل سلا، وأغفل هذا المصدر الأستاذ الفاضل عبد القادر محداد؛ في تعليقه على اسم هذا الشاعر حين أورد شعره صاحب زاد المسافر، وقد أورد له في الزاد 115 - 117 في الوجدانية والرجاء قصيدة (ل) تشتمل على (11) بيتا؛ كما أثبت له قصيدة (لا) بها أبيات (16) وفيها يتشوق الى بيت الله الحرام؛ ويتألم من تعذر الوصول عليه الى زيارة الرسول ص.

20. محمد بن حسين عبد الله بن حبوس الفاسي 570 - 500

شاعر مفلق، فاق في ذلك أهل زمانه، حتى لقب بشاعر الخلافة المهدية، وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانيء الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة، والقعاقع المهولة، وإيثار التقدير، إلا أن محمدا بن هانيء كان أجود منه طبعًا، وأحلى مهيبًا، ذكره في المعجب 137 - 138، وفي زاد المسافر 1 - 6 وترجمه في التكملة 1055 وفي الذيل والتكملة حسبما نقل ترجمته في الأعلام (3) 26 - 31.

وقد أورد مثالا من نثره في المعجب، كما أورد في الذيل والتكملة أمثلة من شعره : أبيات عشرين من قصيدة (ر) يمدح بها عبد المومن لما حل برباط الفتح، وأورد أول هذه القصيدة

زيادة بيت في زاد المسافر؛ فذكر منها تسعة أبيات، كما أورد له في الذيل والتكملة قصيدة (د) في موضوع التوحيد والزهد والتمسك بالسنة، تشتمل على ثلاثين بيتا، وقصيدة (ر) أبياتها اثنا عشر في الوصايا والأمثال وذم الزمان، وقصيدة أخرى من تسعة أبيات في الاعتبار (ن). وزاد المسافر أورد له زيادة على ما ذكر عنه : في المديح : بيتين من قصيدة (ج)، وعشرة أبيات من أخرى (لا)، وخمسة أبيات من قصيدة الثالثة (ر)، ومن قصيدة رابعة : تسعة أبيات (ق) يمدح بها عبد المؤمن ويصف فتحه لبجاية، وثمانية أبيات من قصيدة (ل) في الوزير ابن عطية، وفي موضوع الذم : أثبت له بيتين (ر) يهجو بها ابن عطية لما نكب، ومن قصيدة أخرى (ع) أبياتا تسعة يذم بها الشعر، كما ذكر له قصيدة (ص) ذات سبعة عشر بيتا فيما يطلب أن يعامل به الناس. وينبغي أن يضاف لما ذكر بيتان اثنان من قصيدة أيضا أوردهما ابن حماد الصنهاجي في : (أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم) ص (10)، وهما في مدح عبد المؤمن، وذكر اختطاط المهديّة، وبابها، وأبراجها الثمانية (ر).

21. محمد بن القاضي عياض الشهير اليحصبي السبتي 575

من أدباء هذا العصر، ترجمه في التكملة 1056 وفي الديباج 289 والغالب أنه الذي ذكره في زاد المسافر 95 - 96 وسماه أبا عبد الله ابن عياض، وهو وإن وصفه بأنه قرطبي؛ فالظاهر أن هذا إنما هو سبق قلم، وإنهم من باب قول زاد المسافر في ابن حبوس الأنفي الذكر : انه من قطر بجاية، مع أن الرجل فاسي تحقيقا، وقد أثبت في زاد المسافر لأبي عبد الله بن عياض عدة أشعار في التغزل : قصيدة (ب) تشتمل على عشرة أبيات، وقطعتين (أ، ق) تشتمل كل منهما على ثلاثة أبيات، كما ذكر له في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها في ترجمة ابنه عياض : بيتين في التسلية (ح)، وبيتا واحدا ارتجله في التغزل (ن).

22. عيسى بن عمران بن دافال التسولي الوردميثي 512 - 578

أديب لودعي، خطيب مصقع بليغ، شاعر مفلق ترجمته في المعجب 160 - 161 وفي التكملة 1931. والصلة 94. والذيل والتكملة والقرطاس 172. والجذوة 283، وفي هذين المصدرين الأخيرين تقرأ له رسالة نثرية كتبها لابنه حيث كان يدرس بفاس.

23. محمد بن أحمد بن عبد الرحمان ابن الصقر الأنصاري الحزرجي المراكشي 527

حدود 590

من تعاطى الشعر على هذا العهد، وكان له حظ صالح من قرصه، وأكد في الزهد والحكم وما نحا ذلك، ترجمه في الذيل والتكملة، ونقل هذه الترحم في الأعلام (3) 64 - 66، وأثبت له قطعة خماسية (م) في الشكوى.

24. أبو بكر عتيق بن علي بن حسن بن حفاظ الصنهاجي الحميدي المعروف بالفصيح المكناسي الفاسي 595

من شعراء هذا العهد، وسلف لنا أن له ديوانا شعريا، ترجمه في التكملة 2433 والجدوة 278.

25. عبد الله بن محمد عيسى التادلي الفاسي 511 - 597

أديب ناظم نثر، له رسائل وأشعار جيدة، ترجمه في التكملة 1491 والجدوة 236، والنيل 137 - 138، وفي هذا المصدر الأخير ذكر له بيتين (ك) يخاطب بهما ابن مضا. كذلك نسب له في كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها؛ في ترجمة ابن عياض بيتين اثنين في التسلية (ح).

شاعر من أهل فاس ذكره عرضا في زاد المسافر 62، ونسب له هذين البيتين :

يعاف السمع شعرك يايزيد وخطك في بشاعته يزيـد
إذا وجهت شعرك في مراد بخطك ليس يدري ما تريد

26. أبو حفص عمر بن عبد الله السلمي الاغماتي نزيل فاس 530 - 603

كاتب مجيد، خطيب مفوه، شاعر مبدع، غلب عليه الأدب حتى عرف به وشهر، ترجمه في التكملة وزوائدها 1831، والصلة 130. والجدوة 286 - 288 وأزهار الرياض (2) 359، وذكره في زاد المسافر 101 - 102 والعبدري في رحلته (خ) والغرناطي في شرح المقصورة (1) 100 والمقرئ في النفخ (2) 425 و149، وفي هذا الرقم الأخير نسبه في النفخ الى قرطبة غلطاً، وقد ذكر العبدري في رحلته نص خطبة من خطبه، وأثبت له في الأزهار قطعة نثرية شعرية في ذم الدنيا، كما أورد له هذا المصدر الأخير كثيراً من شعره، فأثبت له أبياتا 39 من قصيدة طنانة (م) في مدح يوسف الموحدي، وقد أورد في الجدوة الأبيات الأربعة من أول هذه القصيدة؛ كما روت له الأزهار أبياتا أربعة (م) في الفخر، وبيتين من قصيدة (ر) يمدح بها يوسف ويهنئه ببيعته الثانية. وذكرت من غزلياته قطعة (م) بها أبيات خمسة، وهي مذكورة في النفخ، وقطعة (ر) بها أبيات سبعة، وأخرى (ب) تشتمل على ستة أبيات، مع أبيات ثلاثة في الزهد (ر)، وخمسة في مدح العلم (ر)، وقد أورد هذه القطعة الأخيرة في الجدوة أيضاً؛ التي ذكرت له في التغزل أبياتا سبعة (ر)، وبيتين اثنين (ف)، واثنى عشر بيتا (م).

وقد أورد في زاد المسافر الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القصيدة، وفي النفخ بيتين منها، كما أورد في الجدوة والنفخ بيتين اثنين (ر) تساجل فيهما أبو حفص مع بعض أشياخ عصره،

وانفرد زاد المسافر بستة أبيات من قصيدة (ن) في المديح، بأخير نذكر أن شرح المنصور أثبت له أبياتا ستة (م) في الاعتذار والتغزل، وحذفت الصلة من هذه الأبيات بيتا واحدا.

27. عقيل بن عطية السالف الذكر 549 - 608

أديب كاتب شاعر، ترجمه في التكملة ورواؤها 1946. والصلة 313 والديباج 219 وذكره في النفع (3) 101 وأثبت له بيتين من شعره (د).

28. أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي 609

عالم بالآداب، نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثه، بليغ اللسان، شاعر مفلح، مداح هجاء، حاضر البادرة، وكان أيضا يلقب بشاعر الخلافة، وهو الذي اختير لمجالسة الأديب الشرقي عبد الرحمان بن منقذ؛ لما ورد المغرب سفيرا عن صلاح الدين الى يعقوب المنصور، وكان يقول آخر عمره : تعسا لطول العمر، الذي أخرني لمعاشره هؤلاء الأندال ! وعهدي بالخليفة عبد المومن يقول لي في جبل الفتح : يا أبا العباس إننا نباهي بك أهل الأندلس، «مجلة الأنوار» عدد جمادى الأولى 1367 - مارس 1948.

ترجمه في القسم الأول من التكملة رقم 323، والوفيات (2) 494، وذكره في زاد المسافر 7 - 9، وفي النفع (2) 388 والأزهار (2) 365، وكان لا يعرف من شعره إلا الأبيات التالية : بيتان على اللام المفتوحة في يوسف بن عبد المومن، وبيتان في فاس، قافيتهما ياء مفتوحة، وقطعة سداسية ميمية في الهجو، وبيتان على الراء قاهما بتونس وبيت على النون يمدح به خليفته، وبيتان على الضاد وردا في بستان ابن أبي مريم؛ يجوز أن يكونا له، مجموع هذه الأبيات ثلاثة عشر أو خمسة عشر، «انظر الملحق الثقافي لجريدة المغرب ع 9».

ولما طبع زاد المسافر ظهرت به أربعة عشر بيتا أخرى للجراوي : بيتان من قصيدة (ن) في هجو الصابوني الذي صلب، بيتان من قصيدة أخرى (ن) في الهجو أيضا. بيتان أيضا (ف) في الموضوع، قطعة (ن) تشتمل على ستة أبيات مما وقع له مع أحد المبتدلين، بيتان (د) وقع بهما لشاعر استجدها بقصيدة، كذلك ظهرت كمية مهمة من شعره أوردها ابن عذاري في أحد أجزاء البيان المغرب، وهو مخطوط فريد توجد منه نسخة عند الأستاذ كوللا بالرباط.

وابن عذاري يورد شعر الجراوي بمناسبة الحوادث التي يتعرض لها، وكله في المدح، وأكثره يتعلق بيعقوب المنصور، وهو يتكون من خمس قصائد وأربع مقطوعات وأبيات، ومجموعه أربعون ومائة بيت، فإذا أضيف الى الأبيات الثلاثة عشر، والى أربعة عشر بيتا في زاد

المسافر، يكون مجموع ما نعرف الآن من شعر أبي العباس الجراوي سبعة وستين ومائة بيت (رسالة المغرب) (1) - 8.

وينبغي أن يضاف لكل ما تقدم البيتان أو الثلاثة أبيات الواردة عرضاً أثناء مقدمة الحماسة المتأخرة للجراوي؛ إن لم تكن ضمن الأشعار الآنفة الذكر، وكذا ينبغي أن يضاف لذلك ثلاثة أبيات (ر) في الهجو، وقد وردت في الأزهار ضمن ترجمة أبي حفص بن عمر الأنف الذكر.

29. عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي 581 - 625

أديب ناقد كاتب، وفي كتابه المعجب الذي هو أهم مرجع لآخباره تقرأ له في غير ما صفحة قطعاً نثوية يتجلى فيها أسلوبه الفني، كما نجد له أبياتاً تظهر فيها شاعريته المهيبة على قلة ما أورد من شعره في كتابه، حيث إنه لم يذكر فيه إلا بيتين (ب) في التغزل 202، وأبياتاً ثمانية من قصيدة (م) يمدح بها الأمير إبراهيم ابن يعقوب المنصور ويذكر ولايته اشبيلية 206 - 207.

30. أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي ابن دحية الكلبي السبتي يعرف بابن

الجميل 547 - 633

عارف بالشعر العربي، قارض له، كاتب مستعمل لحوشي اللغة في رسائله ومخاطباته، ترجمه في الوفيات (1) 481 - 482. والتكملة 1832. والصلة 132، وعنوان الدراية 159 - 167. والبغية 360. والنفح (1) 368 - 371 والشذرات (5) 160 - 161.

وقد أثبت له في العنوان من نثر رسالة قصيرة مقفلة على نحو ما وصفنا، كتبها لوالي بجاية؛ يطلب منه اطلاق سراح خديم له، كما أثبت من شعره قصيدتين اثنتين في مدح السلطان الكامل ابن أيوب ملك مصر، الأولى (م) بها خمسة وأربعون بيتاً، والثانية (ع) بها ستة وأربعون بيتاً، واقتطف في النفح من القصيدتين الأولى ثمانية أبيات، والثانية ثمانية عشر بيتاً.

31. أبو عمرو ميمون بن علي بن عبد الخالق الريفي الصنهاجي الخطابي 637

كان من أكبر أعاجيب الدهر في سرعة البديهة ناظماً أو ناثراً، مع الاجادة التي لاتجاري، والتفنن في أساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات، وكان في آخر عمره جانحاً الى امتداح ملوك عصره، فكان يأتي في ذلك بما لم يسمع بمثله، ولا يطمع في لحاقه سرعة ارتجال، وحسن افتتان، وسرعة امثال، هكذا تقول عنه عبارة الذيل والتكملة المنقولة في أزمهر الرياض، لدى ترجمته التي استغرقت منها (2) 392، كما اسفرت ترجمته من الجذوة

209 - 218. وقد أثبت له كل من الأزهار والجدوة قصيدة الطنائة (ي) التي ماح بها الرسول (ص)، وأشار الى جملة مفاخره ومعجزاته، بها 145 بيتاً كما ذكرنا له كثيراً من قصيدته (ر) التي يرثي فيها أبا محمد عبد الله بن وزير اشبيلية؛ وعظيمها أبي بكر حفيد الحافظ أبي بكر ابن الجد، ويعزي والده الوزير، أثبت له في الأزهار منها 45 بيتاً، وفي الجدوة 68 بيتاً، وكذا أثبتا له بيتين اثنين من قصيدة (ل) يذم فيها المهدي بن تومرت لما تبدأ منه المامون بن المنصور، وأثبت له في الأزهار قصيدة (ل) في الحنين الى أحبابه تشتمل على 14 بيتاً، واقتصر في الجدوة على الأبيات الأربعة الأولى منها. وانفردت الأزهار بأبيات ثلاثة من قصيدة (ب) قالها لما قطع جند المامون أطناب القبة الحمراء التي ضربها المعتصم بن الناصر بن المنصور بظاهر مراكش، وابن عبد الملك * هو الآخر أثبت له في الذيل والتكملة (نسخة مكتبة الرباط) قصيدة (لا) في تهنئة أبي العلاء بن منصور - المامون بعد - بولاية اشبيلية بعد قرطبة.

32. علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي 637

أديب مبرز. له الشعر الفائق غزلاً وتضوفاً، ترجمه في التكملة 1921، وعنوان الدراية 85 - 97 والنفع (1) 441 - 412. والنيل 201 - 202 والشذرات (5) 189. وقد أثبت له في العنوان مثالا من أدبه الصوفي، ومنه قطعة (ن) بها أبيات (6)، وقصيدة (م) بها (10) أبيات.

33. أبو القاسم عبد الكريم بن عمران القصري 643

متحقق بالآداب، كاتب شاعر، ترجمه في التكملة 2184 وأثبت له بيتين (ل)، وأورد له في الاعلام (3) 102 - 103 رسالة نثرية مفتوحة بقطعة شعرية؛ يطلب فيها من ابن العابد القاسي الآتي الذكر بعض قريضه.

34. أبو عبد الله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي 659

أديب وقته، وشاعر عصره، كما تحليه بهذا الذخيرة السنية 106، وهو مترجم أيضاً في الجدوة 177 - 179، وقد أورد له هذا المصدر الثاني من شعره قصيدة (ل) في التغزل بها أبيات (13)، وبيتين (م) في الشيب، وثلاثة أبيات (ل) في وصف مصباح، وبيتين (ك) في وصف نهر قذفت فيه مصاييح، وثلاثة أبيات (ب) في وصف نهر وردته عصابة طير، كما أثبت له في الجدوة أيضاً (ص) 43 بيتاً واحداً (ن) من مقطوعة بها أبيات أربعة في وصف الثريا الكبرى بالقرويين. تساجل في هذه القطعة مع الأدباء : أبي القاسم المزياقي ومالك بن

المرحل ومحمد ابن خلف، وأنشد له ابن الخطيب في نفاضة الجراب بيتيه الشهيرين (أ) في مدح بلده مكناس، وقد أثبتهما نقلا عن النفاضة بن غازي أواخر الروض المتون.

35. أبو عبد الله محمد بن عيسى ابن عمر الفهري السبتي يعرف بابن المحلى 582 أو 583 - 661

أديب بارع، كاتب بليغ، شاعر فصيح، مفوه لسن، ترجمه في الذيل والتكملة حسبا نقل هذه الترجمة في الاعلام (3) 149 - 152 وفي البغية 84، وأثبت له في الذيل والتكملة ثلاث قصائد في التغزل على نحو في بعضها، الأولى (ب) بها (14) بيتا، الثانية (ح) بها (15) بيتا، الثالثة (ن) بها (21) بيتا.

36. أبو عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي 662

كاتب محسن، مبرز في حفظ الشعر ونظمه ونسبته الى قائله، ترجمه في البغية 77 والجدوة 144، والنيل 254 والاعلام (3) 102 - 106 نقلا عن الذيل والتكملة، وقد أثبت له هذا المرجع الأخير رسالة نثية مفتحة بقطعة شعرية، يجيب بها رسالة أبي القاسم عبد الكريم بن عمران التي أشرنا لها في ترجمته، كما أثبت من شعره بيتين (ر) في أخوين وسيم وأحدب، وقطعة (ر) بها ثمانية أبيات في وسيم مثير الثنية له خال بشاره، وبيتين (ف) في شاعر رصف، وقصيدة (ر) تشتمل على وصف حمام أبياتها (15)، وقد وقع المحو في غير بيت منها، كما أثبت له في الجدوة بيتين في التغزل (ج).

وقد منيت ترجمة هذا الأديب بشيء من الغلط والتصحيح في بعض مراجعها، ومن هذا ان صاحب الجدوة اخر وفاته عن تاريخها بقرن كامل؛ فجعلها سنة 762 عوض 662، وتبعه في هذا بابا في النيل، ولا شك أن هذا سبق قلم ليس إلا، وكذلك البغية طوحت بنسبته من فاس الى فارس، حيث جاء فيها الفارسي بدل الفاسي، وبديهي أن هذا تصحيح مطبعي لاغير.

37. أبو الحسن علي بن مروان الرباطي

من كتاب وشعر هذا العهد، ذكره - عرضا - في النفح (1) 466 نقلا عن ابن سعيد، وأثبت له شيئا من النثر والشعر، فمن النثر رسالتان موجزتان خاطب بهما المؤرخ ابن الربيب، ومن الشعر أربع قطع، كل قطعة بها ثلاثة أبيات، الأولى (ق) يبرر بها ضنه بكتبه ويخله بإعارتها. الثانية (ق) يتأسف فيها لحالة ولده، الثالثة (ر) في التغزل، الرابعة (ن) أوصى بها أن تكتب على قبره.

أولئك هم الأدباء الذين وقفت على ما أشرت له من آثارهم الأدبية نثرا وشعرا، وينبغي أن نذيل عليهم بالأدباء المغاربة الآخرين الذين لم أعثر لهم على أثر يذكر، وإنما وقفت على وصفهم بالشعر أو الكتابة.

38. علي بن خلف بن غالب الأنصاري القصري 568

أديب شاعر. ترجمه في التكملة 1870 و 2380. والصلة م 201 والجدوة 297.

39. محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الأنصاري الطنجي 585

من أهل الأدب والشعر وله ترجمة في التكملة 1059.

40. محمد بن حسن بن عطية السبتي المعروف بابن الغازي بضع 590

له حظ من قرض الشعر، كما هي عبارة التكملة 1060 في ترجمته.

41. أبو الصير أيوب بن عبد الله بن أحمد الفهري السبتي 609

من شعراء هذا العهد، ترجمته في التكملة، ض.ج. 536. والجدوة 100.

42. عياض بن محمد حفيد القاضي عياض الشهير السبتي 561 - 630

فصيح لسن، شاعر مفوه، ترجمه في التكملة 1947. والصلة 322 والدياج 172.

43. أبو عمرو عثمان بن دحية السبتي أخ أبي الخطاب 546 - 634

من أدباء هذا الجيل، لكنه كان مولعا بالتفكير في كلامه ورسائله لهجا بذلك، ترجمه

في الوفيات (1) 482. والتكملة 1837 والصلة 140. والبغية 322. والنفع (1) 366

والشذرات (5) 168. ومن سوء حظ أبي عمرو ان لم يثبت ترجمته صاحب عنوان الدراية،

فيذكر بعد آثاره الأدبية؛ كما ذكر ذلك في ترجمة أخيه السالف الذكر أبي الخطاب.

44. أحمد بن محمد أحمد التميمي البكري السلوي الأصل المراكشي النشأة 581 - 641

وافر الحظ من الآداب، شاعر محسن، ترجمه في البغية 156 - 157 والأعلام (1)

351 - 352.

45. إبراهيم بن يحيى بن أبي حفاظ مهدي المكناسي 600 - 666

أديب شاعر، وله ترجمة في البغية 190.

46. أبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي

يعرف بابن البقال وابن تاعظمية عند أهل أغمات، وبسليمان آحضري عند الموحدين، من رجال الكتابة، كان يكتب الرسائل عن اذن المهدي ابن تومرت، ذكره في المقتبس من كتاب الانساب 33.

47. ملول بن ابراهيم بن يحيى الصنهاجي

فصيح بديه بالألسن، يكتب بالسريانية والرومانية وغير ذلك وينفذ في ذلك، وكان كاتباً مع المذكور قبله عن المهدي بن تومرت، أورده في المصدر المذكور 39.

48. ابنه يعقوب بن ملول

أحد كتبة الخليفة عبد المومن. المصدر 40.



ونختم سلسلة الأدباء على هذا العهد بذكر الشاعرين الذين أسلفت أنه لم تقم لدي الأدلية الكافية على مغربيتها الأقصوية؛ فلذلك ذكرتهما على حدة في هذا.

49. الشيخ الشاعر السبتي

جاء في آخر الفتوحات المكية باب الوصايا (4) 551 ما يأتي : ولقد وفد علينا ونحن باشيلية شيخ شاعر يعرف بالسبتي من قرطبة رحمه الله، ولم يكن للسبتي موضع ينزل فيه، فكتب الى صاحب الديوان أبي عبد الله ابن كعب :

اتحفل بالفرزدق والكميت	وفي قيد الحيا شعر السبتي
يروعني بشعرهما أناس	وجهلا روعوا حيا بميت
لئن اسكنتني بيتا رفيعا	لنسكن من ثنائي ألف بيت

فوقع له صاحب الديوان بيت ينزل فيه، واعتذر إليه ووصله بنفقه.

50. محمد بن محمد البربري

أثبت له ابن فضل في المسالك (خ)، والقلقشندي في صبح الأعشى (5) 162 بيتين

من شعر له يمدح به الموحدين، ويصف دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة بمراكش :
 خير قوم دعوا الى خير دار هي للملك نضرة وكامة
 عالم السبعة الأقاليم فيها وهم في فنائها كالقلامه

نماذج من أدب هذا العهد

I. النشر

1. الكتابة الديوانية

من رسالة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المومن؛ الى طلبة تلمسان يعلمهم بفتح قسنطينة، ويخبرهم بإنابة يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية الى التوحيد :

... وهذا كتابنا إليكم؛ كتب الله لكم فيها خولكم الثناء والزيادة. ومكن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الانالة والافادة، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة، من حضرة بجاية - حرسها الله - عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده، وبشائر ينزه بشرها وسماحها عن الجري على معتاد الدأب المؤلف ومعهوده، وآيات بينات أغنى تخيلها واتضاحها عن كل برهان ووجوده، وإن تعلوا نعمة الله لاتحصوها في المستولية محصى العادة ومعدودة؛ نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر، وعمى الأبصار والبصائر، تعظيم ما نشاهد ونعاين عونا بعين وبنهض، وعملا يتخلص بشكر آلائه الباهرة ويمحض، وقوة لاتنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنتقض.

وقد تقدم أعلامكم - وصل الله سروركم، وضاعف شكوركم - بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد؛ التي يسر مرامها بحوله واقتداره، ونور ظلامها بأضواء هذا لأمر السعيد وأنواره، وصير أباطحها وآكامها من مواطيء أوليائه وأنصاره، وكيف كانت صورة الحال في درجها. وتصرف الانتقال من محصها الى عرجها، وإن أبا زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر وجميع إخوته وقربته وخزوله حين أتاهم الرائد الذي لا يكذب أهله، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله : لم يكن لهم بد عن التولي عن قرارهم.

والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم : لأمر قضى الله فيه لهذا الأمر المبارك بخي قضائه. وشأن ضوى الخيرة درج تضمنه واقتضائه، فكان مأهم الذي اعتقدوا منعهم وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته : بلد قسنطينة - عمره الله - لكونه بحيث لا ينال بقدرة مخلوق، وأين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق، وكانت جمل من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه، واعتدادهم في عداد من يحويه ويؤويه، بجهة القلعة - حرسها الله - على إثر فتحها الميسر، ونيل أجرها على الوجه المتخير، فانهض منهم - بعون الله الى تلك الجهة من رجي الخير في إنهاضه، وحض على خدمة هذا الأمر وإعراضه، فحين أمل الناهضون المذكورون - وفقهم الله - بجهات قسنطينة - حرسها الله - فتح لهم الفتح الذي تقدم إليكم بيان القول فيه واعرابه. وأورد عليكم إبداع القدر في تقريبه وأغرابه، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال وأحزابه، وحل الموحدون هناك - وفقهم الله - بساحة ذلك القطر وذراه. وغشيه من غشيه وغراه وماترك القطابه أن يقطع كراه.

وكان التخيم الملاصق. والتدويم المراهق؛ والحق يتجلى والنصر يتولى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولى، إلى أن صرف الله ألباب القول المذكورين الى قبلة الاصابة، وأراهم أن النجاة في جانب هذه العصابة، والحياة في قرارها الذي هو مقر قرار اليمن والمثابة، فاتفق رأيهم على إنفاذ جماعة منهم؛ فيهم إخواني زكرياء وشيوخ صنهاجة، وقسنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى، مستسلمين للأمر الذي لا يقابل بعناد ولا يلقي، سائلين من التأمين والابقاء ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى، ووصلت الجماعة المذكورة الى هذه الحضرة المحروسة، يسعى أملها بين يديها، ويعرف القصد عما لديها، وأنهت ما تحملته من المخاطبة، وأمته لها ولن وراءها من حسن العاقبة، فمن الله على جميعهم بتيسير مطلبهم، وإجمال منقبلهم؛ وصدروا الى مرسلهم تهلل أسرتهم، وتتجمل بحلل العافية والنعمة الصافية كرتهم، فاتوا قومهم على تطلع الى بشرهم، وتمتع بطيب ذكراهم، واعلموهم بالصنع الذي عرفهم تعظيم صنع الله وأدراهم، فرأوا أجمعين أن الله سبحانه سنى لهم بفضل غاية ما طلبوه، ورزقهم من حيث لم يحتسبوه، ووهب من إيواء الفضل وقبوله فوق منا استوهبوا، حيث لم يكن لهم منجى إلا الذي نرحوا عنه وغربوا، وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الأمر وتحققه، وتعرف سنة هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه؛ وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل الله ورحمته الواسعة، مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة، ودخل القطر من أمناء الموحدين وغزاتهم - وفقهم الله - من أمر بعمارتها، والاستقرار في قرارها، واستقبل أبو زكرياء المذكور ومن معه - وفقهم الله - هذه الجهة - حرسها الله - على أحسن حال، وأكرم وإقبال.

وأتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط، والصنع المبسوط، إتماماً بلغ الأمل غاية مأمونه، والسائل كافة مسؤوله، فذلك القطر هو الطرف الأعلى، والراصد الأحق الأولى، ورأس الجسد الذي استتبع بعضه بعضاً واستتلى؛ وبه انعقدت روابط هذا الاقليم العظيم وقواعده، وفقدت ضرر من كان ينوي الضرر فواقده، ومعه متأتى جمع شمله وضمه، وإمساك شأنه كله وعزمه، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه، والله نسأله بشكر هذه النعم المتظاهرة عوناً ممدوداً، وحولاً بمعاهد المعونة الربانية معقوداً، وقوة تلقى من حمدتها الى كل جديد منها جديداً؛ (١).

2. الكتابة الاجتماعية :

أ. من الرسالة المعروفة برسالة الفصول. أنشأها الكاتب أبو جعفر بن عطية عن إذن الخليفة عبد المومن إلى أهل بجاية يوصيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات :

... وابتديء بأول مباني الاسلام فأخذ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لا يثبت عمل دون تأصيلها، والرابطة التي لا يقبل دين دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يتمسك بسببه، وقد بنى وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به، وهو إثبات الواحد ونفي ما سواه، بتقييدات في الشريعة لا يكفي معها إطلاق اللفظ دون تحقيق معناه؛ وذاك أن يعلم على وجهه وحده، ليكون عن علم لا عن ضده، وعن يقين لا عن شك، وعن إخلاص لا عن شرك، وإن يقوله مع العمل ولا ينكل، ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله الى آخر القول في المعجزات، ويحفظوه ويفهموه، ويلزموا قراءته ويتعهدوه، ويومر طلبة الحضر ومن في معانهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين التنبيه والتبصر ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها : «اعلم أرشدنا الله وإياك» وحفظها وتفهمها، وأشمل في هذا الالتزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد، وكل من توجه عليه التكليف، إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد، فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل ولا بالرسالة، ومن حصل على مثل هذه الحالة، فقد تعثر في أذيال الصلالة، فإن لم يبادر الى التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها، فقد وجب عليه حكم الكتاب ولا عنت في إراقة دمه لاحالة.

وآخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتب الموقوف على المومنين، والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين، والناحية عن الفحشاء والمنكر على ما ورد في الكتاب المبين؛ ولاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة؛ فهو محو من ديوان المومنين، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من

الوظائف والقوانين، وتاركها ميت في عداد الأحياء؛ لخشاشة تقضى عند انقضاء أمد الأمهال والأملاء، فخذوا من قبلكم بإقامة الصلاة على ما شرعت، وأدائها بحسب ما فرضت، وخذوا العوام ومن في الديار بحفظ أم القرآن وسورة معها؛ وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم، ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فرض عليهم منها فاجله للحين متاح، وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب.

وخذوا بإيتاء الزكاة، وبالكشف عن مانعها وتشخيص ممسكها أو النزر اليسير منها، فالزكاة حق المال، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقل، فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة، فمن منع فريضة كمن منع الفرائض كلها، ومن منع عقلا فما فوقه كمن منع الشرع كلها.

وأمر بالنظر في الربوب وتمييزها، والهجوم على بائعها ومدمني شربها ومستعملها، فإراق مسكرها، ويقطع منكرها، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامداً، وشربه مدمنا عليه ومعاهداً، ولم ترعه الحدود، ولم تقيده القيود، ولم يعظه الاعتبار، ولم ينفعه الذاكر، فيمحي أثره، ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر، وجماع الاثم وكاشفة شمس العقل، والبلاغة على كل قبيح من الفعل، والفاقة كل مرتج من أبواب العصيان، وهي رجس من أعمال الشيطان.

وأمر بالكشف عن التلصص والخرابة، والتولج في مكان من الريب والغواية، والاجتماع على السير الجاهلية من الملامهي على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلتها؛ وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة، والأفعال المنافية للشرعية الصادرة على أهل الذراعة والضلالة من الرجال المفسدين، والغواة المضلين، ومن النساء المفسدات، المفننات في طرق الغوايات، فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثيرهم عن مكائدهم، ونقبوا عليهم في مظانهم، فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنة باستصحاب حاله، وتماديه على الاحضار في محل باطله ومحاله، فيحكم كتاب الله - جل اسمه - عليه، وتطاع سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيه.

وليكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قبلهم، ويأكلون بالباطل أموالهم، وعن أهل العناد والتقاعس والاخلاد، والتبسط الذين إذا دعوا إلى الجهاد، ونودوا إلى الصلاة والرشاد، صموا عن النداء وتلوموا في إجابة الدعاء، وألقوا المعاذير المعربة عن العناد، والناطقة عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد، وعن القبائل الباقية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد، والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر، وعن أهل النفاق والتدليس، الناطقين بما لا يعلمون، والقائلين ما لا يفعلون، فإذا تعينوا على التحقيق، فليمض عليهم حكم الله تعالى الذي أمر به فيهم. (مجموع رسائل موحدية 131 - 134، كتاب أخبار المهدي للبيدق 139 - 142).

ب. من رسالة السيد أبي الربيع الموحيدي الى ولي ناحية سجلماسة؛ جوابا عن رسالة ملك غانة بالسودان ينكر عليه تعويق التجار.

... نحن نتجاوز بالاحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق على الرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لاتعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيها هم بصدده، وتردد الجلالة الى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكننا لانستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله. نفح (2) 100.

ج. أبو حفص الأغماتي يحذر من الدنيا وأهلها، ويحض على علم الكتاب والسنة : هذه الدنيا - حفظك الله - كما قد علمته، فاعرض بحلمك عن جهلها، وارغب بنفسك عن أهلها، وأذكر قبائح انبائها. واصرم وصل ابنائها، لاترتع في روضهم، ولا تكرر في حوضهم، وقل الله ثم ذرهم في خوضهم، وإذا مررت باللاغين بذكر محاسنها، اللاهين بحسن ظاهرها عن قبح باطنها، فإله من هوهم، ومر كريما بلغوهم؛ مر المهتدي في سيرة، واعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، فالسيادة والسعادة في نبذها، لا في أخذها، وفي تركها لا في دركها، وإليك عن وصلها إليك، وإليك بهجرها عليك، واتل قوله تعالى : «ولا تمدن عينيك»، وقوله تعالى : «ولا تعد عينك عنهم»، واحرص أن لاتكون منهم؛ فزخرف الدنيا في نظر العين زين، وفي نظر العقل شين؛ فغمض عينك تبصر، ولا تمدّها واقصر، جعلنا الله ممن نظر بقلبه وأبصر بلبه، فأولوا الأبواب والفكر، المخصوصون بالذكر، والعلم ارفع المزايا، وأوسع العطايا، هو غاية المنال والمدرك، من ناله أي شيء فاته. ومن فاته أي شيء أدرك ؟... لا علم إلا علم الكتاب والسنة، هما أفضل العطايا والمنة، فمن علمهما ونظر فيهما وعمل بهما؛ نال غاية السعادة، وادرك متهى السيادة؛ قال الله تعالى لنبيه الكريم : «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم»، هذه المزايا العالية، والعطايا الواسعة الباقية، لا ما نهت عنه الآية الثانية، جعلنا الله ممن ابصر رشده، وذكر مراده، ووجه اليه قصده، ورأى في أول أمره آخره، وابتغى فيها أتاها الله الدار الآخرة؛ بمنه وفضله آمين. الأزهار (2) 359 - 360.

3. الكتابة السياسية

أ. من رسالة للمهدي ابن تومرت يذكر مثالب المرابطين وما أنعم الله به على الموحيدين : (1).

(1) نشت هذا القسم من إحدى رسائل ابن تومرت كأمثلة لكتابة السياسية أول قيام دولة الموحيدين على أن عهده ما ورد في هذا النوع من الكتابة عن المرابطين تحملها ابن تومرت وحده من غير أن تشاركه في رأيه.

... واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين؛ فلا تلتفتوا إلى ما يقولون؛ فإنها كذب وبهتان، وافتراء على الله ورسوله، وما نسبكم إليه من الخلاف لله والرسول؛ فذلك خب وغش للمسلمين، وخيانة لله ورسوله؛ يأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق واتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأتاب إلى الله، مخالفا لله ورسوله؛ بل المخالف لله ورسوله من اتبع الباطل وخطوات الشيطان.

فانتبهوا وفقكم الله لهذه الحيل؛ التي يحتالون بها على عيشتهم ودنياهم حتى حملهم ذلك الافتراء على الله ورسوله، حتى عكسوا الحقائق وقلبوها؛ وحرفوا الكلام عن مواضعه، ونسبوا من دعى إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة إلى الخلاف؛ وسموه مخالفا بيغيهم، وسموا من اتبع الباطل وخطوات الشيطان؛ من اتباع عادات الجهل والمداهنة؛ وأكل الحرام وارتكاب الآثام؛ والاصرار على الكبائر والفجور؛ واكل الدنيا بالدين؛ واكل أموال الناس بالباطل؛ وسموا هؤلاء كلهم مطيعين، وسموا اتباع الباطل وخطوات الشيطان طاعة افتراء على الله ورسوله؛ فلا تلتفتوا إلى تلييسهم؛ ولا تنظروا إلى تدليسهم، فإنه ظهرت أباطيلهم وتعاضدهم على إخماد الدين؛ وتعاونهم على الاثم والعدوان؛ فويل لهم مما كسبت أيديهم؛ وويل لهم مما يكسبون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...

... واعلموا وفقكم الله أن الموحدين في الأمن والأمان، ونصر من الله وعافية وفضل منه وإحسان؛ تتابعت عليهم النعم، وترادفت عليهم المنن؛ لله الحمد في ذلك؛ اشتغلوا بتعليم ما يلزمهم، والاهتمام في دينهم، والقيام بفرائضهم، والاستعداد للقاء ربهم، فالله يتم علينا وعليهم، ويوزعنا شكر نعمه، أذل الله لهم عدوهم، وقذف في قلوبهم الرعب وزلزل أقدامهم وانتقم منهم بجورهم، وأخذهم بسوء أفعالهم، أخذهم الله في كل ناحية، وقطع الله لهم كل حيلة، هم في خزي وخسران، ورعب وخذلان، وذلك كله من حول الله وقوته لا منا؛ ولا من أفعالنا، إنما هو من وعد الله الذي لا يخلفه لأوليائه؛ وخزي من حاد الله ورسوله من أعدائه، أرسل عليهم جنودا لا قبل لهم بها؛ وأظهر عورتهم وذلتهم لأوليائه؛ وكل من استند إليهم من حزب الشيطان من أوليائهم لاشك فيه ولا ريب أن من اعتصم بغير الله تعالى ضل سعيه، ومن اتكل على غيره خسر دنياه وآخرته؛ لا عاصم لمن أراد الله هلاكه، ولا حيلة لمن أراد الله فنتته.

والكفرة اليوم قد تبين للناس ما هم عليه من تبديل الدين وعكس الأمور؛ وإيثار الضلال على الهدى؛ وإيثار العناد والطغيان، على العدل والإحسان؛ وإيثار الاستنكاف والاستبكار على الاستسلام للأمر والانقياد للحكم؛ وإيثار الفساد في الأرض على الإصلاح.

فيها، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من حس الزاد، وحسن الاستعداد للمعاد، وحملهم الغي والبغي على أن جعلوا الحق باطلاً؛ والباطل حقاً، الكفر إيماناً، والإيمان كفرًا، والهدى ضلالاً، والضلال هدى، والعدل جوراً، والجور عدلاً، من يهد الله فلا مضل له؛ ومن يضلل فلا هادي له، فقد كشف الله لعباده المؤمنين تلييسهم، وأظهر كيدهم الآن لاخفاء به، قد وضع سبيله، وكذلك الباطل؛ إلا لمن سبقت عليه شقوته من الله، فقد تبين الرشد من الغي؛ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لانفصام لها؛ والله سميع عليم، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً، أعاذنا الله من الزيف والزلل؛ وعصمنا من المحن والفتن، (١).

ب. من رسالة للمامون يوبخ فيها طائفة من جنده :

تبا لهمتكم المنحطة، وشيتمكم الراضية بأدون خطية، أحيان ندبتهم الى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة إيمانكم، نسقتم الأقوال وهي مكذوبة، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة، ولقد آن لكم أن تبدلوا حمل الخرصان الى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات الخيول؟!... وإنما على الغانيات جر الذبول (١).

4. الكتابة الأدبية

أ. الوزير الكاتب؛ أبو جعفر ابن عطية يستعطف الخليفة عبد المومن، من رسالة :
تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وانفت لآدم من السجود، وقلت إن الله تعالى لم يوح في الفلك لنوح، وبريت لقدار ثمود نبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من إثر الرسول فنبذتها، وافترت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظهرت الأحزاب بالقصوى من العدو، وذمت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي، وقلت أن بيعة السقيفة لا توجب أمامه الخليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار الدار وقتل شملها بشعبة، وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر، وغادرت الوجه من الهامة خضيباً، وناولت من قرع سن الحسين قضيباً، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذاً، وبقير الامام المهدي عائذاً، لقد آن لمقاتلي أن تسمع، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أني مقترف، وبالذنب معترف.

برد قلوب هدها الخفقان (٢)،

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا

(1) أمراؤنا الشعراء (35).

(2) النفع (3) 100 - الاستقصا (1) 153.

ب. عبد الواحد المراكشي يصف قصيدة ابن عبدون في رثاء بني المظفر؛ ملوك بطليوس من الأندلس :

... وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع؛ ذو الوزارتين أب محمد عبد المجيد بن عبدون؛ من أهل مدينة يابرة؛ قصيدته الغراء لا بل عقيلته العذراء؛ التي ازرت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلت عن أن تساما، وانفت من أن تضاهي، فقل لها النظر، وكثر اليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديرها باقل وجري، فله هي من عقيلة خدر، قربت بسهولة حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتنعت، وأوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذي رسمته؛ مغل بالتلخيص الذي شرطته، لصحة مبانيها، ورشاقة الفاظها، وجودة معانيها، سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق إليها، وورد شريعة لم يزاحم عليها، فلذلك قل مثلها، لابل عدم، وعز نظيرها، فما توهم ولا علم (3).

ج. أبو الخطاب ابن دحية يرثى بغداد وخلفاءها العباسيين، ويستعرض الشيء الكثير من الدول والأعيان الذين ذهبوا وماتوا، وقد ختم بهذه المراثية النثرية كتابه : النبراس في تاريخ بني العباس، وقال بعد كلام :

... وأخذت من طريق خوزستان؛ الى طريق حلوان، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم المزارع العابد، المعمر : سلمان، وأعملت منها السير والأغذاذ، الى مدينة بغداد، فنظرت اليها معالم وربوعها وأقمت مرة عاما؛ ومرة أسبوعا وأسابعا، وأنا أبدي في ندائهم وأعيد، والتراب قد علا على منازلهم والصعيد، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد، ولسان الحال يجاوبني وينشد :

ياسائل الدار عن أناس	ليس هم نحوها معاد
مرت كما مرت الليالي	أين جديس وأين عاد ؟!

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبير المتعال ؟! أين الأنبياء من ولده والارسال؛ أهل النبوة والرسالة؛ والوحي من الله ذي الجلالة، أين سيدهم محمد الذي فضله عليهم ذو العزة والجلال، وجعلهم شفيعهم مع أمته والناس في شدائد الأهوال، أين القرون الماضية والأجيال، أين التابعة والأقوال، أين ملوك همدان، أين أولو الألبق الفرد أو عمدا، أين

أولو التيجان والأكاليل، أير الصيد والبهايل، بل أين التمازجة وأكبرهم غمروذ ابراهيم الخليل، أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليهم؛ الذين منهم فرعون موسى الكلیم، أين ملك الهدنانية : هدد بن بدد الكردي؛ الذي لم يكن غدره بمفيد له ولا مجدي؛ هو قد أخبر الحق جل جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غصبا، وزعم المؤرخون أنه كان أيضا يملأ القلوب رعبا؛ ويسوم أصحابه قتلا وصلبا، مع الطمع في المال؛ وعدم النظر في عقبي المال، أي الفرص وملوكها، وعدوها، أين دار ابن دارا بن بهمان، أين اسكندر بن فلبش اليوناني الذي غلبه وملك بلاده في ذلك الزمان؛ وأطاعه جميع ملوك الأقاليم، وقدر الله به امتحان الخلق ذلك تقدير العزيز العليم، أين كسرى وقیصر، غلبهما من الموت الأسد القشور، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عمر، لما ظهرت الملة الحنيفية كما ظهرت الشمس وبدا القمر.

أين أولاد جفنة وملوك غسان، أين ممدوح زياد وحسان، أين هرم ابن سنان، أين الملاعب بالسنان، أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان، أين بنو عبد المدان، أين أرياب العواصم، أين قيس بن عاصم، أين العرب العرباء الأمة الفاضلة؛ والجماعة المناضلة، أين أولو البأس والحفاظ، وذو الحمية والاحفاظ؛ حيث الوفاء والعهد، والحباء والرغد، الى علو الهمم والوفاء بالذم، والعطاء بالجزل والضيف والنزل وهبة الافال والبزل، وإنما لاتدين عزا ولا تقاد ولا ترام أنفة ولا تفاد، أين قريش المغرورة في الجاهلية بالحي اللقاح؛ والشعب الرقاح، أين الماضون من ملوك بني أمية؛ ذوو الألسن الذلق والأوجه الطلق والحمية، أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب؛ الذين شرفهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب، ذوو الشرف الشاخب، والفخر الباذخ، والخلافة السنية الرضية، والمملكة العامة المرضية.

بلغتنا والله وفاتهم ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم، قبض ملك الموت أرواحهم قبضا، ولم يترك لهم حراكا ولا نبضا، ومزق الدود لحومهم قددا، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا؛ إلا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم، فإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء وقد تكلمت على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم، وخرجت طرقة في كتابي العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم.

فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه؟! كم وعظمه الدهر وكم وصاه، يخلط الحقيقة بالمحال، والعاطل بالحال، ولا توبة حتى يشيب الغراب، ويبالف الدم التراب، فياهفي لبعد الدار، وانقضاض الجدار، وأنت هامة ليل أو نهار، وقاعد من عمرك على شفا جرف هار، تقرأ العلم وتدعيه؛ ولا تفهمه ولا تعيه، فهو عليك لا لك، فأولى لك ثم أولى لك، أما أن ليل الغي أن تتجلى أحلاكه، ولظمم البغي أن تنتثر أسلاكه؛ وأن يستفظم الجاني حناه، ويأسف

على ما اقترفه وجناه، وأن يلبس عهاده بتأ، ويطلق الدنيا بتأ، ويفر منها فرار الأسد، ويتيقن أنه لا بد من مفارقة الروح الجسد.

نبها الله تعالى من سنات غفلاتنا، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وسلاتنا، وجعل التقوى أحصن عددنا وأوثق آلاتنا، اللهم إليك المآب، وبيدك المتاب، قد واقعنا الخطايا، وركبنا الأحرام رواحل ومطايا، فتب علينا أجمعين، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين الطائعين وصلى الله على سيدنا ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة، وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين، وسلام الله عليه وعليهم الى يوم الدين. (4).

5. الكتابة الاخوانية

أ. رسالة أبي الحسن علي بن مروان الرباطي، وقصتها أنه ذكر لابن الربيب المؤرخ أن عند أبي الحسن نسخة جلييلة من تاريخ عريب، فأرسل اليه في استعارتها فكتب إليه :
يا أخي سدد الله آرائك، وجعل عقلك أمامك لأوزاءك؛ ما يلزمني من كونك مضيعا أن أكون كذلك، والنسخة التي رمت اعارتها هي مؤنسي إذا أوحشني الناس، وكاتم سري إذا خانوني، فما أعيرها إلا بشيء أعلم أنك تتاذى بفقده إذا فقد جزء من النسخة، وأنا الذي أقول :

أنس أخي الفضل كتاب أنيق	أو صاحب يعني بود وثيق
فإن تعره دون رهن به	تخسره أو تخسر وداد الصديق
ورما تخسر هذا وذاك	فاسمع رعاك الله نصيح الشفيق (5)

ب. كتب أبو القاسم عبد الكريم بن عمران القصري الى أبي عبد الله محمد بن علي بن العابد الفاسي، يستقرضه بعض قريضه بعد أن شافهه بذلك، ووعد به فمطل :
... أيها الشاعر المفلق، قولة منصف لا متملق؛ بقيت وللعصر بك اختيال، ولزهر الآداب من خمائل شمائلك انثيال، ومهما ذكر القريض بتصریح أو بتعريض، فالناس فيه على براعتك عيال، اقتضى الود الذي لم نزل نتعاطاه تعاطي الجريال والاعتدال (6).
(...) في مضرة برودها سابعة الأذيال، أن أهر عطف (...)

(4) النفح (3) 61 — 63

(5) النفح (1) 466

(6) ساض بالأصل، وكذا الآتي بعده في هذه الصفحة.

انطباعكم (...). عنصر طباعكم السيال، وأتقاضى منكم ديناً ما أحمل اللوم (...).
 صرف الليالي، فبعثت بهذه الرقعة على ما ترون بها من (...) جذب (...) سجع في مصوح
 هشيم (...) هماراد ولا لتطلع في تصفح مرسومها (...) ضمي فلعب بخواطرها
 (...) لمواطرها رقص الال تشير بمعطل جيدها (...) قلائد النظم ومجيدها إشارة من راقها
 لديه لالاء اللال فكيف بها إذا (...).

فتفتح لها الباب وكرعت في فم ذلك العباب، واشتملت من مصون ذخائره (١). (...).
 اللباب، فهناك تبرد الأوام، وتنشئ بفرادى من فرائد البديع وتوأم، ولا تزال تصرح بالثناء
 عليكم مترنمة كورقاء في فروع الايك مهيمنة، وفي دوح سراوتكم إن شاء الله تجدد الظلال
 وتردد الزلال، وتحل حيث حل من وسنى المقل الخيال، فتصدق عليها واوف المكيال، والله
 يهنيكم ما منحكم من محاسن رايقة وخلال؛ ويقين في آيات السحر الحلال، وسلام الله
 عليكم مانحسرقناع الغيم عن جبين هلال، ولبي المحرومون باهلال، ورحمة الله وبركاته (٧).

ج. وقد أجاب ابن العابد كاتب هذه الرسالة أبا القاسم القصري بما يأتي :

أيها البحر الوهوب لفرادى الجواهر والتوأم، والحبر اللعوب بأطراف الكلام، وقيت عين
 الكمال، وبقيت محروس الجمال؛ تتأنق لمن باراك في ارتياد البراعة؛ وتسبق من جارك بجياد
 البراعة، وتبختر من ملابس السعادة في موشى برودها، وتظفر من أوانس الآمال المنقادة
 بشهي برودها. وصلتنى رقتك التي جلوت في أسطارها الكواعب، وعلوت بأظهارها
 الكواكب، وأظهرت في نظمها ونثرها السحر لمرتاده، وذكرت بمستاف عنبرها الشحر على
 نادي بلاده فقلت هذه غاية لا أبلغ مداها، وآية يتحدى بها من أهداها، فتوقفت عن الاجابة
 توقف الحسير، وانصرفت الى الاذعان. (٨).

الأسير

وانشدت الخاطر وأرجاءه داحب أبعد حول
 فإني لاغتراره إلا أن يساجل عبابك بهذه الصبابة ويعاجل
 يرزق سواهل من عدم الاصابة،
 ومجدك أسبل على هذه الهنات يعدل
 من قابل تلك الحلل المسهومات في أسمال معاوزه، والله يقيكم
 تنظمون عقودها، والمآثر تحبسون برودها، والسلام عليكم ما اعد

(٧) من سوء الحظ أن محي المطر كثيرا من هذه الرسالة وحواسها في نتيحة الذيل التي احتفظت بالرسالتين، وبالرغم من ذلك أثنيتهما على علامتهما لما في الباقي من دلالة على تفوق صاحبيهما في ميدان الكتابة. انظر الاعلام (٣) 102، 103.

أنايب وانسدلت من الظلام جلايب،
وهطلت من سماء بلاغتكم شايب، ورحمة الله وبركاته (9).

6. التوقيعات

وكانت تصدر عن كثير من خلفاء الموحدين وبعض أمرائهم توقيعات عريقة في الاجادة والصنعة؛ على ما يقدم إليهم من القصص أو الشكاوي، لا سيما يعقوب المنصور؛ فقد كان مضرب الأمثال في هذا الباب، وهذه أمثلة من توقيعاتهم :

الآن وقد عصيت من قبل....

كتب أبو جعفر ابن عطية الى عبد المومن بقصيدته الآتية يستعطفه لما نكبه، فوقع عبد المومن على القصيدة : الآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين (10).

ظهر الفساد في البر والبحر

وطلب يعقوب المنصور يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين؛ من تعليم ولد وحفظ أمر، فعرفه برجلين قال في أحدهما : وهو بحر في علمه، وقال في الآخر : وهو بر في دينه، ولما أحضرهما المنصور واختبرهما؛ قصرا بين بديه، وأكذبا الدعوى، فوقع على رقعة القاضي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ظهر الفساد في البر والبحر (11) :

ما لنا ولد فن الجبابة

وأمر المنصور القيم على أخيه عمر؛ وعمه سليمان بقتلهما... ودفنهما، فقتلهما القيم المذكور صبورا ودفنهما، وكتب للمنصور يعلمه بذلك، ويقول : بنيت قبريهما بالكدان والرخام، وجعل يذكر حسنهما، فكتب اليه المنصور : ما لنا ولد فن الجبابة، إنما هما رجلان من المسلمين، فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين (12).

نحن لانريد أن نكون أصحاب الفيل

وأقى قوم الى المنصور - أيضا - بفيل من بلاد السودان هدية؛ فأمر له بصلة ولم يقبله منهم، وقال : نحن لانريد أن نكون أصحاب الفيل (13).

الجواب ما ترى لا ما نسمع...

كتب أذفونش الأسبان ليعقوب المنصور كتابه الشهير يستدعيه فيه للقتال، وبعدما قرأ المنصور هذا الكتاب؛ دعى بولده وولي عهده محمد الناصر، فدفعه اليه وأمره أن يجيب عنه،

(9) الاعلام (3) 103 - 104

(10) نفح (3) 101

(11) شذح رقم الحلل 58. نفح 2. 100

(12) المعجب 183

(13) النفح 100.2

ففرّاه هذا الأخير؛ ثم مزقه وقلبه فمكتب على ظهر قطعة منه : قال الله العظيم : ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، الجواب ما ترى لا ما تسمع وأنشد بيت المتنبي متمثلاً :

ولا كتب إلا المرشفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم (14)
... فاحذر فإنك على شفا جرف هار

وقع أبو الربيع سليمان أمير ناحية سجلماسة الأنف الذكر، الى عامل كثرت الشكاوي منه : قد كثرت فيك الأقوال، وأغضائي عنك رجاء أن تتيقظ فتصلح الحال، وفي مبادرتي الى ظهور الانكار عليك تنبيه الى شر الاختيار، وعدم الاختيار، فاحذر فإنك على شفا جرف هار.

يخرج هذا النازل، ولا يعوض بشيء من المنازل.
شكت امرأة الى المامون بن المنصور جنديا نزل دارها وآذاها، فوقع عل رقعتها : يخرج هذا النازل، ولا يعوض بشيء من المنازل (15).

الخطابة

1. الخطابة السياسية

لما مرض المهدي مرض موته استدعى قبل موته بأيام بسيرة أهل الجماعة وأهل الخمسين، فلما حضروا بين يديه قام - وكان متكئا - فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أنشأ يرتضي عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وإن أحدهم كان لاتأخذه في الله لومة لائم، وذكر من حد عمر... رضي الله عنه ابنه في الخمر، وتصميمه على الحق، في اشباه هذه الفصول، ثم قال :

فانفرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيرا عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيرانا، والعالم متجاهلا مدهانا، فلم ينتفع العلماء بعلمهم؛ بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم، في اشباه هذا القول الى هلم جرا، ثم إن الله سبحانه - وله الحمد - من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم

من بين أهل العصر بحقيقة توحيده، وقبض لكم من الفأكم ضلالا لا تهتدون، وعميا لا تبصرون، لاتعرفون معروفا، ولا تنكرون منكرا، قد فشنت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل، وترهان إنزّه لساني عن النطق بها؛ وأربأ بلفظي عن ذكرها، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم وأضرمت قلوبهم، وما ربك بظلام للعبيد، فجددوا لله - سبحانه - خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يركي به سعيكم، ويتقبل أعمالكم لينشر أمركم، وأحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يدا واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس واسرعوا الى طاعتكم؛ وكثر اتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم، وألا تفعلوا شملكم الذل، وعمكم الصغار؛ والحقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريره وعلايته؛ فرأيناه في ذلك كله ثباتاً في دينه، متبصراً في أمره، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المومن، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبيه أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده (١).

2. الخطابة الاجتماعية

من خطبة لأبي حفص الأغماتي يحذر فيها من بعض أصناف الفلسفة والفلاسفة، ويحض على التمسك بالكتاب والسنة : ... فإياكم والقدماء - الفلاسفة - وما أحدثوا، فإنهم عن عقولهم حدثوا، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة. الأنبياء ونورهم لا الأغبياء وغرورهم، عنهم يتلقى وبهم يدرك السؤل، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، الدين عند الله الاسلام، والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام، ما ضر من وقف عندهما ما جهل بعدهما، خير نبي في خير أمة؛ يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، دلهم من قرب عليه، ويختصر لهم الطريق إليه، فما ضر تلك النفوس الكريمة؛ والقلوب السليمة، والألباب العظيمة؛ ما روي عنها من العلوم القديمة، نقاهم من الأوضار والأدناس، وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس، كتابهم أعظم كتاب أنزل، ونبيهم أكرم نبي أرسل، السيد الامام، لبنة التمام، خير البرية على الاطلاق، بعث ليتمم مكارم الأخلاق، أنزل

الكتاب اليه، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه، هو الشفاء والرحمة، وفيه العلم كله والحكمة. معجز في وصفه، عزيز في وصفه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، آياته باهرة قائمة، ومعجزاته باقية دائمة. إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة، لاتنقضي عجائبه ولا تنتهي غرائب، ماذا أقول وقد بهر العقول، حسبي حسبي : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي.....

رحلة العبدري (خ)

3. الوصية

أ. لما دنت وفاة يعقوب المنصور. جمع بينه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالائتام واليتيمة، فقليل له : وما الأيتام واليتيمة ؟ فقال : الأيتام أهل جزيرة الأندلس وهي اليتيمة، فأيكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الأسوار، وحماية الثغور، وتربية أجنادها، وتوفير رعيته، ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها، ولو مد الله لنا في الخلافة الحياة لم نتوان في جهاد كفارها، حتى نعيدها دار اسلام، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى وحسن نظركم فيها، فانظروا للمسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها (1).

ب. أوصى أبو موسى عيسى بن عمران التسولي الوردميثي ابنه لما كان يدرس بفاس بما يأتي :

... وقد اجتمعت الأمة على أن الراحة لاتنال بالراحة. وأن العلم لاينال براحة الجسم، فادرس ترأس، واحفظ تحفظ، واقرأ ترق، ومهما ركنت الى الدعة، كنت في أهل الضعة، وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، وما رأيتهم مجتمعين على ذمة فاجتنبه، والأعدل الأقصد، أن تسلك السبيل الأوسط.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل (1)

4. الحكمة

ويمكن أن نجد الحكمة المنتشرة على هذا العهد فيما رواه ابن العربي الحاتمي قال : سمعت محمدا بن قاسم بن عبد الرحمان بن عبد الكريم التميمي الفاسي بمدينة فاس العدل -

أظن - في سنة أربع وتسعين وخمسمائة يقول : تكلم أربعة ملوك بأربع كلمات؛ كأنما رميت عن قوس واحدة قال كسرى : أنا على رد ما لم أقل أقوى مني على رد ما قلت، وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتي وإن كنت أملكها، وقال قيصر ملك الروم : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت، وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول (2).

II الشعر

المديح :

□ ابن خبازة يمدح الرسول (ص) ويذكر جملة من مفاخره ومعجزاته :

لنفني في مدح الحبيب المعانيا
ونحشد في ذات الالاه القوافيا
لنصر الهدى والدين تردي الاعاديا
مضاربها تنسي السيوف المواضيا
تلوح فتجلو من سناه الدياجيا
بأضوائها من بات للحق ساريا
سجودي لجبري كل ما قلت ساهيا
تطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا

حقيق علينا أن نجيب المعاليا
ونجمع اشتات الأعارض حسبة
ونقتاد للأشعار كل كتيبة
فالسن أرباب البيان صوارم
لتطلع من أمداح أحمد انجما
كواكب ايمان تنير فيهندي
سهوت بمدح الخلق دهري فهذه
فلا مدح إلا للذي بمدحه

الى أن قال :

على إثر المختار للغار قافيا
يكون لقارون السفاه مؤاخيا
فابصره في الحين مع ذاك ناجيا
بخط أبي بكر يخيف الدواخيا
مدائن كسرى والبلاد الأفاصيا
سواره مما يحرز الدين ساميا

وكم آية خصت سراقه إذ مشى
فشاهد آثارا من الخسف كاد أن
ولما دعا بالهاشمي اجساره
واصحبه منه ظهيرا مكرما
وأخبره أن سوف يفتح أمره
ويجعل في كفيه من بعد فتحها

فأنجزها الفاروق في حين فتحها
 وآيته في خيمتي أم معبد
 وفي الذئب إذا ألقى وأخبر مفصحا
 وفي الضب لما أن دعاه أجابه
 وآيته إذ فارق الجذع فضله
 إن انشقاق البدر أعظم آية
 وفي الجمل الآتي بحضرة صحبه
 وقصته في المحل لما دعا لهم
 وسال به وادي قناة لاجله
 وفي قصة الزوراء للخلق آية
 دعا بناء ليس ينقع ماؤه
 ففاض نير الماء بين بنائه
 وركوته يوم الحديبية التي
 واشباعه الجم الغفير بقبضة
 وأخباره بالشئ من قبل كونه
 فأخبر ذا النورين أن تصيبه
 وأخبر عمارا بأن حياته
 وقال لذي السبطير : اشقى الوري الذي
 يصادف نور الشيب أبيض ناصعا
 ونص على السبط الشهيد بكر بلا
 وفي الحسن الزاكي أبان بأنه
 وقال لقوم : ان آخركم بها
 وقال : إذا ما مات كسرى فما ترى
 وأخبر عن موت النجاشي حينه
 وقال على قرب الحمام لبنته :
 وآيته جلت عن العد كثرة
 وأعظمها الوحي الذي خصه به
 تحدى به أهل البيان بأسرهم
 وجاء به وحيا صيححا يزيده

له عدة بالصدق فيها مباحيا
 وفي الشاة إذ لم تبق تصحب راعيا
 عن المصطفى والذئب مازال عاويا
 وقال له : لبيك لبيك داعيا
 فحن اليه الجذع في الحال شاكيا
 ترد على من كان للدين زاريا
 ليشكو تكليف المشقة راغيا
 فأبصرت سحبا كالجبال هواميا
 ثلاثين يوما لم يزل متواليا
 وذكرى لعبد كان للذكر ناسيا
 لقتله بالري من كان صاديا
 وكان وضوءا للكتيبة كافيا
 أفاض بها الله البنان سواقيا
 من التمر حتى شاهدوا التمر باقيا
 فيأتي على النص الذي قال حاكيا
 على الأمر بلوى تعقب الأجر وافيا
 سيقطعها بالقتل ممن كان باغيا
 سيخضبها من هامة الرأس عاصيا
 فيسقيه صوب الحنف أحمر قانيا
 فقام له الدين الخفيف ناعيا
 سيصلح بين الناس للأجر ناويا
 مماثا سيصلى جاحم الجمر حاميا
 سميا له أخرى الليالي مساميا
 وبينهما من الصوج طافيا
 تموتين بعدي فافرحي بلقائيا
 فما تبلغ الأقوال منها تناهيا
 فبلغ عنه أمرا فيه ناهيا
 فكلهم ألفاه بالعجر وانيا
 مرور الليالي جدة وتعاليا

وحكم القضاء مثبتا فيه نافيا
يرى ماضيا أو ما يرى بعد آنيا
وتم بالغايات منها المباديا
ولا رأى يوما للصحائف تاليا
عليه مدى الأيام منا وغاديا

تضمن أحكام الوجود بأسرها
وأخبر عما كان أو هو كائن
ووافق أخبار النبيين كلهم
وما كتبت يمناه قط صحيفة
عليه سلام الله لازال رائحا

الجزوة 210 و 214. أزهار الرياض (2) 384 و 389 - 392.

□ أبو حفص الأغماتي يمدح الخليفة يوسف بن عبد المومن.

تغزو بها سبعة وهي الأقاليم
عليك من نصرها نص وتقديم
كل الوري حاكم الله محكوم
خواد مالك والمنصور مخدوم
بوعد ربك هيات التناجيم
فيها وثم لها زلفى وتكريم
هل في البسيطة ظلام ومظلوم؟
فأنت فيهن إكمال وتسميم
وحبل من فارق الاجماع مصروم

الله حسبك والسبع الحواميم
سبع المثاني التي لله قمت بها
وأنت بالسور السبع الطوال على
والدهر سبعته وسبعة جعلت
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة
تسمو بنفس على السبع الشداد سمت
أنوار عدلك في الآفاق داعية
أعلى بك الله أعلاما هديت بها
عليك أهل الهدى والحق متفق

ومنها :

ووجه بجمال النور موسوم
وظهرها لعهود الله ملثوم
طابت أرومته والنفس والخيم
غنى وعز وإرشاد وتعليم
تهمي ففى بحرهما هم شرع هيم
لاتشبعان وباغي العلم منهموم
في موضع الحق أقدام وتصميم
وفي الثقافة لذات الزيف تقويم
فحسبها منه ايماء وتسليم

فؤاده بضياء العلم منشرح
وكفه بطنها بالخير منهمر
العلم قيمته؛ والحلم شيمته
لطالبي العلم ما شاءوا بخدمته
سحب العلوم عليهم من سماحته
العين من نظر، والأذن من خبر
يغضي اناة وحلما عالما وله
تشدد فيمن عصى أو خان وطأته
إرادة فوق إدراك العقول لها

كالشمس مادونها في الجو تغيم
بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم
من يسترق سمعها بالشهب مرجوم
آياته وهو عند الله معلوم
حكم الامام فما في الدين تحكيم
في كفه عودهم بالقبض معجوم
جميعها بزماء الرأي مخطوم

حتى إذا ما بدا منها النجاح بدت
انظر خواتمها تفهم مبادئها
والحظ سماء علاها عبوة وكفى
إن الخليفة سر الله ظاهرة
فسلموا واخلعوا الآراء واتبعوا
الشرق والغرب من عرب ومن عجم
والبحر والبر من سهل ومن جبل
ومنها أيضا :

نسيمه نفس العلياء مشموم
يخله من صروف الدهر تحريم
بها الزمان على الأبرار مخزوم
في سلك رأيك ياوسطاه منظوم
هذا كتابك في الأبرار مرقوم
إن الجمال على العلات مرحوم
هبي) ولو جاءهم حجر وكلثوم
«هل ما علمت وما استودعت مكتوم؟»
فاجثو على الركب الأعظام أو قوموا
فيها الحقائق لا لغو وتائم
ر المدح عنه وفيه العذر معلوم
من ذا يقاس به ؟ والمثل معدوم
عليه من ربه بشري وتسليم
ذاك الرحيق بهذا المسلك مختوم

وكل مجد مفاد من علا ملك
للمسلمين أمير المؤمنين حمى
الدهر في أنفه من حكمه برة
العلم والدين والدنيا وساكنها
جزاء سعيك عند الله مذكر
عظفا على حر امداحي وإن عجزت
ما عقلوا لو رأوا هذا (قفا) و(ألا
إذا لقال لراويه عليقة :
ياسامعين أماديج الامام ألا
خذ كأس لفظي دهاقا من مدائحه
ندعو له بدلا من مدحه - لقصو
عز الامام فلا تضرب به مثلا
أعطى الوري فضل ما أعطاه خالقه
صل بالصلاة عليه صدق مدحته

أزهار الرياض (2) 362 - 364. الجذوة 286

□ عبد الواحد المراكشي يمدح الأمير ابراهيم بن يعقوب المنصور :

وعليهم التفويض والتسليم
بكم وأنف الحاسدين رغيه

لكم على هذا الوري التقديم
الله أعلاكم وأعلى أمره

(1) لما قال أبو حفص هذا البيت قام جميع من في المجلس وكان فيه الشاعر أبو العباس الحراوي فاحتاج الى مشايعة
لذلك، وثقل عليه لضخامته، فجعل وهو يحاول القيام بسبب القاضي أنا حفص عمر ويشير الى أنه انتصف منه. الأزهار 2. 364.

لم تفتقده معالم وعلوم
وحى يحاط وأرمل ويتم

وكان إبراهيم إبراهيم
سيرفها الأدفنش وهو ذميم

فيها جذاذ والعلاج جثوم
ويجوب نار الحرب وهي جحيم

أحييم المنصور فهو كأنه
ومحارب ومنابر ومحارب
الى أن يقول في ذكر ولايته اشيلية :

فكأنما حمص جمالا سارة
وأرى طليطلة كهاجر أثرها
ويقول فيها :

يذر الصليب صغيره وكبيره
ويحرق الأعداء فيما أضمرت

المعجب 206 - 207

□ أيم الخطاب ابن دحية في سلطان مصر الملك الكامل من قصيدة :

وشيد للاسلام فيها جوامع
من الملا الأعلى وجبريل وازع
وتغنى بمغناه نفوس نوازع
ففي غير أمر الله يطمع طامع
توالى بها في المشركين وقائع
يكسر ناقوس وتبنى صوامع
يتاح لها أمر من الله قالع

بأسيافه في الأرض هدت كنائس
كتائبه منصوره كتائب
يهم بمقبراه جلال وهمه
فلا تطمعن فيه العدى فل حدهم
ليهنك ياعز الملوك بشائر
تدال بها أرض العدى بالعمى هدى
وتفتح قسطنطينة وتلاعها

عنوان الدراية 165 - 166

□ الأمير عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن يمدح الواعظ ابن رشيد

أصدافها شققها منه أذهان
كان ألفاظه للسحر خزان
جزل يسدده للعقل برهان
تفوق عدا إذا ما عد ديوان
غارت عليه من الأبصار آذان
فأعجب فيينهما في ذاك شأن
طورا يرجي فهذا الوعظ الوان
عليك لازال للرحمان إحسان
حليت عاطلنا (١)

البغدادي لما ورد مراكش من قصيدة :
بحر ولكنه عذب جواهره
ييدي الجلي من الخفي منطق
معنى رقيق ولفظ زانه زجل
تجمعت فيه أشياء محاسنها
إذا بدا صاعدا أدراج منبه
وإن تكلم غار العين من حسد
طورا يعلمنا طورا يخوفنا
يا واعظا بهرت حسنا مواعظه
ذكرت غافلنا علمت جاهلنا

كما يصبوب لوصت (...)
فللدموع إذا سمعت طوفان
دعا الرسول بروح القدس
قادته يا ابن رشيد منك أرسان
وكيف يبصر وجه الرشيد عميان ؟
لاجحد في ذلك إن الجحد كفران
تحروا الصدق حيوا حيث ما كانوا

تصبوب من وعظك الأجفان واكفة
أيدت بالصدق في قول وفي عمل
كما تؤيد في نظم العروض وقد
كم من شرود أخى غي إلى رشد
رأى ولولاك لم تبصر بصيرته
فأنت أنت جمال الدين لا كذب
لله قوم بهذا لقبوك وقد

الاعلام (3) 158 - 159

الافتخار

الأمير عبد الله الموحدي من أبيات :

وترجو نداهم غاديات السحاب
سطور المنايا في نحو المقاب
دم القلب مشكولا بنضح الترائب
أقاموا كتابا من نفوس الكتائب

الست ابن من تخشى الليالي انتقامهم
يخطون بالخطي في حومة الوغى
كتابا بأطراف العوالي ونقشه
وما كنت أدري قبلهم أن معشرا

النفح (2) 103

□ الجراوي مع أحد المتبذلين :

شهدت له الشعراء بالاحسان
لراى له فضلا على الذبياني
تهج بأحدهما بنو حمدان
أدبية مزجته بالعبيدان
صفر اليدين ممزق الأردن
نبتت عليه شقائق النعمان

يا سيدي جاءتك رقعة شاعر
لو أدرك النعمان في أيامه
أو كان يوما في بني حمدان لم
لاكنه قد أدركته حرفة
فغدا مزرة (1)، كل مصفوع القفا
فاذا نظرت الى قفاه حسبتة

زاد المسافر 8

(1) مزرة من الرز، كلمة عربية، معنى الصفع كما في القاموس وغيره وهي من الألفاظ العربية التي كانت شائعة بالأندلس والمغرب، مستعملة في مدلولها العربي حسبما يذكر هذا عن الأندلس مرتضى في شرح القاموس (4) 42 وعن المغرب الوئش يسي في المعيار (2) 398.

الرثاء

ابن خبازة يرثى أبا محمد عبد الله نجل وزير اشبيلية وعظيمها أحمد حفيد، الحافظ أبي

بكر ابن الجد ويعزي والده الوزير :

أم دكة الطود يوم الصعق في الطور
به الخليفة من ايقاع محذور
وباتت الشمس في طي وتكوير
واشبه الليل في أثواب ديجور
فقسم الخلق بين الدجن والنور
أديمه عنبرا من . بعد كافور
يطوي من الأنس فيها كل منشور
إلا لرزء عظيم القدر مشهور
فشاب سلساله إلا صفى بتكدير
من المفاخر ازرت بالجماهير
أبناء فهر بتفريق المقادير
واثر الخطب فيها أي تأثير
أخرى الليالي بطيب الذكر مأثور
أهوت الى الترب من بين لنواوير
معاطس الدهر من طيب وتعطير
صرف الحودث فيها بعد تكسير
ووافق الشهر في فضل وتطهير
للصهر كفتا فامضى العقد للهور
للحزن فاعجب لحزون بمسرور
اطعان قلبي رفقا بالقوارير
قلبي وجفني بمنظوم ومنشور
والجفن بالفيض في تصويب ممطور
يسوقهم سوق حادي العير للعبور
قد شيعته بتهليل وتكبير
عقد وحل وتقديم وتأخير
والابتلاء على قدر المقادير

أرجة الصعق يوم النفح في الصور
أم هدت الأرض إظهار لما زجرت
أم الكواكب في آفاقها انتثرت
ما للنهار تعرى من ثياب سنى
قد كان للصبح طرف زانه بلق
فما الملم الذي غشى بدهمته
أصخ لتسمع من أبنائها نبأ
وانظر فإن بني عدنان ما حشروا
وافى مع العيد لاعادت مضاضته
واعتام دارا لها في السباق جمهرة
رمى قریشا فاصمى سهم حادثه
فخانها الجد في ابن الجدحين قضى
لله والجد ما أبقاه من أثر
نواره عندما رقت بدوحتها
جار الذبول عليها بعد ما ملأت
وسيف بأس لكسر الخطب اغمده
قضى فوافق شهر الصوم مر تحلا
واختاره خاطب الخطب الملم به
فسار للحين مسرورا وخلفنا
نادته انجشة الاحزان يوم حدا
فالوجد والدمع من حزن قد اقتسما
فالقلب بالغيظ في تصعيد مستعر
وسائق الخطب يشدو الحاملين به
وللملائك في آفاقها زجل
اثنى المصاب على شيخ الجزيرة في
ذاق الرزايا على مقدار منصبه

لم يصمه الدهر في الانباء من حنق
 وإنما بادر الاعلان منتقيا
 ان كان فرق شمل الانس عنه فكم
 يا دهر حملته وقع الخطوب ولم
 فلم تجرب عليه جبن ذي خور
 اردت بالصبر منه أن تقيم لنا
 ياعامر الترب كم خلفت من كبد
 لو كنت تحمي وتفدى للعلا ابتدرت
 مشمرين إلى ورد الكربة ما
 بنو الكرام أولوا الرايات قاد بهم
 ساقتهم غيرة الايمان فانتدبوا
 بعزم كل معدي يسايره
 حفوا بباطل لزريق لحقهم
 وإنما الموت حكم ليس يدخله
 يقضي على الاسد في الآجام حاكمه
 ويقنص الشهب في شم الجبال كما
 اعظم بآياته من آية عظمت
 فسلم الامر فالأقدار قد نفذت
 ما فقر ذي الفقر عن جهل ولا كسل
 ولا الحمام بنقص في المزاج ولا
 فكم صحيح قضى فيها بلا مرض
 ومنها :

ولا بلاه لتذنيب وتجدير
 يظنونها صون تعظيم وتكبير
 أولاه للجمع من جمع وتوفير
 تزل تنفذ عنه كل مأمور
 في النائبات ولا احجام مذعور
 برهان تقديمه للخير والخير
 ومن فؤاد بتأوي الحزن معمور
 آلفها بالغنى أو بالقناطر
 نالوا العلاء الذي نالوا بتقصير
 إلى (١) كل منصور
 لنصرة الدين كالاسد المهاضر
 فتح الجزيرة بين السرح والكور
 فأبطلوه بأبطال مغاوير
 نسخ الخلق وعدل دون تجوير
 وفي الكناس على البيض اليعافير
 في الوكر يغتام افراخ العصافير
 فليس تدرك في حال بتفسير
 وكل شيء بتقدير وتدير
 ولا غنى المرء عن كيس وتشمير
 ضعف الطبيعة عن اسباب تدير
 وكم مريض اقامته لتعمير

والسن الحال تغني كل نحرير
 نتائج الغدر منها كل مغرور
 وكما بها للردى من جمع تكسير
 منازل العمر عدا دون تكسير
 والحرف ما بين محو ومبتور

فاسمع بقلبك فالاشياء ناطقة
 مقدمات الليالي طالما فضحت
 جمع السلامة معدوم الوجود بها
 وعامل الموت قد احصى مهندسه
 والأرض طرس وهذا الخلق احرفه

طورا ويعجم منها كل سطور
اعرابه بين مرفوع ومجرور
كحالتها بين ممدود ومقصور
اياتهم كل موزون ومكسور
ايدي المقادير من ابرام تقدير
آمال نفسك عن دنياك من زور
كادت فكادت ترينا كل محذور
قد بات بالبشر وضاح الاساير
له المنايا جناحا غير مكسور
تلمهم بقصر على الاغيار مقصور
تعب باطلال نعى ذات تغيير
والانس والجن في قهر وتسخير
يظوي البلاد بها طي الطوامير
منهم وافناهم ريب الدهارير
فاصبر وسلم له تسليم مأجور
سامي معاليك انواع المحاذير

والدهر يعرب بالافعال يظهرها
وانما الخلق اسماء تعاورها
وكلهم في مدى الاعمار تحسبهم
والموت مثل عروضي يقطع من
يامن يؤمل أن يبقى وقد نفضت
هذي الحقيقة لا ما حدثتك به
لا تخدعنك الليالي ان فتنها
كم بادرت بعبوس الخطب من ملك
سائل بكسرى ملك الفرس هل تركت
وانزل بصنعاء في قصر ابن ذي يزن
واعبر على حيرة النعمان معتبرا
واين من كان سجن الجن في يده
واين مخترق الدنيا بعزمته
بادوا فليس بها باد يحس به
هو القضاء أبا بكر اصبت به
والله يحرس دنياك ويدفع عن

جذوة الاقتباس 215 - 218، أزهار الرياض (2) 380 - 382.

الاستطعاف والاعتذار

□ الوزير أبو جعفر ابن عطية يستعطف عبد المومن :

(أ)

بان الغزاء لفرط البث والحزن
وعطفة منكم انجى من السفن
ورحمة منكم أوقى من الجنن
بمن اجارته رحماك من الجنن
بنصره لم يخف بطشا من الزمن
والطرف ينهض بعد الركض في سنن
من دون من عليهم لا ولا ثمن
كلتا الحياتين من نفس ومن بدن

عطفنا علينا أمير المومنين فقد
قد اغرقتنا ذنوب كلها لجج
وصادفتنا سهام كلها غرض
هيهات للخطب أن تسطوا حوادثه
من جاء عندكم يسعى على ثقة
فالثوب يطهر عند الغسل من درن
انتم بذلتم حياة الخلق كلهم
ونحن من بعض من احيت مكارمكم

وصية كفراخ الورق من صغر
قد أوجدتهم اياد منك سابقة

لم يالفوا النوح في فرع لافنن
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

(ب)

انوح على نفسي أم انتظر الصفحا
فها أنا في ليل من السخط حائر

فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحي
ولا اهتدي حتى ارى للرضا صبحا

القرطاس 124 : النفح (3) 100 - 101.

□ الأمير الحسن بن عبد المومن : وقد عتب عليه أخوه الخليفة يوسف فكتب إليه بهذه

الآيات :

إذا نحن اذنبنا فغفوك نطلب
حنانيك قد عودتنا منك رحمة

وان نحن قصرنا فما عنك مهرب
وانت لنا في كل حالاتنا الاب

ولم نتعود قبل حالة ذلة
ولا حذرا مما يقول المحجب

القرطاس 172

□ أبو حفص السلمي : لما اهديت إليه جارية لم يعرف أنه كان قد تسرى أمها فصرفها

الى مهديها، وكتب معها يعتذر :

يا مهدي الرشا الذي الحاظه
ريحانة كل المنى في شمها

تركت فؤادي نصب تلك الاسهم
لولا المهيمن واجتناب المحرم

ما عن قلبي صرفت إليك وانما
ان الغزالة قد علمنا قبلها

سر المهاة وليتنا لم نعلم
ما شفني فشدا ولم يتكلم

يا ويح عنترة الذي قد شفه
يا شاة ما قنص لمن حلت له

حرمت علي ولستها لم تحرم

الصلة 130. شرح المقصورة (1) 100 - 101

الهجاء والذم

□ الجراوي (أ) فيمن اسمه خلوف :

زعمو يا خلوف انك خلف
ولهذا دعوك بالجمع فردا

صدقوا : فيك من خلوف الوف
جمع خلف بلا خلاف خلوف

زاد المسافر 8

(ب) في لبي حفص الاغماتي :

نبغت عمرة بنت ابن عمر
هذه فلتعجبوا أم العبر

قولة تترك في الصخر أثر
أو كليتي هل تجارين الذكر؟!

قل لها عني إذا لاقيتها
هتك كالخنساء في اشعارها
أزهار الرياض (2) 364 - 365

(ج) في قبيلته بني غفجوم :

لا تنزلن على بني غفجوم
إلا مجاورة الصدى لليوم
لكنهم نشروا لواء اللوم
إلا الصياح بدعوة المظلوم
للسائل العافي ولا المحروم

يابن السبيل اذا نزلت بتادلا
ارض اغار بها العدو فلن ترى
قوم طورا ذكر السماحة بينهم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم
لاحظ في اموالهم ونوالهم

ازهار الرياض (2) 365 النفع (1) 754،

□ ابن حبوس يذم الشعر من قصيدة :

ت وملتيت الوقوعا
قرم زدت هجوعا
لم تقنصت الخضوعا؟
فترديت صريعا
شعبا واصطدت جوعا
منك ما غال صريعا
منع الطير الوقوعا
رة والطفل الرضيعا
م سيوفنا ودروعنا
زاد المسافر 4

يا غراب الشعر لاطر
وإذا استيقظ شهرهم
هبك لاتقنص عزا
رمت ان ترقى صريعا
ربما اصطاد بغاث
ولقد غال حبيبا
بسط الايدي حتى
واستباح الشيخ دي الكب
واعد الشعر للعل

العتب والتأنيب :

□ الجراوي : استجده شاعر بقصيدة فوق له في اسفلها :

يامن يجدي لمن يجدي اسرفت والله في التعدي
أنا اجدي الانام طرا وانت تبغي النوال عندي
زاد المسافر 8

□ الشاعر السلوي وقد قصد - صحة جماعة من أهل سلا - الوزير عبد السلام

ابن محمد الكومي، فقعد عن برهم ولم يقض حاجتهم فكتب إليه :

ونيل ماملو عجزا وتقصيرا
وقد اعدله كمدا وتقصيرا

يامن راي خيبة الراجين تكرمه
مهلا فإنك خام في يد زمن
الوصف :

□ ابن حمس يصف الرياض :

ترك القضيب قوامه وتميلا
ولو انها حرمت عليه تأولا
زاد المسافر 2

ان رنت الريح الخفوق ازائها
شرب النشاط سلافة حتى انثنى

□ السيد أبو الربيع (أ) يصف الروض ايضا :

ووجه الصباح لنا يسفر
بدا فيه واكتم العنبر
وللصبح في اثره عسكر
من الروض كالحرب أو أكثر
ناظر من غصن ذا اسم
لآل من الماء أو جوهر
نجد ولكنـــــــــــــــــه اخضر
يفت من السكر أو ينثر
ولاكنه للحيا يشكر
امرؤنا الشعراء 30.

تنبه ترى ديمة تمطر
وكالنند لاكن كافوره
على حين فل الدجى مدبر
وبين الغمام ومطوره
اذا التاج من برق ذا ابيض
وللقطر في جيد غض النقا
وفي عاتق الروض من سيفه
كان الرذاذ على زهره
وماعبق الروض طيبا لنا

(ب) في وصف فسقيه :

بالماء سيلا خفيفا دمه يكف
لاح الرقب فلا تجري ولا تقف
المصدر 31

انظر إليها وقد سالت جوانبها
كأنها مقلتي يوم الوداع وقد

□ ابن عبدوس (أ) في مصباح :

بهم الرجا من سنه نحو
ومن حولها الدهن ماء يجول
وإن ظمئت أخذت في الذبول
الجدوة 178.

تلاؤا مصباحنا فاكستى
كأن الذبالــــــــــــــــة نواة
إذا رويت نعمت نظرة

(ب) يصف نهرا قذفت فيه مصايح :

فيه مصايح ذا دت عنه احلاكا

انظر إلى النهر يحكي الافق إذ قذفت

على قواعد قد حاكيز افلاكا
المصدر 178.

كأنه الطل في انسيابه
مقتحمت على حبابه
وتلقط الحب من حبابه
المصدر 78

جالت به سرج شبتها شهبا

(ج) في نهر وردته عصابة طير :
اما ترى النهر في انصبابه
قد انتحت ظمء طير
تنقع من مائه أواما

(د) يصف فاس ومكناس ويفاضل بينهما :

وبأنها في زينا حسناء
والاطيان هواؤها والماء
الروض الهتون.

ان تفتخر فاس بما في طيها
يكفيك من مكناسة ارجاؤها

□ ابن العابد الفاسي (أ) في حمام :

وانتشرت الوية الفجر
قسم بين البدر والحر
كأنما ادرج في قبر
نقيضة للأنجم الزهر
جنح الدجى غارت ولم تسر
صبحا لقد حاز اسنى العمر

وحين ضم الليل اذباله
قمنا لبیت حرج مظلم
تحال من ضمته احشاؤه
تلوح في اقباؤه انجم
تبدو نهرا فإذا ما بدا
يا طيبه ليلا ويا حسنه

الاعلام (3) 105 - 106.

(ب) في اخوين وسم واحد ب :

اخوان ظبي احور وحوار
ومن الجمال يظهر ذا آثار

في ابني محمد ان نظرت عجائب
فمن الجمال بوجه ذاك مآثر

المصدر (3) 104.

الفزل

□ السيد أبو الربيع :

قفوا ساعة حتى ازور ركاها
واشكو إليها إن اطالت غياها
والا فحسبي أن رايت قباها
على غير بين ما علمت انسكاها

أقول لركب ادلجوا بسحيرة
واملاً عيني من محاسن وجهها
فإن هي جادت بالوصال وانعمت
وقفت بها اشكو واسكب عيرة

وحطت عن البدر المهر نقابها
ويشكو النوى من قد اثار غرابها
وعاقت على بعد المزار خطابها
لعل ارى يوما إلي كتابها
فقد زاد ما بي أن رايت جوابها

فأومت برخص من بنان مخصب
وقالت : ايكي البين من قد اراده
ولما تناءت دارها وتباعدت
كتبت إليها اشتكي ألم النوى
وكنت ارى أن الجواب تعلل
النفح (2) 102 — أمراؤنا الشعراء 29.

□ أبو حفص الاغماتي :

وفي العر لا في بني الاصفر
ومسرحها في النقا الاعفر
ويسلب فيها فؤاد الجري
غيارى متى بغمت تزار
به الشبل ناش مع الجؤذر
غرام به الحى لم يشمر
فطرف غر وفؤاد بري

مها القفر لادمية الممر
بنفسى يعافير تلك الخيام
ملاعب يصبو إليها الحكيم
وفيه الظبأ بنات الاسود
فخيس الهزبر كناس الغزال
تخالسها نظرا تحته
وباللحظ يقدح زند الهوى
الازهار (2) 366.

□ ابن خبازة :

وتارجت منه الصبا والشمال
صبا بانفاس الصبا يتعلل
لو كان يدنو منه ذاك المنزل
شوقا على جمر الغضى يتمللمل
سيف الكمي إذا يكر ويحمل
بنميمة والرعد لاح يعذل
وحى القلوب هو الحمى والمنزل
بقلوبنا يوم الفراق تحملوا
وردوا ومن جفن المعنى منهل
للوصل أو ذكروا العهود فأقبلوا
أفلاكها منها الالهة تكممل
زهرا فراق مقلد مقبول ومقبل
حلت بقلبي وهو نار شتعل

هب النسيم ضحى ففاح المندل
اسرى عليلا فاستحث إلى الصبا
يهوى الغدير وساكنيه ومن له
ما شام برقا بالغضا إلا انبرى
والبرق في نقع السحائب سيفه
فكان ذاك البرق واش قد مشى
وأنا الفداء لجيرة نزلوا الحمى
وتحملوا يوم الفراق وإنما
قبسوا ومن قلب المعذب موقد
ما ضرهم إذا أعرضوا لو عرضوا
حملوا الجمال على الجمال كأنما
أبدت لنا حللى الطلى وتبسمت
ومن العجائب أن أهيم بجنة

ومن التناصف أن يعزل المرسل
الأزهار (2) 383

وبهان مرسل ناظري في حبها

□ ابن المحلى السبتي :

فقلبي أرباب المحبة باح
لقيت فإني ما علي جناح
سخيا ولا أن الدموع شحاح
فتلك العهود السالفات صحاح
على ثقة أن السماح رياح
فمالي إذا لم العنول جماح
وقد حص لي ريش وقص حناح
صباحي ومساء والمساء صباح
لدي وآفاق الوجوه (1)
ولكن أيام الملاح ملاح
والسن حالي بالفغرام فصاح
أناشدكم أن لايتاح سراح
فحظي منه زفرة وصياح
فمالي عنه كيف كان براح
الاعلام (3) 150 - 151

أبوح بما ألقاه فهو مباح
إذا باح من قلبي ولم يلق بعض ما
أحبابنا لا تحسبوا الصبر بعدم
وأن فئت إجسادنا وقلوبنا
سمحت لكم بالنفس كي أريح الرضا
فؤادي منقاد إليكم مذلل
وهل من سبيل أن أطير إليكم
تغير وقتي بعدم فكأنما
وأوحشه فالكل في الاذن ناخ
وما تفضل الأيام أخرى بذاتها
خرست عن الشكوى إليكم مهابة
ويا عجبا أني أسير وأنني
إذا هز أرباب السماع تواجد
فها أنا عند الباب منوا أو أطرودوا

ابن العابد الفاسي في شارب رصف :

وليانع الأغصان مائس عطفه
أجراه قصد إهانتني من أنفه
الاعلام (3) 105

ومنهف للبدر حسن جبينه
لما أراق دمي ولاح بخده

الاجتماع

□ ابن حبوس (أ) الوصاب والأمثال وذم الزمان :

فرب عسر أتاح اليسيرا
وطورا جنوبا وطورا دبور
من النص والرمل جيشا مغيرا
واطف السموم به وأهجيرا

رد الطرف حتى توافي النخيرا
وأرسل قلوبك طورا شمالا
وشن على غازيات البلاد
وفر ماء وجهك حتى تجم

ح لا عذر عندك لئى لا تطيرا
حيث تضاهي المهيش الكسيرا
وأما الإقامة تدعى نزورا
وذو العزم يرضع ثديا درورا
أكنى أديبا وأسمى فقيرا
يعرق عظمى عرقا ميرا
أخاف الرحيل واشنا المسيرا
يحط الجياد ويسمى الحميرا

وأقضم ما ضغيك حصا
مع الساعات أو غصصا
يراوغ منهم قنصا
لقتيت وبسادر الفرصا
حتى تنعت الحوصا
وهز لآخرين عصا
ضر أو احرص كما حرصا
ظفرت به لما خلاصا
يقاسمك الثنا حصا
بخال الشحمة البرصا
مضاع عندهما حرصا
صيرججوه قنصا
ون الاعلاق ما رخصا
يقول مغالط نقصا
أن وافيتيه قلصا
شى وازممر إذا رقصا
ش مثلي يشرح الققصا
زاد المسافر 4 - 5

وطرحين أنت قوي الجنا
ولا تفعلن وأنت السليم
فام الترحل تدعى وليدا
وذو العجز يرضع ثديا حدودا
يعز على النبل إني غدوت
وإني ثبت لكف الزمان
وما ذاك أني هيابة
ولكن بحكم زمان عدا
(ب) مذهبه في معاملة الناس :

أعد لنا بحبك عصا
وشعشع للورى شرقا
وكن وردا خبعتشة
وعامل بالخدعة من
وغمض عينك النجلا
وهز لمعشر سيفا
وكاشر من يدب لك الـ
ولا تعتب عليه قلو
وسؤظنا بكل أخ
ولا تحفل بامعة
ولا تحرص قرب فتى
وحرص الطائر الواقع
لقد رخص الغلأ واهـ
وقد ذهب الوفاء فلا
فلا تلزم مكان الظل
وغن لذا الزمان إذا انتـ
ومن شهد الخطوب وعا

(ج) موقفه إزاء الفلاسفة، من قصيدة :

تدع ولم يحفل بضلة ملحد
ء الغيب قلت : قدي من الدعوى قد

الدين دين الله لم يعبا بمب
قالوا : بنور العقل يدرك ما ورا

بالشرع يدرك شيء غائب
من لم يحيط علما بغاية نفسه
ولقد نرى الفلك المحيط وعلم ما
سعد المجرة بالكواكب دائم
من خص بالسفلي جرم البدر أم
ما شاق الطود المنيف وأن علا
وجواز عكس الأمر في ذا واضح
ذاك اختصاص ليس يعلم كنهه
خفض عليك أبا فلان أنها
سالت علينا للشكوك جداول
وتبعقت بالكفر فينا السن
أعدونا في رنا أحبابنا
كشف القناع فلا هواد تريننا
ستناهم منا الغداة قوارع
وتصوب فيهم سحبنا بصواعق
من كان يضربهم بسيف واحد
ولعمر غيرهم وتلك الية
قالوا : الفلاسف قلت : تلك عصابة
خدعت بالفاظ تروق لطافة
ذو علمهم لو كان شاهد نعلمنا
لعراه من حسن هنالك لؤلؤ
أسفي ولو أني نصرت عليهم
يلغى كتاب الله بين ظهورهم
يا قاتل الله الجهالة انها

والعقل ينكر كل ما لم يشهد
وهي القرية من له بالأبعد
في ضمنه أعين على المترصد
في زعمهم وقسيمها لم يسعد
من خص بالعلوي جرم الفر قد
إلا بمنزلة الحضيض ألا وهـ
للعقل فازدد من يقينك ترشد
من ليس يوصف بالبقاء السرمـ
نوب تطالعا تروح وتعتد
بعد اليقين بها ولما تنفـد
لاتفقد التضليل من لم تفقد
جرحوا القلوب واقبلوا في العود
حتى يغادرهم وراء المسقـد
إن لم تغلهم غولها فكان قد
تلك التي جلبت منية أريد
فأنــــا أضرب (1)
أن الحمام لجمعهم بالمرصد
جاءت من الدعــــو
فاذا طلبت حقيقة لم توجد
ورأى جهابذة الكلام
وأقام بين تحير وتبلد
للثمت في المهجات كل مهند
وجميع مسنون النبي محمد
ورق لاغصان الشباب الأملد

اعلام (3) 28 - 29

□ بو حفص الأغماتي (أ) يبين مزية الشرع على العقل :

فاصغ إليه أيها السامع
بينهما برهانه قاطع

هذا كلام للهدى جامع
الشرع للعقل هدى من يصل

كالشمس للعين سنى طالع
من ضل والعقل هو التابع
إلا بما سن له الشارع
لكل علم نوره ساطع
ومنهج الررس وما الرابع
اجمع وهو المعجز الساطع
هاد الى الله ولأشافع
والشرع وال ماله خالع
رحلة العبدري (خ)

ليس لمن تصرع انتعاش
اسهمه بالردى تراش
بمن له حولها انخياش
علمت ما يجهل الفراش
عنها ولايستقر جاش
يشدد من شربه العطاش
طاشت بالباهم فطاشوا
ماتوا بها عفة فعاشوا
وواردوها هم العطاش
ونحن من حيرة خراش
به لاعمارنا انكمناش
ونحن من تحتها خشاش
الأزهار (2) 360 - 361

الشرع للعقل بلا مريسة
الشرع متبوع به يهتدي
لايهتدي العاقل في قصده
هذا كتاب الله يهدي الوري
معرفة الله وآياته
والعلم والحكمة في طيه
وهو من الله فما فوقه
تحت لواء الشرع يمضي الحجا

(ب) يذكر هذه الحياة الدنيا :

يا راكضا في طلاب دنيا
تنسج يا عرضة لرام
تحش نار أهوى لظاهها
اعذر منك الفراش إلا
تطلبها لاتنام عين
من لك بالري من شراب
دعها فطلاها رعاع
واظما لتروى وكن كقوم
لم يردوها فهم رواء
كان آمالنا ظباء
لاتامنن بها انبساطا
كان آجالنا صقور

السياسة :

□ ابن حبوس (أ) في فتح بجاية :

من القوم بالغرب تصغى إلى
جروا والمنايا الى غاية
بأيديهم النار مشبوبة
يقودهم ملك أروع

حديثهم إذن المشرق
فلم يسبقوها ولم تسبق
فمهما تصب باطلا تحرق
تفرد بالسود المطلق

تخيروه الله من آدم
الى الناصرية سرننا معا
الى برزة في ذرى أرعن
يعوذون منا بمولاهم
واكسبه حوفه خفة
فما زال منحذرا يقي
ولما تفتتنا ولم نحقق
تجل عن السور والانساق
ومولاهم عاد بالزورق
فلو خاض في البحر لم يغرق
زاد المسافر (6)

(ب) يذم الوزير ابن عطية لما نكب :

اندلسي ليس من بربر
لا تسلم البربر ما شئت
بختلس الملك من البربر
بالمملك القيسي من مفخر
المصدر 3 - 4

الجراري (أ) يذكر انتصار المنصور في غزوة الارك وهزيمة الادفونش وجنده :

هو الفتح اعنى وصفه النظم والنثر
وانجد في الدنيا وغار حديثه
تميز بالاحجال والغرر التي
لقد أورد الادفونش شيعته الردى
حكى فعل ابليس باصحابه الالى
اطارته شدة تولى امامها
رأى الموت للابطال حويله ينتقي
وقد أوردته الموت طعنة نائر
ولم يبق من افنى الزمان حماته
الوف غدت ماهولة بهم الفلا
ودارت رحي الهيجا عليهم فاصبحوا
يطير باشلاء لهم كل قشعهم
فكيف رأى المغتر عقبى اغتراره
وكان يرى اقطار اندلس له
فسلاه يوم الاربعاء عن المنى
إذا عزلته الروم كانت نجاته
فتعسا له مادام حيا ولامنى
ييمن الامام الصالح المصلح الرضى
وعمت جميع المسلمين به البشرى
فراقت به حسنا وطابت به نشرا
اقل سناها يهر الشمس والبدر
وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
تبرا منهم حين اوردهم بدر
شريدا وانسته التعاظم والكفرا
فطار إلى اقصى مصارعه ذعرا
وان لم يفارق من شقاوته العمرا
وجرعه من فقد انصاره صبرا
وامست خلاء منهم دورهم قفرا
هشما طحيننا في مهب الصبا قدرا
فما شئت من نسر غدا بطنه قفرا
وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
منى يرم لم يحطىء باسهم قطرا
فما يرتجى مما تملكه شبرا
وقد احرق جمر المنايا به عذرا
وكسرا له مادام حيا ولاجبرا
نضى سيفه الاسلام فاستأصل الكفرا

فلا زال بالنصر الالاهي يقتضي بشائر يحصى قبل احصائها القطرا
رسالة المغرب : س (1) ع (8)

(ب) فيمن عصى دعوة المهدي من قصيدة :

وهل هو الأمر اناس تهاقوا فراشا على اسيافكم وهي نيران
عصوا دعوة المهدي وهي سفينة فأغرقهم طغيانهم وهو طوفان
زاد المسافر (8).

(ج) من قصيدة في الصابوني الذي صلب :

اني لاعجب من حساسة عقله نسي الذنوب فخانه الغفران
وغدا على مشروعة رهن الردى الجو قبر والهوى اكفــــــــان
المصدر (7).

□ ابن خبازة (أ) في المهدي ابن تومرت لما تبرأ منه المامون بن المنصور..

وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالا
فاسر حسوا في ارتغاء يبتغي بمحاله نسجا على منوالها
الازهار (2) 379 - 380 الجنوة 210.

(ب) حكى أن المعتصم يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدى ضرب بظاهر مراكش

قبة حمراء، فبادر إليها العرب والنصارى من عسكر عمه المامون فقطعوا أطناها فسقطت،
فقال في ذلك ابن خبازة من قصيدة :

انظر إلى القبة الحمراء ساقطة لما رأت مضر الحمراء عن كعب
من كان أولى بها ان كنت ذا بصر . العجم أو معدن العليا من العرب
وانما سجدت لما سمت وغدت فوق الضلال وكانت أعجب العجب
الازهار (2) 383.

نهضة الفنون

إن الفنون ارتقت في كثير من مظاهرها على هذا العصر . وقطعت باحات من التقدم والازدهار، في دائرة طابع الدولة الثلاثي من العظمة والدين والتجديد، كما سنرى هذا في تضاعيف الحديث عن أصناف الفنون في هذا العصر؛ تصرّحاً في بعضها؛ أو تلويحاً في أخرى. وفيما يلي شرح لتلك المظاهر الفنية التي تتجلى بوفرة في شيء غير قليل من الصناعات.

الصناعات

نهض مجموع الصناعات لهذا العهد؛ وبالأخص إبان عظمة الدولة نهضة فائقة، وذلك بما توافر حينئذ من أصنافها؛ وبما كانت عليه من الجودة والاتقان، وبما ظهرت به من الابداع والاختراع.

ومن مظاهر وفرة الصناعات إذ ذاك : ما ذكره ابن أبي زرع في الأنيس 26 والجزنائي في زهرة الآس 33 : إنه كان بفاس وحدها لعهد المنصور وابنه الناصر من معامل الصناعات ما يأتي : داران للسكة . واحدة في كل عدوة. و3064 معملاً لنسج الثياب، و47 من ديار عمل الصابون، و86 من ديار الدبغ، و116 داراً للصباغة، و12 معملاً لتسييك الحديد والنحاس، و11 مصنعا للزجاج، و135 من كوش الجير، و400 حجر لعمل الكاغد، و188 داراً لعمل الفخار، وكانت هذه خارج مدينة فاس.

وبما يدل أيضاً على وفرة الصناعات حينئذ؛ ما نقله في النفح (1) 286 : إنه لما أراد عبد المومن تفخيم مصحف عثمان الآتي الذكر؛ حشر له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقريبة - وفي نقل الاستقصا (1) 151 وسائر بلاد المغرب والأندلس - فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة، ومهرة كل طائفة من المهندسين، والصواغين،

والنظاميين، والحلائين، والنقاشين، والمرصعين، والنجارين، والزواقين، والرسامين، والمجلدين، وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب الى الحدق في صناعة إلا أحضر. وإن هذا الكلام - زيادة على أنه يدل على وفرة الصناعات والصناعات بالمغرب حينئذ - يفيد أيضا اهتمام الموحدين بجلب الصناعة للمغرب من خارجه، ليتعاونوا مع الصناعات المغاربة في بعض المناسبات، وانظر النفح (2) 124، ومن الشواهد على اتقان الصناعات الاتقان الفائق، ما كانت عليه ابنتهم - مثلا - من التفنن العظيم، والتائق الفائق، حسبما يعلم من مشاهدة ما بقي قائما منها، ووصف ما حفظ وصفه، وقد قال بعض : إن اتقان البناء من شواهد التقدم والرقي، ولا ينتج الابنية الفخمة الشاحمة إلا حضارة ضخمة، وشعوب لها شأن في فنون الهندسة والعمارة، ونزعة الى حسن الذوق.

أما إبداعات الموحدين وابتكاراتهم الميكانيكية فسنفرد لها فصلا على حدة فيما بعد. وبعد هذه المقدمة أفصل الحديث عما وقعت عليه من مظاهر النهضة لبعض صنوف الصناعة بما فيها من الفرع الصوتي؛ فالفرع الرسمي بأقسامه الثلاثة : فن العمارة، وفن التصوير، وفن النقش، ثم أذيل على الموضوع بملحقات له.

صناعة الموسيقى

لقد أثر أثرا كبيرا في ضيق نطاق نهضة الموسيقى لهذا العهد النشأة التي نشأت عليها دولة الموحدين : من التدين والتقشف ومقاومة المناكر، بما فيها من آلات اللهو التي كان المهدي ابن تومرت يأمر أصحابه بتكسيروها؛ مثل ما فعل في فاس؛ كما أشار لهذا في القرطاس 109، وبسطه في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت 65.

كان ذلك عاملا قويا في تحديد النهضة الموسيقية في هذه الدولة، وبالأخص في أوائلها، ومن أبرز الشواهد على هذا أن الجيش الموحيدي نفسه لم تكن به موسيقى تذكر؛ حسبما يشير لهذا قول ابن طفيل - كما في المعجب 157 - لو نفقت عليهم الموسيقى لانفقتها عندهم، فإن نفاق الموسيقى لو كان لظهر قبل كل شيء في جيشهم الذي لم يكن به منها سوى طبول كثيرة، أما الطرب الشعبي فكان يعتمد على أغاني مغربية؛ ينشدها بعض المغنين في المحافل والأسواق، مثل أبي علي حسن بن عمر الفهري السبتي الذي كان قولا يحترف بهذه المهنة (1). كما كان هناك نوع آخر من الطرب عرفه المغرب في هذا العهد - فيما يظهر - وهو غناء العرب الداخلين للمغرب حينئذ بأشعارهم وملاحهم، يضاف الى هذا وذاك : نوعان

منحطان من الطرب كان يقوم بإحدهما السودان كما في الروض الهتون، وبالأخر البربر؛ كما في رسالة الشقندي (2).

على أنه بعد أوائل هذا العصر أخذ الطرب يشيع ويترقى، وصار يستمع له بعض الأمراء، مثل أبي الحسن علي بن عمر بن عبد المومن (3)، كذلك وجد الطرب الأندلسي حينئذ بالمغرب، حسبما يؤخذ من رسالة الشقندي (4)، وبخاصة نوع من الغناء يعرف بالسماع شاع أواخر هذا العهد، وتولع به حتى الخلفاء؛ مثل المرتضى من أواخرهم (5)، وكذا ورد ذكر السماع في شعر ابن المحلى السبتي لما قال :

إذا هز أرباب السماع تواجد فحظي منه زفرة وصياح (6)

أدوات الموسيقى

تلخص مما ذكر أن المغرب حينئذ عرف أصنافا من الموسيقى ما بين مغربية وأندلسية وغيرها، ونذكر هنا من أدوات تلك الأصناف ما وقفت عليه، ومن المؤسف أن المصدر المهم عن هذه الآلات - وهو رسالة الشقندي بنقل النفح (2) 151 - كتبت عن هذا الموضوع كعادتها على أساس الخط من قيمة المغرب؛ فلم تذكر من أدوات الطرب بالمغرب سوى الدف، وافوال واليرا وابو قرون...

أما آلات الموسيقى الأندلسية؛ فذكرت منها ما يأتي : الخيال، والكريج، والعود، والروطة، والرباب، والقانون، والمونس، والكثيرة، والفنار، والزلامي، والشغرة، والنورة - وفيها مزماران : الواحد غليظ الصوت، والآخر رقيقه، والبوق.

ولا شك أن أشهر أدوات الطرب حينئذ هي الطبول الموحدية - إن صح أن فيها طرب - وكانت في نهاية الكبر، وغاية الضخامة، يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز، ويحس بقلبه يكاد يتصدع من شدة دويها، وكان يصحب جيشهم منها عدد كثير وفي غزوة عبد المومن لافريقية، كانت في جنده أكثر من مائتي طبل؛ حسبما ثبت كل هذا في المعجب 150، وكان بين هذه الطبول واحد هو أكبرها، إذا ضرب فيه ثلاث ضربات علم أنه

(2) النفح 151.2

(3) النفح 102.2

(4) النفح 151.2

(5) الاستقصا 1 208

(6) الاعلام 151.3

طبل الرحيل، يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع، في يوم لاريج فيه، وكان مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعا، منشأ من خشب أخضر اللون مذهب. (الحلل 115).

صناعة الغراسة والفلاحة

اهتم الموحدون بالغراسات اهتماما فائقا، وعاصمتهم مراكش كانت متفوقة في هذا الميدان الى حد بعيد . يقول عنها صاحب الاستبصار : إنها أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعنابا وفواكه وجميع الثمرات... وأكثر شجرها الزيتون، وسلف عن مستشفى مراكش أن يعقوب أمر أن يغرس به من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات.

ومن البساتين الشهيرة بمراكش

1. بستان المسرة انشاه عبد المومن خارج مراكش، وغرس به كل فاكهة تشتهيها الأنفس، طوله ثلاثة أميال، وعرضه قريب منه. الحلل 109 - 110.
2. بستان الصالحة، من إنشاء عبد المومن كذلك، وهو بستان كبير من جملة بساتين : (احدال)، بمراكش، ولا زال مشهورا بهذا الاسم الى الآن، قاله في الاستقصا (1) 108.

3. البحائر؛ التي انشاهها يوسف، وهي تفوق في غراساتها ما غرسه عبد المومن، حسبما يؤخذ من الاستبصار.

4. البحيرة التي أحدثها المنصور بمراكش الجديدة؛ طولها اثنا عشر ميلا. فيها العمائر الحللية؛ والمصانع العظيمة، والبركة التي لم يعمل مثلها... طولها ثلاثمائة وثمانون باعا، على جانب الواحد : أربعمائة شجرة من النارج؛ وبين كل الاثنتين إما ليمونة، وإما ريحانة. (مسالك الأنصار (خ)).

ولم تكن بساتين مراكش هي الوحيدة بالمغرب؛ فقد كانت بساتين أخرى غرسها الموحدون أول أيامهم : بمكناس وفاس والمقرمدة وتازا. وأكثر غراساتها الزيتون. كما في الروض الهتون التي وصف بحيرتي فاس ومكناس : بأن بهما - زيادة على الزيتون - أنواعا كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية والورد؛ مما كان له غلة جلييلة، وفيها أرض بيضاء للخصر والكتان تكثرى بمال جسيم، وكما وصف هذا المصدر ما ذكر؛ كذلك وصف مؤلف مسائل الأبصار بركة بحيرة فاس نقلا عن ابن منقذ في رسالته المغربية؛ الذي قال : زرعت كل جانب منها مائتين وستة عشر ذراعا بالمرفق، ويكون دور البركة ثمانمائة ذراع وأربعة وستون ذراعا، كذلك كانت قرية (بليونش) بضاحية سبتة ذات جنات وبساتين وأشجار، وفواكه كثيرة، وقصب سكر. واترجع، يتجر به الى ما جاور سبتة من البلاد؛ لكثرة الفواكه بها (نزهة المشتاق).

وفيه من بعض هذه النصوص أن الغرسة لهذا العهد كانت على جانب من الجودة الناشئة عن النظام، وهذا يؤيده الأثمان الباهظة التي كانت تباع بها منتوجات تلك الغراسات، وقد استعرضت ما وقفت عليه من تلك الأثمان في مقدمات الكتاب ص 18 فليرجع إليه. وهذا ولا أدع الحديث عن الغرسة دون أشير إلى أن الفلاحة هي الأخرى كانت متقدمة حينئذ، وعولجت بالأساليب الفنية.

صناعة البناء

أكثر الموحدون من تشييد البنايات الضخمة؛ ورفع الهياكل الخالدة، الأمر الذي جعل الأستاذ سديو يحكم عليهم بأن حب تشييد المباني اظهر صفاتهم (1)، وكان لهم ذوق خاص في البناء؛ تجلى فيما بقي من آثارهم متوجا بالعجائب الثلاثة : منائر اشبيلية، والكتبيين، وحسان. ويعقوب منهم كان مهتما بالبناء إلى حد كبير، وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده، أو مدينة يعمرها (2).

ولقد كانت مبانيهم مطبوعة بطابع ناطق بعظمتها، وهذه بعض شهادات المؤرخين في هذا الصدد : يقول في النفح (1) 97 'عن منارة جامع اشبيلية، «إنه ليس في بلاد الاسلام أعظم منها». ويقرر صالح بن شريف في كتابه روض الأنس (خ) «أن مسجد مراكش - الذي ابتناه المنصور - ليس بعد جامع قرطبة مثله»، ويلاحظ بعض الباحثين أن مسجد اشبيلية - الذي أسسه المنصور - فاق مسجد قرطبة في اتساع الأرجاء وفخامة البنيان، ويشهد صاحب الاستبصار (خ) «أن قيسارية مراكش الجديدة ليس في بلاد الاسلام أعظم منها» ويثبت المراكشي في المعجب 176 «أن مسجد حسان ليس في مساجد المغرب أكبر منه» كما يذكر ص 240 أن القصور التي بناها الموحدون بمراكش لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك، ويصف ابن سعيد مراكش ويقول إنها بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدو وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة إنما ظهرت في مدة بني عبد المومن، (النفح (2) 124).

كما يقرر ابن سعيد نفسه أنه لم يشاهد في البلاد التي طاف بها - وهي المغرب وأفريقية وما جاورها، والبلاد المصرية والشامية - لم ير ما يشبه الأندلس في حسن المباني والتشييد والتصنيع، إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المومن... المصدر (1) 97.

كذلك كانت بعض مبانيهم تحمل مسحة التجديد؛ فقد بنيت مدينة الرباط على هيئة الاسكندرية في الاتساع، وحسن التقسيم واتقان البنيان وتحصينه وتحسينه، (وفيات الأعيان (2)

(1) تاريخ العرب العام 343

(2) المعجم 194

(431). وشيدت صومعتها العالية على هيئة منار الاسكندرية، (المعجب 176)، كما كان مسجد هذه المدينة يشبه مسجد مدينة (بلخ) في عظم سواريه، (رحلة ابن بطوطة (1) 246).

كذلك كانوا يراعون في مبانيهم تخليد ذكريات غزوات الاسلام العظيمة، فقد بنى يعقوب بعد انتصار المسلمين في وقعة الأرك منارة اشبيلية، (الاستقصا (1) 180). وانظر تاريخ العرب العام 343، كما بنى بعد استنقاذ مدينة شلب حصن الفرج العظيم على النهر الكبير : نهر اشبيلية، وشيد به قصورا وقبابا، ولما رجع من غزوة الأرك جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم؛ واذن فدخل عليه الناس على طبقاتهم ومراتبهم وأنشده الشعراء، (المعجب 193 - 194).

المصانع والمباني

وبعدما تقدم أذكر أن مباني الموحدين كثرت بصفة خاصة بمراكش درجة أولى وبالرباط درجة بعدها، كما شيدوا مباني عديدة في كثير من مدن المغرب وبعض جهات الأندلس، وفوق ما ذكر من ذلك - في هذا المبحث وقبله - أذكر هنا طائفة من مصانعهم ومبانيهم في غير مدينة بالمغرب والأندلس، ثم أعقب على ذلك بنص فريد منقول من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (خ)، وهو يصف بعض مصانع مراكش القديمة؛ كما يصور تصويرا دقيقا مدينة «تا مراكش»، أو مراكش الجديدة التي ابتناها يعقوب المنصور، وهذه طائفة من مصانعهم ومبانيهم.

□ قصر أبي بكر ابن زهر بمراكش
شيده للمذكور يعقوب المنصور، واراد أن يجعله صورة طبق قصر ابن زهر باشبيلية؛ فارسل المهندسين الى هذه المدينة وأمرهم أن يختاطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته؛ ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة... أنظر النفع (1) 439 - 440. وهذه القصة تضرب رقما قياسيا كبيرا لرقى صناعة البناء حينئذ، وتشهد بما كان للمغرب إذ ذاك من التقدم في هذا الميدان.

□ قصر السيد أبي الربيع بمراكش

وهو قصر جليل؛ حسبما يؤخذ من قطعة للسيد أبي الربيع يصف بها هذا القصر أو الدار، وها هو نصها :

رعاك الله يا دار الكرام وجادك بالحيا صوب الغمام

ومتع فيك أعواما طويلا
أرى مراكش الحسنة تزهى
كان الأرض شخص وهي وجه
تقول لأهلها لما أتوها
أقيموا آمين بخير حال
على نعم وخير مستدام
- وحق لها - على دار السلام
وقت بوجهها وضع ابتسام
قدمتم فادخلوني بالسلام
فعندي للعلی أسنى مقام
ديوان السيد أبي الربيع (خ)

□ قبة السيد أبي حفص بمراكش

أنشد فيها السيد أبو الربيع الأبيات التالية :

أيا قبة العلياء حل بك السعد
وقرت بما نهوا فيك عيوننا
وحالفه فيك السرور مخيما
ولا زال والأقدار تخدم أمره
وحل بك التوفيق واليمن والمجد
وانجز في لقيا أبي حفص الوعد
إذا ما أتى وفد قفا اثره وفد
على وفقه والدهر في ملكه عبد
ديوان السيد أبي الربيع المذكور.

□ قصور الرباط

ورد عنها في الاستبصار ما معناه : أن في الرباط من المباني الملكية الرفيعة، والمنارة البديعة، وقباب الجلوس للسادات، والقصور العلياء - ما جعلها من منتزهات الدنيا.
مقدمة الفتح 124

□ دار العادل بالرباط

من آثار السلطان أبي عبد الله محمد المعروف بالعادل بن يعقوب المنصور. وأنشد في حقها صاحب الجذوة :

يا عاذلي دع عنك عدل العادل
وإذا ذكرت عشية لمحاسن
واخلع عذارك في الحبيب الواصل
فاذكر عشايانا بدار العادل

المصدر 124 - 125

□ قصر أبي العباس بن القاسم بسلا

من أخبار هذا القصر : أنه لما شاده صاحبه وصفته الشعراء، وهنته به، ودعت له، وكان بالحضرة حينئذ الوزير أبو عامر بن الحمارة ولم يكن أعد شيئا؛ ففكر قليلا ثم قال :
أما أوحده الناس قد شيدت واحدة
فحل فيها حلول الشمس في الجمل

فما كدارك في الدنيا لذي أمل ولا كدارك في الاخرى لذي عمل
النفح (2) 351

□ قصر عبد المومن بالأندلس

أنشد فيه أبو جعفر بن سعيد؛ وقد مر به بعدما رحل عنه عبد المومن :
قصر الخليفة لا أخليت من كرم وإن خلوت من الأعداد والعدد
جزنا عليه فلم تنقص مهابته والغيل يخلو وتبقى هيئة الأسد
المصدر (2) 300

□ قصر السيد أبي يحيى بن يوسف خارج قرطبة

وهو مبني على متن النهر الأعظم، تحمله أقواس، وقيل للسيد أبي يحيى : كيف تأنقت
في بنيان هذا القصر مع انخفافك عن أهل قرطبة ؟! فقال علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله
ولا له عندهم قدر؛ لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المرآونية؛ فأحببت أن يبقى لي في بلادهم
أثر أذكر به على رغمهم، وأنشد لنفسه في هذا القصر ناهض بن ادريس شاعر وادي آش :
الا حبذا القصر الذي ارتفعت به على الماء من تحت الحواجب أقواس
هو المصنع الأعلى الذي أنف الثرى ورفعه عن لثمه المجد والناس
فاركب متن النهر عزا ورفعة وفي موضع الأقدام لا يوجد الرأس
فلا زال معمور الجناح وبابه يغص وحلت أفقه الدهر أعراس
المصدر (1) 218

□ قصر السيد بغرناطة

وهو قصر كبير، بناه السيد اسحاق بن يوسف على نهر شنيل خارج غرناطة، وبني
أمامه الرابطة.

الحال 126.

□ قصر السيد بمالقة

بناه المامون بن المنصور حين كان واليا على مالقة؛ وبرأيه واختراعه كان جميع بنائه.
المصدر 124

□ حمام وخان جليلان بإحدى جهات الأندلس

بانيهما السيد أبو زكرياء، وكانا آيتين في براعة الصنعة والتأنق، والاتقان؛ حسبا يؤخذ

مما تصفهما به الأبيات التالية :

قد كنت أحسب أن الحسن مسكنه
حتى بصرت به والسحر يقسمه
تنافسا في بديع الصنع فارتقيا
فذايته بتاج فوق مفرقه
وذا عليه رواق لم يلم به
ماء يسح بمصقول الرخام كما
حدا به السير فانقادت إبايته
إن أكثر الناس مما أبصروا واعجبا
فلست أعجب من بنى تكنفه
من قصيدة في مدح السيد أبي زكرياء، صاحبها الأديب عيسى ابن زنون الأندلسي. تـ

627. وقد وردت في ترجمته من كتاب : بعض

أخبار فقهاء مالقة وأدبائها (خ).

□ مباني الموحدين بمراكش القديمة والجديدة

وهكذا كلام المسالك عن مصانع مراكش القديمة، وخطط المدينة الجديدة؛ قال في صدد الحديث عن مراكش : وحكى لي غير واحد عن سعة دورها، وضخامة عمائرها، وما فيها من قصور بني عبد المومن وأولادهم وأجنادهم؛ حتى يقال إنه إذا كان الرجل في صدر الدار ونادى رفيقه وهو في صدرها الآخر بأعلى صوته لا يكاد يسمعه لاتساعها، ودورها سبعة أميال، وهي بسيطة يمتد فيها البصر، بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين... ثم إن يوسف العشري وهو ابن يعقوب * ابن عبد المومن؛ كبرها وفخمها، ومصرها وضخمها، وجلب إليها المياه والغراس، ومنارة جامعها المعروف بالكتبيين طولها مائة وعشرة أذرع من الحجر...

قال ابن سعيد : وحضرة مراكش مما سكنت بها وعرفت ظاهرا وباطنا، ولا أرى العبارة تفي بما تحتوي عليه، ويكفي أن كل (قصر) من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والأصطبلات والمياه وغير ذلك، حتى يغلق الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج؛ ولا يخرج له أمر إلى خارج داره، ولا يشتري شيئا من السوق للمأكّل، ولا يقري أولاده في مكتب خارج، ويخرج هو من بابه راكبا؛ لاتقع عليه العين راجلا، وفيها قصور عظيمة، وبها

* هناك بيت بعد هذا لاتستقيم قراءته.

سقى قلم. والمراد يعقوب بن يوسف.

قصر الخلافة، بناه المنصور يعقوب بن يوسف ابن عبد المومن؛ وهو وسط المدينة (التي) اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه، وتعرف بتامراكش. قال ابن سعيد : ولا أدري كيف أصل الى غاية في الوصف؛ أصف به ترتيب هذه المدينة المحدثه، فإنها من عجائب همات السلاطين؛ ذات أسوار ضخمة وأبواب عالية؛ وبها قصر الخلافة؛ وبه ديار عظيمة، منها دار البلور، ودار الريحان ودار (...) * وكل دار منها لا يخلو من المياه، والبساتين العجيبة، والمناظر المرتفعة المشرفة على بسائط مراكش، ولها ثلاثة أبواب مختصة بها : باب البستان، وكان لا يراه إلا خواص بني عبد المومن يفضي الى مكان يعرف بالبحيرة... والباب الثاني باب الوادي وهو في داخل مدينة مراكش، ينصرف منه إلى ما يحتاج اليه بالمدينة، والباب الثالث باب الرياض، أمامه رحبة عظيمة تحمل طراد الخيل... وبها قبة الخلافة الى جانب الباب؛ كان يخرج اليها خليفهم بكرة كل نهار؛ ويكون بها الخدمة، وفي رحبة القصر دار الكرامة والأضياف، وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب... وفيها دار مخصوصة للوزارة المحلاة بوزير الجند، وتفضي هذه الرحبة الى باب السادة، وهو يفضي الى خارج مراكش، كان مخصوصا ببني عبد المومن؛ إليه ينتهون على خيلهم، وعليه سلسلة أمامها ينزلون، وهناك مقابر أكابرهم وجنائز الأعيان، وفي نهاية حسن المباني والغراس، وفي الرحبة باب السقائف، وهو باب كبير يخرج منه الى سقائف أهل الجماعة، وهي ذرية العشرة أصحاب مهديهم ابن تومرت، وسقائف أهل خمسين، وسقائف الطلبة؛ وهم أهل العلم والقرآن، وسقائف الحفاظ، وهم المقدمون على الأعمال لحفظها، وسقائف أهل الدار، وهم غلمان الخلافة، ثم يخرج من هذه الرحبة الى سقائف القبائل وأعيان الغز والجموع، ثم يفضي الى رحبة عظيمة فيها سقائف خنفسة وجدميوة، والقبائل : هسكورة، وصنهاجة، وهؤلاء هم قبائل الموحدين، وبها موضع صاحب الشرطة وبازائها الجامع المبني في تامراكشت؛ على صحنه شباك من الصفر الأندلسي، وهو في غاية الزخرفة والالتقان، ولا ييرح المنبر مستورا في بيت المقصورة، وهو والمقصورة مستوران الى يوم الجمعة، قرب الصلاة ترفع ستورهما، والنهر الذي جلبه المنصور يخرق قصوره، ثم يمر على السقائف والمرجات المقدمة الذكر، ثم يحدق بالجامع ثم يمر بين الأسواق قدر ميل الى أن يخرج على باب الصالحة من أبواب مراكش، وفي هذه الرحبة المقدمة الذكر باب الكحل، كان من دخول الموحدين، وأمامه فضاء عظيم يسع وقوف الخلائق وتصرفها، وباب لا يدخل هذا النوع إلا منه، لاحتمال أن مدخل المدينة حجر، وبها الصهريج الكبير، والصهريج في مصطلح أهل المغرب البركة، وهي بركة عظيمة عليها سور

وباب، يصب فيها النهر الثاني الداخل إلى مراكش، وفيها توزع بقياس معلوم على قصور الناس، ثم ينحدر بقية الماء في نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق وما بعد، وفيها بركة تصب فيها المياه، وفي هذه الرحبة باب الشريعة أمام مصلى العيدين، وبينهما فسيح عظيم به سوق الخيل، وللسلطان به قصر مطل عليه، ويليه باب نفيس يخرج منه إلى بلد نفيس؛ المفضلة المياه والأعنان، وقدامه بركة اقنا؛ يتعلم فيها الصبيان العوم، ويليه باب مخزن السلطان كان به، وإلى جانبه قصر أمة العزيز، وقصر ابن جامع؛ لا يعلم كم غرم على كل واحد منهما؛ حتى قال ابن سعيد في المغرب عن قصر ابن جامع وهو أحد وزراء بني عبد المومن: إنه كان في داره ساحة يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل الخشب وتتطاعن، يلي ذلك باب مسوفة يفضي إلى المقابر، وباب دكالة، وهو مفض إلى المنزهات، ويليه باب الرخاء، ويليه باب تاغورت، ويليه باب فاس؛ وهو مفض إلى فضاء يفضي إلى نهر كبير، لا يخاض إلا في زمان الصيف، وعليه بستانين جليلة ومنتزهات، ويليه باب الدباغين، ويليه باب ستان، ويليه أيلان، ويليه باب أغمات، وأمامه منازل المجذومين لأنها وغم بالحضرة، ويليه باب الصالحة، وخارجه مقابر ويساتين...

إلى هنا انتهت هذه النبذة الفريدة التي تنشر كاملة لأول مرة (فيما أظن)، وهي مليئة بالشواهد عما كان لبعض عظماء الموحدين، وبخاصة يعسوبهم يعقوب المنصور؛ من الاهتمام بالبنيان والتشييد.

وبعد هذا نختم هذا البحث ببيان أن مواد البناء لهذا العهد كانت في منتهى الجودة، وكانت تعتمد في كثير من المباني على الأحجار الصلبة، كما كانوا يستعملون الطابية في مبان أخرى، حسبما هو مشاهد فيما بقي ماثلا من آثارهم حتى الآن.

صناعة جر المياه

وهي من ملحقات البناء، وقد بلغت إذ ذاك شأوا بعيدا؛ يدل لهذا ما جروا من مياه على مسافات بعيدة، وما شيدوا لها من هياكل عالية، من أجل أننا لم نقف على تفاصيل اعتنائهم بهذه الصناعة؛ نذكر جملة مما وقفت عليه من آثارهم الناشئة عن براعتهم في هذا الشأن، حتى يمكن أن نستدل بتلك الآثار على ازدهار هذه الصناعة.

وأول ما يذكر من آثارهم في هذا الصدد أن يعقوب المنصور هو الذي قام ببناء الأقواس المملوكة عليها قنوات المياه الموجودة بالمدن المغربية، بناها بأمره المسيحيون الذين أتى بهم قواد المنصور عند غزوه لجزيرة الأندلس، (مقدمة الفتح 129).

ومن آثارهم الأخرى في هذا الميدان جرهم المياه لكثير من المدن والجهات بالمغرب، ومن المدن التي جهزوها بالماء مدينة الرباط؛ جلبه لها - عام 545 - الخليفة عبد المومن، وأتى به من عين غبولة في مادة ممدودة من نحو عشرين ميلا، (المصدر 42 و 139 - 140)، ومدينة مكناس أجروا لها الماء من عين تاكنا على بعد ستة أميال، (الروض الممتون) واسفي ادخل لها الماء يعقوب المنصور، ورفع اليه ساقية عظيمة غاية في الاتقان من الوادي الأخضر بتساوت، ولا تزال تحفظ باسم الساقية اليعقوبية، ويوجد أثرها في بلاد الرحامنة الى أرض دكالة الحمراء (أنظر اسفي : وما إليه 172). وسلا جره عبد المومن لها من الرباط بواسطة قنطرة مائية، (تاريخ الأندلس (2) 254) ومراكش أجروا فيها مياه كثيرة لم تكن فيها قبلهم، (المعجب 240).

كذلك جلب الناصر الماء للجامع الأندلس من عين خارج باب الحديد من فاس، (الأنيس 45 - 46 : زهرة الآس 82) وجلب عبد المومن لبستانه الذي غرسه خارج مراكش الماء من أغمات، واستبط عيونا كثيرة، (الحلل 110).

ذلك ما أمكن ذكره من آثار الموحدين في هذه الناحية، ومن غير شك أنهم ما تأتى لهم ذلك إلا بواسطة صناع ماهرين، الأمر الذي يدل على مدى رقي هذه الصناعة حينئذ.

صناعة السفن

وهذه الصناعة كانت مزدهرة بالمغرب إلى حد كبير، بل إن المغرب حينئذ تفوق فيها تفوقا بزاوية من قبله ومن بعده، جاء في المقدمة 222 أنه «لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة، وملكوا العدوتين، أقاموا خطة الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد... وانتهت أساطيل المسلمين حينئذ في الكثرة والاستجادة، إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه»، ومن الشواهد الأخرى على ذلك التفوق - ولكن على المعاصرين فقط - أن صلاح الدين الأيوبي ملك الشرق العظيم؛ تقدم لملك المغرب يعقوب، يطلب منه أن يمدد بالأساطيل، (المصدر 222). وأدفونس الاسبان، هو الآخر كتب للمنصور يطلب منه أن يرسل اليه أساطيله، ليحبر عليها الى المغرب، (القرطاس 140. الاستقصا (1) 176)، كذلك أثبت يوسف أشباخ (2) 247 : إنه في عهد يوسف نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة، وأحرز أمير البحر الموحيدي كثيرا من ضروب التفوق، كما أنه في حصار المهديّة - التي كان يحتلها النورمانيون أصحاب صقلية - قدم من صقلية أسطول نصراني من مائتي سفينة؛ ليحاول انقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحيدي عبد الله بن ميمون، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية، ونشبت بين المسلمين

والنصارى معركة بحرية كبيرة، لم تغن فيها براعة النورمانيين في البحر شيئا، وأحرز المسلمون عليهم نصرا باهرا، وأحرقوا وأغرقوا جانبا من سفنهم، واستولوا على جانب آخر منها، هذا كله كلام يوسف أشباخ.

مصانع السفن

وكانت لتلك الأساطيل مصانع متوافرة، منبثة على طوال مراسي المملكة الموحدية، وكانت الواحدة من هذه المصانع تعرف بدار الصناعة، وقد امتدت من مرسى سلا الى المهدية، وطنجة، وسبتة، وبادس، والريف، الى بلاد تونس، ووهران، وهنن - عنابة - الى الأندلس، وكانت هذه المصانع تنشأها الأساطيل البحرية. والمراكب الجهادية، (القرطاس 127. الاستقصا (2) 11)، كما كانت هناك مصانع أخرى لإنشاء سفن النقل، ومنها دار الصناعة. بقصر مصمودة، التي كانت تنشأها المراكب والحراريق : التي يسافر عليها الى بلاد الأندلس، (نزعة المشتاق). ومنها أيضا دار الصناعة بالموضع المعروف بالحبالات من أرض بني عبودة؛ التي بقرب ملتقى وادي فاس كان الغالب عليها أن تنشأها القوارب والسفن الصغار، (انظر : زهرة الآس 27 والجنوة 23).

أنواع القطع البحرية

وهذا ما وقفت عليه من أنواع القطع البحرية لهذا العهد : 1. المراكب. 2. الشواني. 3. الطرائد. 4. المسطحات. 5. الحراريق. 6. الزوارق (1).

صناعة السلاح

وكما كان المغرب متفوقا في صناعة السفن، كذلك كان متقدما جدا في صناعة السلاح، وكانت معاملته توجد في جميع جهات الموحدين، وكانت هذه المعامل تنتج يوميا مقدارا عظيما من السلاح؛ حسبما يؤخذ كل هذا مما جاء في القرطاس 127 وغيره : أن عبد المومن أمر سنة 557 بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منه كل يوم عشرة قناطير أو نحوها، فجمع من ذلك ما لا يحصى (2).

صناعة الورق

وهذه الصناعة هي الأخرى بلغت شأوا كبيرا لهذا العهد، وكانت لها معامل كثيرة تنتج ورقا جيدا، ومن مدن المغرب التي كانت مشتهرة في هذا الشأن مدينة سبتة، ومدينة

(1) أنظر القرطاس 140 ونزعة المشتاق.

(2) أنظر تاريخ الأندلس 248.2.

فاس، وهذه الثانية بلغت فيها معامل انتاج الورق حسبا مر بنا : (400)، معمل، وذلك أيام المنصور والناصر 580 - 610 = 1184 - 1213.

ومما يستحب أن يلفت اليه النظر، إنه بينما كان المغرب في هذا التاريخ بلغت فيه نهضة صناعة الورق ذلك المبلغ؛ كانت بلاد أوربا كلها - باستثناء اسبانيا - ليس بها إذ ذاك ولا معمل واحد للورق، وإنما دخلت إليها هذه الصناعة بعد هذا الوقت بزمان، وللتدليل على هذا ننقل كلاما نفيسا للعلامة (اسكورو) في كتابه الكاغد وفيه يقول :

«وأنشيء أول معمل باسبانيا (الأندلس) في مدينة شاطبة حواي سنة 1150 م في ولاية بلنسية، ويرجع عهده بايطاليا الى أواخر القرن الثالث عشر، وفي سنة 1390 أنشيء معمل للكاغد بمدينة نورمبيرغ بالمانيا، وأما بفرنسا فأقدم المصانع قد أنشيء في منتصف القرن الرابع عشر باحواز (طروي) وضواحي (ايسون)، أما بانكلترا فأول المصانع يرجع الى عهد الملكة : اليزابيط سنة 1588 م» (3).

ولا شك أنه بمقابل هذه الأرقام مع الأرقام الأخرى التي كانت فيها معامل فاس وحدها تبلغ (400) يظهر مدى تفوق المغرب؛ وسبقه لكل بلاد أوربا النصرانية في هذه الناحية.

صناعة الصفر

وكانت لها إذ ذاك نهضة فائقة، ومما بقي لنا من آثارها قطعتان نفستان؛ ناطقتان بما وصلت اليه هذه الصناعة إذ ذاك من الرقي، وأول هاتين القطعتين الثريا الكبرى بجامع القرويين العامر. قال في زهرة الآس 59 : وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن : أما الثانية فهي الثريا الكبرى بجامع مكناس الأعظم؛ كتب في دائرتها السفلى صنعت هذه الثريا بمدينة فاس جرسها الله، لجامع مكناس شرفه الله بذكره، وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة، عام أربعة وستائة.

صناعة السكة

وكان بها لهذا العهد اعتناء كبير، وكانت عاصمتها فاس؛ التي كان فيها بمدينتي القرويين والأندلس دارا سكة، فنقلها الناصر الى دار أعدها بقصبة فاس. حين بناها سنة ستائة، واعد بها مودعا للأموال المندفعة بها ولطوايع سكاتها، واتقن ثقافتها على كل حال وأتمه، وغالب ما كان يسبك بها الذهب، وأما الدراهم فكانت ترد من جميع الآفاق مختلفة السكة والوزن، وكان الناس يتعاملون بكل سكة منها، (الدوحة المشتبكة (خ)).

(3) من مقال نشره الأستاذ عثمان الكعاك في مجلة الباحث التونسية عدد 25 من السلسلة الجديدة.

ولأجل أن نلم ببعض المعلومات عن مسكوكات هذه الصناعة التي كانت تقوم على أساس الدينار والدرهم؛ اذكر أن ما وقفت عليه مما ورد عرضا في مصادر متعددة؛ يفيد أن دار السكة لم تكن تضرب عملة متحدة الوزن طوال هذا العصر، وإنما ضربت عملات اختلفت بتعاقب غير واحد من ملوك الموحدين، ومن هذه العمل عملة عبد المومن التي كانت تنسب اليه فيقال : الدينار المومني والدرهم المومني؛ أخذا مما سنقبتسه عن رحلة ابن جبير والمعجب. ومنها عملة يوسف بن عبد المومن. قال ابن خلكان في ترجمته (2) 491 : والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه، كما أن يعقوب المنصور أدخل تغييرات على نظام العملة؛ فأحدث دينارا ضخما؛ أشار له ابن عذاري في الجزء المخطوط من تاريخه الذي نقلت عنه بواسطة في بحث الآداب كذلك ضرب دراهم جديدة ذكرها في المعجب 190، وكانت العملة الموحدية الى أيام المامون مربعة الشكل؛ حسبما أمر بها المهدي ابن تومرت؛ الذي سن تريبع السكة لأول مرة كما في الدوحة المشتبكة.

وعندي - ضمن مجموعة النقود القديمة - قطعتان مختلفتا الوزن من هذه العملة الموحدية المربعة، وقد كتب داخل دائرتيها المربعة من أحد الوجهين في ثلاثة سطور : لا إله إلا الله، الأمر كله لله، لا قوة إلا بالله. وفي الوجه الآخر في سطور ثلاثة أيضا : الله ربنا، محمد رسولنا، المهدي امامنا، ولما غير المامون تقاليد الموحدين وعاداتهم كان منها ابطال تريبع السكة؛ وجعلها مدورة ومحو اسم المهدي منها؛ كما بالقرطاس 161 وغيره.

وبعد هذا هل يمكننا أن نعرف مقادير هذه العمل الموحدية ونقف على وزنها ؟ إنني لم أعثر على نص يكشف عن هذه الناحية كشفا تاما، وكل ما وقفت عليه عبارات وردت عفوا تفيد - في الجملة - مقدار عملتي عبد المومن ويعقوب، وهذا ما وقفت عليه على ما في بعضه من الاجمال : يذكر في المعجب 148 عن الدرهم المومني انه نصف درهم النصاب، ويؤخذ من رحلة ابن جبير صفحات 12، 19، 25 : ان الدينار المومني يعادل نصف الدينار المصري في ذلك التاريخ : أيام صلاح الدين الايوبي.

ويثبت ابن القطان في مقالته : انه وجد زنة الدينار اليعقوبي - نسبة الى يعقوب المنصور - من حب الشعير الوسط (أربعا وثمانين حبة)، وان الدينار يزن ثلاثة دراهم مربعة موحدة، الدوحة المشتبكة (خ).

ذلك ما استطعت أن أقف عليه الآن مما يتعلق بمسكوكات دار السكة ومقاديرها، أثبتة هنا كنواة لدراسة هذا الموضوع دراسة ضافية.

صناعة استغلال المناجم

وكانت لهم اعتناء بهذه الصناعة، ويوسف منهم عنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة في افريقية والأندلس، (تاريخ الأندلس (2) 254)، وظهر أن هذا ناشيء عن معرفتهم إذ ذاك لبعض المعادن، ويدل لهذا أيضا بل ويدل على وفرة المناجم حينئذ : إن المراكشي ذكر آخر المعجب 232، 241، 242 عددا مما كان معروفا إذ ذاك بالمغرب والأندلس من معادن الذهب، والفضة، والحديد، والكبريت، والرصاص، والزئبق، وغير ذلك بكل دقة وضبط.

ومن غير شك أن الموحدين اكتشفوا بدورهم لأول مرة بعض تلك المعادن، ومن هذا معدن حصن (زكندر) بالسوس، فإنه اكتشف على عهدهم حسبا يؤخذ هذا من قول الأنيس 135 لدى حديثه عن هذا المعدن : إنه ظهر هناك، ومن الأدلة الأخرى على اعتنائهم باستغلال المعادن ما جاء في الأنيس 135 حوادث عام 578 أنه في هذه السنة خرج يوسف من مراكش لبناء حصن (زكندر)، وبناء على المعدن الذي ظهر هناك، فانظر بنيان يوسف على هذا المعدن وخروجه بنفسه من عاصمته للوقوف على بنائه.

ويذكر المراكشي في المعجب 241 عن هذا المعدن أنه كان يسكن بحصنه العمال الذين يشتغلون في استخراج خيراته... وإنه لم يزل يعرف السفار من التجار وغيرهم يقصدونه.

ولا شك أن من المعادن التي كانت معروفة حينئذ معتنى بها معدن (عوام)، فقد بلغ من اعتنائهم به إلى أن سموا جهته به، ونصبوا فيها قاضيا على حدة، يدل لهذا ما ذكره في التكملة رقم 868 في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان السرقسطي؛ المتوفى سنة 598 : إنه ولي قضاء معدن (عوام) بمقربة من فاس. وبعد هذا أختتم هذا البحث بكلام المعجب عن المعادن التي كانت معروفة لهذا العهد بالمغرب والأندلس؛ قال ص 242 :

«وقد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس : وإنه بالقرب من حصن يدعى (طلميثة)، وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى (تمسامان) فيه معدن حديد، وفيما بين سلا ومراكش قريبا من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلا موضع يدعى (إيسنتار) فيه معدن حديد أيضا، وليس هذا الموضع على طريق السفار، إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه، وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى (وركناس) فيه معدن فضة، وقد ذكرنا معدن (زجندر) الذي بسوس، غير أن فضته ليست هناك، وأعني فضة معدن زجندر.

وسوس أيضا معدنان للنحاس، ومعدن توتيا وهي التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر، فهذه جملة ما بالعودة من المعادن، وبجزيرة الأندلس معادن أيضا، فمنها معدن فضة ببلاد الروم في الجهة المغربية بموضع يدعى (شترة)، وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة؛ موضع يسمى (شلون) فيه معدن زئبق منه يفترق الزئبق على جميع المغرب.

وفي أعمال المرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف (بدلاية) فيه معدن رصاص، وفي أعمال المرية أيضا على يوم ونصف منها موضع يسمى (بكارش) فيه معدن حديد أيضا، وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى (أورية) على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد، فهذه جملة ما بالأندلس من المعادن»، هذا كلام المعجب، وينبغي أن يضاف لمعادن العدو معدن عوام الأنف الذكر، حيث تصير جملة المعادن التي كانت معروفة إذ ذاك بالمغرب والأندلس أربعة عشر معدنا.

الصناعات الميكانيكية

وزيادة على تلك الصناعات الوفيرة الراقية؛ كذلك نهضت الصناعات الميكانيكية، وظهرت في كثير من المظاهر، وفوق ما مر بنا في مبحث علمي الهندسة والتنجم من مقصورة مراکش وساعتها الميكانيكيتين، وفوق مظاهر أخرى لها في بعض الصناعات السالفة؛ فوق ذلك كله ظهرت صناعات ميكانيكية أخرى، وتمثلت في تركيب بعض أوعية مصحف عثمان، ووضع بعض القناطير الجديدة، وصنع بعض الأعتدة الحربية : مثل الدبابات، والمجانيق والبارود، وفيما يلي استعراض لهذه المصنوعات الميكانيكية.

أوعية مصحف عثمان

سنذكر عن هذا المصحف الكريم أنه صنعت له أغشية بعضها من السندس، وبعضها من الذهب والفضة، واتخذ للغشاء محمل بديع، واتخذ للمحمل كرسي، ثم اتخذ للجميع تابوت يسان فيه؛ كما سنيسط هذا في مبحث التزويق.

ونريد أن نثبت هنا أن كلا من صوان الذهب والفضة والمحمل أدخل في تركيبها شيء غير قليل من الصنعة الميكانيكية، حسبما يوضح من المصدر الآتي، أما التابوت فقد كانت قطعة فنية ناطقة بما كان لهذه المهنة حينئذ من الرقي العظيم، وفيما يلي وصف لهذه الناحية في تابوت المصحف الكريم؛ بقلم شاهد عيان هو الامام الكبير : أبو بكر ابن طفيل في رسالته في هذا الصدد قال :

وله - تابوت المصحف - في أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان؛ قد أحكم ارتجاجهما، ويسر بعد الابهام انفراجهما. ولافتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه،

وتركب المحمل عليه ما دبرت الحركات الهندسية، وتلقيت التنبهات القدسية، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية، وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يدخل فيه، فإذا أدخل المفتاح فيه، وأدبرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه الى أقصى غايته.

وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة، مقترنة بحركة يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفا الى مقدمه، فإذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه، انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعهما من تلقائهما، دون أن يمسهما أحد، وترتيب هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف أي شيء آخر، فإذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التي أدير إليها أولا انفتح أولا الباب وأخذ الكرسي في الدخول، والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره : كل إلى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائهما، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح، كالذي كان في حال خروجه، وصحة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي، وهي مما يدق وصفها، ويصعب ذكرها (1).

قنطرة بين الرباط وسلا

اقتضب المراكشي وصفها آخر كتابه : المعجب 240، وتبسط في وصفها صاحب الاستبصار (خ)، وذكر أنها مركبة في ثلاث وعشرين معدية؛ مدت عليها أوصال الخشب، وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذي لا يؤثر فيه الحافر، تجوز عليها العساكر والمسافرون... ويمد البحر فترفع القنطرة فتغطي الجسر، فتعوم عليه المراكب وترسي دونها الاجفان الكبار.

قنطرة نهر الوادي الكبير باشبيلية

ذكرها المؤرخ يوسف أشباخ في تاريخ الأندلس (2) 254 وقال : إن يوسف هو الذي انشأها من السفن، وإنها تثبت فيها السفن معا بالسلاسل.

آلات حربية أو دبابات موحدية

وبالاسم الأول وردت في (مجموع رسائل موحدية)، ووصفها ص 105 - 107 بأنها لما صنعت من الأخشاب العظيمة الأجرام وكملت، قدمت الى الأعداء، وانتهت الى حفيروهم،

واستعملت على أسوارهم. كما ذكر عنها ص 205 أنها لما تمت وشحنت بضروب الأسلحة، وسترت بأنواع الخيش الواقية، قربت الى الأعداء لردم حفيروهم. وظاهر أن هذه الأوصاف تنطبق على الدبابات ذات الأبراج التي كان المسلمون يستعملونها في حروبهم، واستعملها قبلهم كثير من الأمم ويذكر المصدر 105 انهم صنعوا من تلك الدبابات عددا في أقرب وقت، وهذا يدل على البراعة في الصناعة، كما يذكر 107 - 108، 206، إنها كانت تعجل القضاء على الأعداء، وهذا يدل على جودة تلك المصنوعات. وقد استعمل هذه الدبابات كل من عبد المومن ويعقوب المنصور في فتح مدينة قفصة من افريقية، وكانت تحمل اسم : (البرج المبارك)، كما بالمصدر المذكور 205.

المجانيق

كذلك استعمل عبد المومن ويعقوب المجانيق في الفتحين المذكورين؛ أخذنا من المرجع المشار له 105، 204، 205. وقد كانت هذه المجانيق - كما يصفها المرجع المذكور - تبلغ في نكاية الأعداء المبالغ، وتحمل بهم القواصم والدوامع، وتنهك أسوارهم، وتهدم ديارهم، وتعفي آثارهم.

البارود

أما هل عرف الموحدون البارود ؟ فأمر يشك في صحته، ويؤيد الأستاذ يوسف أشباح في تاريخ الأندلس (2) معرفتهم لهذا السلاح الجديد ص (58) : بأن خلفاء عبد المومن من الموحدين؛ هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن الثالث عشر من افريقية الى اسبانيا، كما يؤكد ذلك ص 246 - 247 بأنه لم يمض قليل على زمن الموحدين - أعني أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر - حتى شاع بين مسلمي افريقية استعمال الآلات القاصفة التي تقذف الكرات الملتببة. ووصف هذه الآلات لايدع مجالا للشك في أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود.

صناعة التصوير

وبصفة خاصة ظهر أثر طابع الدولة الديني في التصوير، فلم يستعملوه ويعتقوا به إلا في دائرة الحاجة الدينية أو العلمية، وإلا في ميدان اللهو المباح. وأبرز الأمثلة للتصوير في هذا العهد ما سلف لنا ص 251 عن دار الوزير ابن جامع بمراكش الجديدة، من أنه كان بها ساحة تلعب فيها خمسمائة جارية على (خيل الخشب) وتتطاعن. ومن الأمثلة الأخرى ما مر بنا أنهم صوروا حول إحدى نوافذ صومعة حسان بالرباط - جهة البحر - (سيفين عظيمين)

مصلتين، رأساهما الى السماء؛ ارهابا للعدو المهاجم، ورمزا الى التهيء له والاستعداد، ومما يلحق بهذا أن ابن رشد الثاني قدم لاحد خلفاء الموحدين كتابه في الحيوان؛ الذي يحتوي على (صور جميع الحيوانات)، كتاب الفنون الجميلة 195.

هذا الى أنهم كانوا يصورون التصميمات لبعض المباني، ومن ذلك أن حسان - الذي أضيف له فيما يظهر جامع حسان - عمل الشكل الهندسي لاستخراج القبلة للمنصور براكش، (مقدمة سوق المهر (خ))، وأخيرا لانسي أن نذكر القاريء في هذا الصدد بالكرة والخريطة الادريسييتين؛ وقد مرتا في مبحث الجغرافيا.

صناعة الطرز

كذلك فن الطرز تأثر إبان عظمة الدولة بذلك الطابع، لذلك لم يستعملوه إلا في بعض الرايات، أخذنا من تاريخ الأندلس (2) 87، وإلا في بعض الستور، أخذنا من تاريخ التمدن الاسلامي (1) 167 الذي رسم صورة لستارة موحدية، على أنهم آخر دولتهم التفتوا لهذه الناحية وأسسوا دار الطراز الخاصة بهم، على ما يؤخذ من المقدمة 232.

صناعة التزويق

وكان الموحدون أول نشأتهم معادين لهذا النوع من الفنون، حتى أن فقهاء وأشياخ فاس اضطروا أن يستروا النقش والزخرف الواقعين فوق محراب جامع القرويين لما علموا بزيارة عبد المومن له، وخافوا من انتقاده عليهم، كما في القرطاس 35، هكذا كان موقفهم - أول الأمر - ضد هذا اللون من الزينة، ولكن لم يكد يستتب الأمر لعبد المومن ثم لخلفائه من بعده حتى أصبحوا من أنصار التزويق والزخرفة، وأكبر مظهر ظه فيه هذا الصنف من الفن هو المباني والكتب.

أما المباني فلا زالت منها الآن لمحة شاهدة بالأثر فيها بقي قائما من المباني التي زخرفوها، ناطقة بذوق الموحدين في هذه الزخرفة؛ التي تجمع الى رقة الأندلس فخامة الشرق، وتنطق باللفظ والقوة.

وأما الكتب فإن تزويق بعضها مثل المصاحف - صحائف وأغشية - بلغ جانبا كبيرا من اعتناء القوم، ومن حافظ عليه التاريخ من أسماء المزوقين في الكتب لهذا العهد : أبو الحسن يحيى بن محمد القيسي القرطبي، ثم الفاسي مستوطنها، المعروف بابن الاشيلي. ترجمه في التكملة 2767 والصلة 358، ووصفه الأول بأنه كان بارع الخط، مذهبا صناعا، وعبرة الثاني : كان من أهل الخط والتذهيب.

وهذه بعض الأمثلة لزخرفة الكتب حينئذ :

زخرفة أوعية مصحف عثمان

يصف ابن طفيل في رسالة المصحف الكريم هذه الزخرفة التي أمر بها عبد المومن بما

يلي :

«مما صنع للمصحف العظيم من الاصونة الغريبة، والأحفظة العجيبة، انه كسي كله بصوان واحد من الذهب والفضة؛ ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه، لا يشبه بعضها بعضاً، قد أجري فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الأول مثال، ولا عمر قبله شبيهه خاطر ولا بال...»

ونظم على صحيفته وجوانبه من فاخر الباقوت، ونفيس الدر، وعظيم الزمرد، ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفرادها، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده، وتظن العز الأقمس والملك الأنفس في ادخاره وإعدادها، وتسمى الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشنوده في صنعه واتحاده، فانتظم عليه منها ما شاكلة زهر الكواكب في تلالته واتقاده، واشبهه الروض المزخرف غب سماء أقلعت عن أمداها، وأتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر، أخذاً بمجامع القلب والبصر، مستولياً بصورته الغريبة على جميع الصور. يدهش العقول بهاء، ويحير الأبواب رواء، ويكاد يعشي الناظر تالفاً وضياء...

وتلطف في تميم هذا الغرض المعتمد، وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الأخضر، ذي عظمة خفيفة؛ تلازمه في المغيب والمحضر... وصنع له محل غريب الصنعة؛ بديع الشكل والصبغة... مغشى كله بضروب من الترصيع، وفنون من النقش البديع؛ في قطع من الأبنوس والخشب الرفيع، لم يعمل قط في زمن من الأزمان، ولا انتهت قط الى أيسره تواقداً الأذهان، مدار بصنعة قد أجريت في صفائح الذهب، وامتدت امتداد ذوائب الشهب، وصنع لذلك الحمل كرسي يحمله عند الانتقال، ويشاركه في أكثر الأحوال، مرصع مثل ترصيعه الغريب، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب، وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها، والصدور على محفوظ أمكارها، مكعب الشكل، سام في الطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التميم في أوصاله والتكميل، جار مجرى الحمل في التزيين والتجميل». (١).

زينة راحلة المصحف

وكان خلفاء الموحدين يحملون هذا المصحف الكريم بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء، عليها من الحلبي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة، وقد جعلوا تحته

بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لواء أخضران، وموضع الأسنة منهما ذهب شبه تفاحتين. (المعجب 166).

حلية مصحف ابن تومرت وراحلته

ويكون خلف تلك الناقة في مواكبهم بغل محلى أيضا، عليه مصحف آخر، يقال إنه بخط المهدي ابن تومرت، دون مصحف عثمان في الجرم محلى. بفضة مموهة بالذهب. (المصدر 166).

تذهيب موطا ابن تومرت

ويحفظ حتى الآن في مكتبة القرويين بفاس هذا الموطا، وهو مكتب في رق غزال، مذهب.

صناعة الخطاطة، أنواع الخط

كان الخط الشائع لحد العهد هو الأندلسي، أخذنا من المقدمة 367، وكان الى جانب هذا الخط العام يوجد نوعان من الخط الخاص؛ أحدهما يكتب به في السكة والطرار وما إليهما، وكان أخذنا من الخط الأندلسي والخط الشرقي؛ حسبا هو مشاهد على المعروف من ذلك الصنف، والآخر خط العلامة الموحدية : - الحمد لله وحده - وكانوا يكتبونها بيدهم بخط الثلث في رأس المنشور، كما يذكر هذا المؤرخ ابن الوكيل في اختصار نفح الطيب؛ ورقة 164 نسخة كاتب السطور، وهناك نوع رابع من الخط وهو شكل إمضاء الموثقين، وهل كان موجودا لهذا العصر ؟ هذا سؤال أضعه بين يد القاريء الكريم.

نهضة الخطاطة

والآن وقد ذكرنا أنواع الخطوط، أذكر أن مهنة الخطاطة حينئذ بلغت غايتها من الجودة والالتقان، بما كان لغير واحد من ملوك الموحدين من الاهتمام بهذا الشأن. ولا شك أن في طليعة هؤلاء الملوك : عبد المومن الذي جعل من بنيه قدوة حسنة في الاهتمام بالخط، فنشأهم ثلاثة عشر كلهم حفاظ (خطاطون) المصدر 114.

وقد كان بعض هؤلاء الأبناء يمتدحون بجودة الخط؛ مثل السيد عمر بن عبد المومن؛ مدحه الشاعر الأندلسي الكبير ابن مجير، ووصف خطه بهذين البيتين :

تبث يمينه زهرا في الطروس ولا نكر على السحب أن ينبش أزهارا

خط هو السحر لاكننا ننزهه ونجعل القلم النفث حجارا

زاد لمسافر - 10

وأخيرا نذكر أن عمر المرتضي من أواخرهم كان له حظ وافر من براعه الخط، (حلل 126)، ومن منتسخاته مصحف قرآني كريم في عشر مجلدات سلم بالحديث عنه فيما بعد.

الخطاطون

ولقد كان من أثر ذلك الاهتمام بالخطاطة أن نشأ حينئذ خطاطون بارعون؛ نذكر منهم أسماء النخبة الآتية : 1. عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي تـ 597، التكملة 1491. الجدوة 236، و 2. أبا حفص عمر بن عبد الله السلمي الأغماتي نزيل فاس، حدود 530 - 603، التكملة 1831. الجدوة 286، و 3. عبد الرحمن ابن يوسف الأزدي الزهراني؛ المعروف بابن الملجوم الفاسي 535 - 605، التكملة 1652. الجدوة 254. و 4. عقيل بن عطية القضاعي المراكشي 549 - 608، زوائد التكملة 1946، و 5. أبا الخطاب عمر ابن الحسين بن علي بن دحية الكلبي السبتي؛ يعرف بابن الجميل، 547 - 633، التكملة 1832، و 6. محمد بن يحيى بن صاف؛ المعروف بابن المواق المراكشي ثم الفاسي 583 - 642، الاعلام (3) 141، و 7. أبا القاسم عبد الكريم بن عمران القصري تـ 643، المصدر (3) 103، و 8. محمد بن أحمد بن عمر السلمي الفاسي، المصدر (3) 144 - 196، ونظم أسماء الخطاطين حينئذ بـ 9. أبي الحكم بن غلندة : وهو وإن كان أندلسي الأصل؛ فإنه استوطن آخر عمره بمراكش وتوفي ودفن بها، وقد امتاز في خطاطته بأنه كان يكتب بخطين أندلسيين، طبقات الأطباء (2) 79.

النساخون

كذلك احترف غير واحد من الخطاطين بمهنة النسخة وهذه زمرة كريمة منهم : □ عتيق بن علي الصنهاجي الحميدي المكناسي ثم الفاسي : 595. من السابقين الأولين في هذه الصناعة، كتب بخطه علما كثيرا، التكملة 2433. الجدوة 278.

□ محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التغمري السبتي كان حيا 596

كتب بخطه كثيرا، وكان صاحب اتقان وضبط، التكملة 1061، 2133.

□ محمد بن جرير المعروف بابن تاحميسست الفاسي : 608

كان له خط حسن؛ ينسخ المصاحف بيده؛ ويدفعها لمن يراه أهلا لها ابتغاء الثواب،

الذخيرة السنية 41 - 42، القرطاس 175، الجدوة 137 - 138.

- محمد بن أبي عمران موسى بن المعلم الفاسي : 611
 من اشتغل بهذه المهنة، وكان يتعيش منها، القرطاس 43 - 44.
- أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي الفاسي : 660
 كتب بخطه كثيرا. الجذوة 56 - 57.
- محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي : 662
 نسخا بارع مواظب، نسخ بيده كبار الدواوين، ولم يفتر قط من قراءة أو درس أو
 نسخ أو مطالعة ليله ونهاره، البغية 77. الجذوة 144. النيل 254.

صناعة الوراقة

وهي من توابع الخطاطة، وتزيد عليها بأنها تشمل حتى تجليد الكتب وسائر الأمور
 المكتبية، وكانت ناهضة لهذا العهد، ومن مشاهير أهلها : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد
 الرحمن ابن الصقر الأنصاري الخزرجي المراكشي؛ ت حدود 590، كان جيد الخط سريع
 الكتابة؛ تعيش دهرا طويلا بالوراقة؛ وكتب بخطه الكثير واتقنه. الاعلام (3) 65. وعيسى بن
 واصل المراكشي؛ ت حدود 637، كان بارع الخط، جيد الوراقة، كتب بخطه دواوين عدة في
 فنون شتى، الصلة 96، ومحمد بن أحمد السبائي؛ المعروف بابن الطراوة المراكشي؛ ت 659،
 بارع الخط أنيق الوراقة، الاعلام (3) 148 - 149.

تذييل

إن الحديث عن الخطاطة والوراقة يحفزنا أن نذيل بالكتابة عن نهضة المكتبة المغربية؛
 وما كان يوجد بداخلها؛ وحتى في غيرها من الذخائر والآثار.

المكتبة المغربية لهذا العهد، عمارتها

تضخمت المكتبة المغربية لهذا العهد، وامتألت بنفيس الدفاتر والذخائر، وصارت تقارب في
 بعض مظاهرها المكتبة الأندلسية إبان ازدهارها، ومن الشواهد على عظمة المكتبة المغربية
 حينئذ أن قسم الفلسفة من مكتبة يوسف اجتمع فيه قريب مما اجتمع للحكم بالأندلس،
 المعجب 155، وكان بمدينة مراكش وحدها من دكاكين الكتبيين مائتا دكان لبائعي الكتب
 المخطوطة؛ كانت بجوار جامع الكتبيين؛ ومكتبة واحدة، هي مكتبة بعض بني الملجوم بفاس،
 بيعت أوراق كتبها التي هي غير مجلدة بل متفرقة بـ 6000 دينار. (النفع (1) 574).

اهتمام الموحدين باقتناء الكتب

وقد جاءت تلك الكثرة الفائقة من العناية الكبرى التي كُنت للمغاربة، وفي مقدمتهم الخلفاء الموحدون؛ الذين كانوا مضرب الأمثال في الاهتمام باقتناء الكتب وتملكها، وإن هؤلاء بلغ بهم الاعتناء والاهتمام بهذه الناحية إلى حد أن كانوا ينتزعون ملكية المكاتب ممن يخشى ضياعها عنده لأجل صيانتها في مكتبهم؛ ويعرضون أصحابها عنها التعويضات السنوية، ومن أمثلة هذا ما رواه المراكشي في المعجب 155 - 156 عن أبي محمد عبد الملك الشدوني قال : كنت في زمن شيبتي استعير كتب هذه الصناعة - يعني صناعة الأحكام - من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحاج؛ يعرف بالمراني - بتخفيف الراء - كانت عنده جملة كبيرة منها : وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس؛ فكان يعيرني إياها في غرائر، أحمل غرارة واجيء بغرارة من كثرتها عنده؛ فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بحملتها، فسألته عن السبب الموجب لذلك، فأسر إلى أن أخبرها أنني إلى أمير المؤمنين - يوسف - فأرسل إلى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك، وكان الذي أرسل كافورا الخصي مع جماعة من العبيد، وأمره أن لا يروى أحد من أهل الدار، وأن لا يأخذ سوى الكتب... وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه. ولعل هذه القصة تكفينا لبيان مقدار اهتمام القوم بالكتب ومدى شغفهم بتحصيلها.

يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من العلى ما نشاء
اقتراحهم تأليف الكتب

وان همة الموحدين في هذا الميدان لم تقف عند حد اقتناء الكتب الموجودة؛ بل كانوا يقترحون تأليف الكتب من جديد لفائدة المكتبة العربية؛ فشروح ابن رشد الثاني على كتب أرسطو إنما كانت بهمة يوسف حسبا مر بنا في مبحث الفلسفة - نقلا عن المعجب 159، كما أن شرحه الآخر على الفية ابن سينا كان باقتراح السيد أبي الربيع بن أبي محمد بن عبد المومن؛ كما يؤخذ من طالعة الشرح المذكور.

إهداء الدفاتر والذخائر لمكاتبهم

وعرف الناس منهم ذلك الاهتمام باقتناء الكتب، فتقدموا لمكاتبهم بإهداء الكتب؛ فعل هذا ابن رشد المذكور، وقدم لخزانة أحد الخلفاء الموحدين كتابه في الحيوان، (الفنون الجميلة 195). وبعض الأئمة الذي رفع لخزانة المرتضى الموحدي ألفا يتضمن التوشيح (أزهار الراض

(2) (230). بل إن الإهداء لمكاتيبهم - كان حتى من عظماء الملوك خارج مملكتهم، ومن هذا أن السلطان الشهير صلاح الدين الأيوبي أهدى لمكتبة الخليفة يعقوب مصحفين كيمين منسوبين (الاستقصا (1) 174.

مقام نخلة المحافظة على الكتب

وما يندرج في هذا الباب اعتناؤهم بخطة المحافظة على الكتب، وكانوا يعتبرونها من الخطط الجليلة؛ التي لا يعين لها إلا سعاية أهل العلم وأكابرهم، كما يقول هذا في الدياج 49.

ومن تولاهما في هذا العهد : أبيبو العباس ابن الصقر صاحب المكتبة الآتية الذكر، جاء في ترجمته من المصدر المذكور 49 : وتولى أحكام مراکش والصلاة بمسجدها، ثم أحكام بلنسية؛ فكان بها قاضيا، ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب بن عبد المومن الزمه خدمة الخزانة العلمية، فانظر نقله من القضاء إلى المكتبة، وناهيك بذلك دليلا على علو الوظيفة عند القوم.

تأسيس المكاتب العامة

ولم يقف اعتناؤهم بالكتب عند حد اقتنائها وما يتبع هذا الاقتناء؛ وإنما فوق ذلك اهتموا بتسجيلها ووقفها على العموم، ويوقال : إن أول ما وقع وقف الكتب بالمغرب كان في هذا العهد، ولتحقيق هذا الموضوع انقل ، كلاما في هذا الصدد أثبتته في كتابي. (سالف المكتبة المغربية) تحت عنوان : أول مكتبة عامة بالمغرب، وهذا نصه :

يقولون أن ابتداء تأسيس المكتبات العامة بالمغرب كان في أواخر العهد الموحي وإن الذي أسس أول مكتبة عمومية بالمغرب هو أبو الحسن الشاري، المولود والمتوفى 579 - 649، فإنه أوقف بسبته خزانة مدرسته الشسهيوة، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم، كما يقول ذلك محمد بن القاسم السبتي في كتابه اختصار الأخبار.

وأنا مع احتفاظنا بهذا النص، نستبعد أن يتأخر تأسيس المكاتب العامة بالمغرب إلى هذا العهد الأخير من الدولة الموحدية، من غير أن يكون على الأقل في أولها؛ ومن غير أن يكون لعبد المومن وأبنائه أثر في هذا الميدان، لما علم من اهتمامهم بهذا الشأن، واشتهر من ابتنائهم (بيت الطلبة)، وتأسيسهم الكثير من المدارس بالمغرب وغير المغرب، وكل هذه المؤسسات لاستغني عن كتب ومسكات تكون بجانبها مباحة للعموم، فالظاهر أن ابتداء

تأسيس المكاتب العامة بالمغرب كان قبل هذا العهد أوائل العصر الموحدى على الأقل؛ وإنه أسست إذ ذاك مكاتب عامة؛ أهمها التاريخ فيما أهمل، فقاتل الله الإهمال.

هذا ما أثبتته أولا مع بعض حذف يسير، ثم وقع الى قسم كبير من كتاب : (المسالك والممالك) لابن فضل العمري، فاكشفت به خزانة عامة أسسها يعقوب المنصور بمراكش، قبل أن يؤسس الشاري المكتبة العامة بسبته.

فبعدهما ذكر ابن فضل يعقوب المنصور بنى قصر الخلافة وسط المدينة التي اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه، بعد هذا قال : وفي رحبة القصر - قصر الخلافة - دار الكرامة والأضياف، وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب.

هذا كلام ابن فضل، وكيفما فسرنا عموم هذه الخزائن، وكيفما ذهبنا في فهمه، فإنه يفيدنا أن الخزانة الشارية ليست أول مكتبة عامة بالمغرب، وأنها مسبقة لاسابقة وبعد هذا فإني لأقصد أن هذه الخزائن - التي أسسها يعقوب - هي أول خزانة عامة بالمغرب، وإني أعود فأؤكد انني لازلت استبعد أن يتأخر تأسيس المكاتب العامة باغرب؛ ولو إلى هذا العهد من الدولة الموحدية.

المكاتب، أوعية الكتب

لم أقف على صفة أوعية الكتب عند المغاربة حينئذ، وإنما وقفت على وصف موجز لبعض أوعيتها لدى الاندلسيين، وبما أنه لا يبعد أن تكون ظروف الخزانة المغربية على غرار أوعية اختها الأندلسية، أثبت هنا أبياتا تصف بإيجاز تلك الأوعية الأندلسية؛ التي يغلب أن تكون مثل شكل الخزانة المغربية، وهذا نص الأبيات : *

ووعاء عود للعلوم صيانة	حملت ذخائرها قوائم أربع
محفوظة الأشكال مما قد حوت	فالعلم يحفظ ما حواه ويمنع
خشب كلون التبر يشرق فوقها	حلي حكي لون اللجين ويسطع

الكتابة على الخزائن

وكانوا يكتبون على بعض الخزائن الجليلة، ويوجد في ديوان السيد أبي الربيع بيتان اثنان؛ أمر بهما أن يكتبتا على خزانة كتبهم المباركة.

من قطعة شعرية للأديب لاشاعر أبي عبد الله محمد المعروف بهريب الحشى الجزيري كان حيا سنة 587. وقد وددت في ترجمته من كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها (خ).

أسماء لخزائن

تأسست على هذا العهد مكاتب عديدة؛ عامة، وملكية، وخاصة ونذكرها على هذا الترتيب فيما يلي :

المكاتب العامة

□ مكاتب مدرسة المنصور بمراكش

سلف لنا آنفا الحديث عن هذه المكاتب، ولم أقف بعد على شيء زائد على ذلك.

□ المكتبة الشاربية بسبتة، مؤسسها، قيمتها

وهي منسوبة لمؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الغافقي السبتي المعروف بالشاربي الآنف الذكر، كان شغوفاً بجمع الكتب مغرماً بتملكها، فكون مكتبة عظيمة، جمعت من الأعلاق النفيسة وأمهات اللواوين شيئاً عظيماً، ولقد نافس فيها، وغالى في أثمانها، وربما رحل في ذلك حتى حصل منها ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره، ولا تحصل عند كثير ممن تقدمه : التكملة 1922. صلة الصلة 300. جذوة الاقتباس 308. ودفع أبا الحسن الشاري شغفه بالعلم وحب لأهله، أن أوقف خزائنه هذه على أهل العلم بالمغرب، وجعل مقرها بالمدرسة المنسوبة إليه، التي ابتناها من ماله بسبتة، (اختصار الأخبار). وقد استمرت هذه المكتبة قائمة الى قريب من عهد سقوط سبتة، أعادها الله الى عز الاسلام، فصاحب اختصار الأخبار الذي فرغ منه سنة 765 أشار الى أنها بقيت موجودة الى زمنه. وابن الخطيب المتوفى سنة 776 ذكرها في مقاماته؛ (معيار الاختبار) وسماها : (خزانة كتب العلوم). وكذا زارها بل مكث بها ثمانية أعوام أبو يعقوب يوسف الأعصاوي المتوفى سنة 802 حسبما ذكر هذا عنه ابن غازي في ذيل فهرسته (خ).

□ المكتبة الملكية

الخزانة العلمية بمراكش، مؤسسها، قيمتها

كذلك سماها في الديباج 49، ومؤسسها هو يوسف، ولقد كانت عامرة؛ وعامرة جداً، يدل لهذا ما مجاء في المعجب 155 لما تكلم على اعتناء يوسف بتعلم الفلسفة قال : إنه أمر بجمع كتبها (الفلسفة) فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي، فتأمل قوله : قريب مما اجتمع للحكم، وتذكر أن الحكم كان مغرماً بالفلسفة الى حد بعيد، وأن كتبها كانت تكون قسماً كبيراً من مكتبته العظيمة؛ التي كانت تشتمل - فيها يقال - على 400.000 مجلد كما في النفع (1) 184، ثم لاحظ بعد هذا وذاك أن مكتبة يوسف لا بد

أن تكون مشتملة على كتب كثيرة غير كتب الفلسفة.... فإذا اعتبرت ذلك كله؛ تعلم ما بلغت إليه هذه المكتبة من العمارة والضخامة.

وينبغي أن لانسى الجهود الجبارة التي بذلها يوسف في جمع شتات مكتبته حتى من البلدان القاصية، وقد مر بنا شيء من هذا. وكان القيم عليها : هو أبو العباس ابن الصقر الأندلسي كما مر بنا : الديباج 49.

مكاتب الأفراد

□ مكتبة عبد الرحيم ابن الملجوم بفاس 524 604

وصاحبها هو الراوية، عبد الرحيم بن عيسى الأزدي الزهراني المعروف بابن المنجوم الفاسي، كونها من مكتبة والده عيسى الذي كان جماعة للدواوين العتيقة، والدفاتر النفيسة، ومن مكتبة استأذه أبي عبد الله محمد بن أحمد الخزرجي الجياني، ومما أضاف لهذه وتلك؛ حيث صارت مكتبة حافلة بالنفائس والذخائر، التكملة 1674، 1930، الجذوة 267، 262، 281.

□ مكتبة عبد الرحيم ابن الملجوم بفاس 535 605

أسسها الشيخ عبد الرحمن بن يوسف ابن الملجوم؛ من قرابة السابق، وجمع لها من الكتب والدواوين شيئا عظيما، حتى صارت أكبر مكتبة بالمغرب لذلك العهد، يقول عنها في التكملة 1652. والجذوة 253 : وكانت له (عبد الرحمن) خزانة دفاتر جلييلة الشأن لم يكن لأحد من أهل عصره مثلها، ويقول عنها في الذخيرة السنية 47 : وخزانة كتبه (عبد الرحمن) كانت المشهورة في المغرب، بيعت خرمها بعد وفاته بستة آلاف دينار، وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الذخيرة تفسر لنا إجمال ما سلف من أن أحد بني الملجوم بيعت أوراق كتبه التي غير مجلدة بـ 6000 دينار، وتبين أنه هو صاحب هذه المكتبة : عبد الرحمن ابن الملجوم. وكان مصير هذه المكتبة العظيمة أن تصدق بها مؤسسها على ابنة له لم يترك عقبا غيرها؛ حيث تفرقت شذر مذر، التكملة 1652، الجذوة 253.

□ مكتبة المسوفي بفاس 609

كونها أبو عبد الله محمد بن يحيى بن تاكعت المسوفي؛ والي أعمال فاس آخر عمره، قال في ترجمته - من كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها - كان معتنيا بالكتب؛ جمع منها ما لم يجمع غيره، وانتفع به شيخنا الأستاذ أبو محمد، فإن كان ينبه عليها فيعتني بها حتى يحضرها، فينتفع الأستاذ بها أما بنسخ أو بمقابلة.

□ مكتبة المومنانى بفاس 639

من تأسيس الامام الكبير؛ محمد بن عيسى بن معنصر المومنانى الفاسى، وكانت عظيمة جدا : بحيث كان فيها من الكتب ما لم يكن عند أحد (كتاب بعض فقهاء مالقة وأدبائها (خ).

□ مكتبة ابن الطراوة بمراكش 659

جامعها هو الامام المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أحمد السبائى المراكشى، عرف بابن الطراوة، كان مهتما باقتناء الأصول التى بخطوط أكابر الشيوخ. أو عنوا بضبطه، وجمع منها جملة وافرة. شديد المحافظة على كتبه، مثابرا على الاعتناء بتصحيحها، نسابه لخطوط المشايخ، الاعلام (3) 148.

□ مكتبة ابن الصقر بمراكش 502 569

وهي من إنشاء الحافظ المكثّر؛ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصارى الخزرجى الغرباطى؛ نزيل مراكش يعرف بابن الصقر، وكانت مكتبة عظيمة طافحة بالذخائر والنفائس، يقول عنها فى الديباج 49 - 50 : إنه اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وكان معه عند توجهه لمراكش خمسة أحمال كتب، وجمع منها بمراكش شيئا عظيما. ولقد نكب فيها بضروب من المحن؛ كالغرق؛ والنهب خلال فتنة كانت وقعت أيام مقامه بغرناطة، وكذلك نهبت كتبه بمراكش حين دخلها عبد المومن، الديباج 49.

□ مكتبة ابن غلندة بمراكش 581

من جمع الطيب الأديب أبي محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن غلندة الأموى مولاهم السرقسطى؛ مستوطن مراكش، وكان بهذه المكتبة كتب كثيرة، طبقات الأطباء (2) 79.

□ مكتبة القيسى بمراكش 653

جمعها المحدث الراوية؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسى الرندى؛ نزيل مراكش ودفنها، وكان جماعا للكتب وفوائد الشيوخ، نسابه لخطوط العلماء، الاعلام (4) 377.

الذخائر والآثار في هذا العصر

بعد الحديث عن المكتبة المغربية أذكر قلا من كثر من الذخائر والآثار؛ التي كانت شائعة لهذا العهد، محفوظة بالخزائن المغربية وغيرها.

□ المصحف العثماني

سلف الحديث عنه في غير موضع من هذا الكتاب، ونذكر هنا أن هذا المصحف - علي ما يقال - أحد المصاحف التي بعث بها عثمان إلى الأمصار، كان بمسجد قرطبة من الأندلس؛ ونقله عبد المومن إلى مراكش عام 552 حيث بقي عند الموحدين موضوع تحلة واحترام، إلى أن صار أواخر أيامهم لخزائن بني عبد الواد ملوك تلمسان، ثم استخلصه منهم أبو الحسن المريني، وكان آخر العهد به أن تلف في البحر سنة 750 عند غرق أسطول أبي الحسن في جادة تونس الشهيرة؛ (1) (النفح) (1) 283

□ مصحف ابن تومرت

وهو مصحف يقال أنه سمى بمهدي تومرت، وقد سلف الحديث عنه، المعجب 166. النسخ (1) 288.

□ مصحف المرتضى

هذا المصحف خطه بيده عمر المرتضى من أواخرهم في عشر مجلدات، وكان يوجد تاما بمكتبة جامع ابن يوسف بمراكش إلى عام 1140، حيث استعاره في هذا التاريخ محتسب مراكش، وحوالي سنة 1352 بقي من هذا المصحف أربع مجلدات، ولم يبق منه اليوم

ولا مجلد واحد في هذه المكتبة. وقد رأيت بمتحف الرباط بعد مجلدات هذا المصحف. معروضة هناك منها في الجملة (2).

□ النعال النبوية

ويزعم بعض من تكلم على النعال النبوية الشريفة الموجودة حتى الآن بفاس واحدة منها، إنها كانت عند بني عبد المومن الى انقراض دولتهم؛ اهداها لهم بعض من رام التقرب لهم. انظر النشر المخطوط.

□ خريطة قبة مراكش

وهي عبارة عن الشكل الهندسي الذي وضعه المهندس الشهير حسان لاستخراج قبة مراكش، وقد كانت محفوظة بالخزانة الموحدية.

□ قراصة الذهب في ذكر لثام العرب

مؤلفه الامام النظار؛ مالك بن وهيب الأندلسي؛ ضمنه لثام العرب في الجاهلية والاسلام، وضم الى ذلك ما يتعلق به من الآداب؛ فجاء الكتاب لانظير له في فنه، وقد رآه عبد الواحد المراكشي في خزانة بني عبد المومن. المعجب 119

□ دراهم قديمة

قص خبر هذه الدراهم ابن القطان في مقالته. وذكر أنها وجدت في كنز ورفعت للناصر الموحدي، وأعطى منها لوالد ابن القطان قطعة. وهي فضية مستديرة الشكل، مكتوب عليها أمر بضرب هذه الدراهم أمير المومنين عبد الملك بن مروان. (الدوحة المشتبكة).

□ مد أبي محمد صالح

كان هذا المد عند أبي محمد صالح الدكالي، وقد كيل بمد زيد بن ثابت (ض) بسند صحيح مكتوب عنده شاهده عنده وعائره الامام الرجراجي الفقيه الشهير. (شرح الخطاب على المختصر (2) 366).

□ عبادة عبد المومن

وهي عبادة حرب سوداء من مخلفات ومن كانت من مدخرات خلفاء الموحدين الآخرين. وكانوا يرتدونها في الحروب أخذوا من تاريخ الأندلس (2) 118.

(2) نسخة هذا المصحف في دراسة عن تاريخ المصنف الشريف بالمغرب مجلة معهد الحفطات، القاهرة ما

إحياء علوم الدين في منظور الغرب الاسلامي أيام المرابطين والموحدين

مدخل

روى عن أبي حامد الغزالي أن ليقه مجموعة من الراحلين من الغرب الاسلامي إلى المشرق الاسلامي، ومن نماذجهم :

- 1 - عباد بن سرحان بن مسلم المعافري الشاطبي نزيل طنجة وفاس، قال ابن بشكوال (1) «توفي بالعدوة ي نحو سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة» «48 - 1149».
- 2 - أبو بكر بن العربي (2) : محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي تـ 1148/543.

(1) «الصلة» نشر العطار 1374/1955 : رقم 973. وترجمته — أيضا — عند الضبي في «البغية» ط. مدريد 1884 رقم 1199.

وهو من أشياخ أبي بكر بن خير، فيروي عنه ستة من مؤلفاته : خمسة منها ص 253، وفهرسته ص : 436، حسب «فهرسته ابن خير» الطبعة الثانية 1382 / 1963.

ومن مروياته عن عباد بن سرحان «كتاب الفصول الجامعة، فيما يحب على آل الذمة من أحكام الملة» عن مؤلفه أبي بكر أحمد بن علي ندران الحلواني : المصدر ص 259.

وهذه الرواية تكشف اهماما وقع — في إسم ابن سرحان — عند النشر يسي، فقد ساق جوابا له معبرا عنه ببعض أصحاب أبي بكر ابن العربي، وضمن الحوار يرى التصريح بروايته لكتاب الفصول الجامعة عن مؤلفه الحلواني، مع التأكيد بانفراده — بين المغاربة والأندلسيين — بروايته عن مؤلفه، وهو نفس السند عند ابن خير في روايته للفصول الجامعة عن ابن سرحان عن مؤلفه، وهو نفس السند عند ابن خير في روايته للفصول الجامعة ان إبي سرحان عن مؤلفه، مع «فهرسة بن خير» ص 259.

ومن مؤلفات ابن سرحان الخزانة المفردة «تألف صغير في الأدب مما يتعلق به» خ.ع.د. 1588 ضمن مجموع. ترجمته وبعض مصادرها ومراجعتها عند عياض في «العية» أصلا وعليقا، دار المغرب الاسلامي — بيروت رقم 10.

ومن جهته وسابقه عباد بن سرحان يسند ابن خير روايته لمؤلفات الغزالي (3) ومن طريق ابن العربي يروي مرتضى الزبيدي إحياء علوم الدين (4).

3 - ومن الذين كان لهم لقاء مع الغزالي ابن حنين : علي بن أحمد بن أبي بكر انكتامي الظليطي ثم القرطبي، نزيل فاس سنة 503 أو نحوها، تـ 569/«73 - 1174»، لقيه بمكة المكرمة (5).

4 - ابن حرزم : صالح بن محمد بن عبد الله الأموي العثماني الفاسي تاريخ وفاته غير مذكور، لقيه في بيت المقدس (6).

5 - يضاف للأخذين عن الغزالي اسم خامس : سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري البلنسي : ت 1156/541، فيذكر ابن عبد الملك أنه تفقه على الغزالي، حسب الذيل والتكملة : السفر الرابع رقم 43.

ولا يبعد أن يكون ابن العربي من أول الجالين لكتاب الأحياء عند عودته من الرحلة الشرقية عام 495/«01 - 1102» (7).

وهناك مغربي من مدينة مراكش حج عام 1004/497، وصار يتوفر على نسخة من نفس الكتاب، وهو ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني (8) على أن نسخا منه كانت - بالمنطقة معروضة للبيع واشترت - قبل تاريخ إحراقه عام 1109/503 (9).

واقع إحياء علوم الدين أيام المرابطين :

ومن هنا نتبين أن الفترة ما بين وصول الكتاب وإحراقه امتدت نحو ثمان سنوات، وكانت كافية لتداوله بين المهتمين، غير أن رؤيتهم لمحتواه تباينت، ومع مر الزمن تطور الخلاف حول إحياء علوم الدين إلى ثلاث اتجاهات خلال العصر المرابطي.

(3) «فهرسة ابن خير» ص 446.

(4) «اتحاف السادة المتقين» المطبعة الميمنية بمصر 1311 هـ : 147%.

(5) ابن الأبار في التكملة 6. مدريد 1886 رقم 1865 ابن القاضي في «جنوة الاقتباس» دار المنصور بالرباط 1974 : رقم 539، والذي جدد مكان اللقاء في مكة هو أن عبد الكريم في «المستفاد» قطعة من مخطوطة خاصة في فكيك.

(6) ابن الزيات في «التشويق» مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء 1984/1404 رقم 8. «وجنوة الاقتباس» رقم 377.

(7) سنة 495 : حدها تاريخا لعودته الى المغرب في كتابه «العواصم من القواصم» الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر : الجزء الثاني من كتاب «أراء أبي بكر العربي الكلامية» تأليف الدكتور عمار طالبي : ص - 290.

(8) أشرف ابن القطان الى نسخة ميمون الصنهاجي، ونسخة أبي بكر ابن العربي حسب «نظم الحمان» قطعة من السفر (13) : المنظمة المهدية تطوان دون تاريخ : ص 15 وترجمة ميمون الصنهاجي عند ابن الأبار في «التكملة» رقم 1337 وابن عبد

الملك في «الذيل والتكملة» السفر الثامن مطبعة المعارف - الرباط رقم 186، ومن المصدرين - معا - يؤخذ تاريخ حقيقته (9) في «نظم الحمان» ص : 16 : «وتوالي الاحراق» - على ماشرى منه (الأحياء) - بلاد المغرب بقية ذلك اليوم.

وكان الانجاء الرسمي يأتي في الطليعة، ويمثله عدد من فقهاء الأندلس والمغرب، يتقدمهم قاضي قرطبة محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، ت 1114/508 (10)، وهو الذي تزعم الطعن على الغزالي والفتوى بإحراق الأحياء (11)، وذلك ما يشرحه ابن القطان (12)، في هذه الفقرة :

«في أول عام ثلاثة وخمسمائة (1109) عزم علي بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها : على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - المسمى بالأحياء، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته مجلوده بعد إشباعه زيتا، وحضر لذلك جماعة من اعيان الناس، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده أمرا بإحراقه حيثما وجد، وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها كان معول الغزالية عليها، منها كتاب ميمون بن ياسين، وتوعده علي بن يوسف على إحضاره فأحضره له، وفقد الكتاب المذكور، ومنها كتاب ابن العربي : حمله مع نفسه إلى الجزيرة الخضراء، ثم أمر بحله في الماء، فحل معظمه وفقد سائرته، وتوالى الإحراق - على ما اشترى منه - ببلاد المغرب بقية ذلك العام». هذه فقرة ابن القطان، وهي واضحة في أن عملية الإحراق كانت تتجه إلى إحياء علوم،

وفي تعبير يوسف ابن طملوس (13)، تعميم لكتب الغزالي دون تخصيص :

«... فأحرقت كتب الغزالي... وخاطب الأمير - إذ ذاك - جميع أهل مملكته بامرهم بحرقها، ويعلمهم أنه هو الذي أدى مملكته بامرهم بحرقها، ويعلمهم أنه هو الذي أدى إليه نظر العلماء، وقرئت مخاطبته على المنابر، وشنع الأمر بذلك تشنيعا عظيما، وامتنح من كان عنده منها كتاب، وخاف كل إنسان على نفسه أن يرمى بأنه قرأ منها كتابا أو اقتناه، وكان من الوعيد مالا مزيد عليه».

ونفس التعميم عند المراكشي : (14).

(10) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعتها عند عياض في «الغنية» أصلا وتعليقا : رقم 2

(11) يقول ابن عطية عن ابن حمدين : «قرأت عليه رسالته في الرد على أبي حامد... الغزالي»، «فهرس ابن عطية»، دار

الغرب الإسلامي - بيروت 1980/1400 : ص 85

وفي تعبير عياض : «قرأت عليه بعض رسائله وردوده على الغزالي، وسمعت بعضها، «الغنية» ص 46.

وعند الصفاي «وأول ما دخل (الأحياء) إلى الغرب أنكروا فيه أشياء، وصنفوا عليه «الاملاء في الرد على الأحياء» «الوافي

بالفوات»، دار النشر، طهران إيران 1961/1381 : 275/1، فهل هذا الرد من تأليف ابن حمدين ؟

وهذه الردود غير معروفة الآن، بعد ما كان الذهبي وقف على بعضها واقتبس منها في «سير السلا»، حسب عبد الرحمان

ناجي : «مؤلفات الغزالي»، الطبعة الثانية 1977، وكالة المطبوعات - الكويت : ص 534 - 535

(12) ص 15 - 16.

(13) «كتاب المدخل لصناعة المنطق» : المطبعة الأفريقية - مدريد 1916 : ص 12.

(14) المعجب، مطبعة الثقافة - سلا 1938/1357 : ص 104.

«... ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب : أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد - من سفك الدماء واستئصال المال - الى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك».

ومرة ثالثة يأتي التعميم في رسالة من تاشفين بن علي عام 1143/538 :
«ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة، - وفقكم الله - كتب أبي حامد الغزالي : فليتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الايمان على من يتهم بكتابتها» (15).

وفي موازاة هذه الادانة لمع موقف المدافعين عن «إحياء علوم الدين»، والمناهضين لأحراقه، ويبدو أنهم كانوا جماعة متميزة في العصر المرابطي، وقد رأينا ابن القطان - وشيكا - يسمهم بلقب الغزالية»، والمعروف - الآن - من هؤلاء ينيفون على ستة سماء :
ويأتي في مقدمتهم مؤلف لم يذكر اسمه، وورد التنديد به عند ابن حميد (16)، كإحدى الحشيات لفتواه ضد «الاحياء» فيشير الى فقيه أندلسي اعتنق اتجاه الغزالي، وألف كراسة في الانتصار لإحياء علوم الدين».

ثم أبو الحسين البرجي : علي بن محمد بن عبد الله الجدامي (17) المري، تـ 509/1116»، قال عنه ابن الأبار : «وهو الذي أوجب في كتب أبي حامد الغزالي حين أحرقها أبو عبد الله بن حمدين... تأديب محرقيها، وتضمينه قيمتها، لأنها مال مسلم، وقيل له : أتكتب بما قلته خط يدك، قال سبحان الله : كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون، ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه، ودفع الى أبي بكر عمر بن أحمد بن الفصيح، وأبي القاسم بن ورد، وغيرهما من فقهاء المرية ومشايخها، فكتب كل واحد منهم بخطه : وبه يقول فلان، مسلمين لعلمه وزهده، فغاض ابن حمدين ذلك لما بلغه، وكسر منه، وكتب الى قاضي المرية... بعزله عن خطة إن كانت بيده، فأخبر بزهادته وانقباضه عن أهل الدنيا...»

وفي فاس كان يسكنها - أيام هذه الأزمة - أبو الفضل ابن النحوي : يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل، القلعي القيرواني، تـ 513/1119»، فوصل الى هذه

(15) حسين مؤنس : «نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين»، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثالث 1955/1374 ص 113.

(16) في الفقرة التي اقتبسها منه الذهبي، حسب عبد الرحمان بدوي ص 534.

(17) «المعجم في أصحاب القاضي الامام أبي علي الصديقي»، مطبعة روخنير مدريد 1885 : رقم 253.

واختصر القصة ابن الأبار في «التكملة رقم 1841 ثم ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» : السفر 5 مطابع سميا بيروت

المدينة كتاب علي بن يوسف بالتحريج على كتاب «الأحياء»، وتحليف الناس بالايان المغلظة أن ليس عندهم، فانتصر أبو الفضل لأبي حامد، وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك، وأفتى بأن تلك الايمان لا تلزم، وانتسخ كتاب الاحياء في ثلاثين جزءا، يقرأ كل جزء منه في يوم من رمضان، وقال ورددت أني لم أنظر في عمري سواه (18).

وفي تعبير أبي الحسن علي بن حرزهم : «... لما وقع هذا ذهبت الى أبي الفضل أستفتيه في تلك الايمان، فافتاني بأنها لا تلزم، وكانت في محمله أسفار فقال لي هي من الاحياء، ووددت أني لا أنظر في عمري سواها» (19).

والى هذا كتب أبو الفضل ابن النحوي فتوى يدافع فيها عن الاحياء أجاب بها فقهاء تلمسان (20).

— وفي ناحية مراكش نشير الى أبي محمد عبد الله الرجرجي الهليجي ثم الأغماتي الأوركي، ت قبل 540/ «45 - 1146»، يذكر عنه ابن الزيات (21) : «لما أفتى الفقهاء بمراكش بإحراق كتب الاحياء للغزالي، فأحرق بصحن جامع السلطان : سأل أبو محمد عن الذين أفتوا بإحراقه، فكان كلما سمي له واحد منهم دعا عليه...».



وبين هذا الاتجاه وسابقه موقف ثالث يحدد المواضع المنتقدة من الاحياء، دون التورط في الموافقة على إحراقه.

وأول أصحاب هذا الاتجاه هو الطرطوشي : محمد بن الوليد بن محمد الفهري نزيل الاسكندرية، ت 520/ «1126». ألف في معارضة الاحياء كتابا مطولا أشار له الضبي دون أن يذكر اسمه : «وله كتاب كبير يعارض به كتاب الاحياء، رأيت منه قطعة يسميه»، غير أن جمال الدين السيال (23) ينفي أن يكون للطرطوشي تأليف في هذا الاتجاه.

(18) «التشوف» : رقم 9.

أحمد النقاسي : الأنوار المتبلجة، من أسرار المنفعة» مخطوطة خاصة : عند المقدمة. «حنوة الاقباس» رقم 643.

(19) «التشوف» رقم 9.

«حنوة الاقباس» رقم 643.

(20) «مؤلفات الغزالي» ص 113.

(21) «التشوف» الترجمة رقم 33.

(23) أبو بكر الطرطوشي، «أعلام العرب 74، دار الكتاب العربي — القاهرة 1968 : ص 80.

ولحسن الحظ ظهر السفر الأول من كتاب الطرطوشي هذا، أثناء العمل في خزانة خاصة بمدينة مراكش عام 1983/1403، وتبين أن عنوانه هو «الأسرار والعبر» على بتر بآخر هذا السفر، حيث يشتمل على 177 ورقة، وفي مقياس 129/185 مم، مسطرة مختلفة، خط مشرقى نسخي واضح عتيق.

وللتعريف بكتاب «الأسرار والعبر»، نذيل على هذا العرض بملحق يشتمل على أهم فقرات المدخل الذي يحدد فيه المؤلف أغراض الكتاب. وللطرطوشي رسالة صغيرة في نقد الأحياء بعث بها إلى من سماه بعبد الله بن مظفر، وهي منشورة (24).

الثاني المازري : محمد بن علي بن عمر التميمي المهدوي، ت 536/«1141». ألف في الاتجاه ذاته «كتاب الكشف والانباء عن كتاب الأحياء»، ولا تعرف نسبته له إلا من خلال إشارة المقرئ (25).

كما أن كلا من الذهبي (26) والسبكي (27) أثبتا ملخصا لجواب المازري لمن سألته عن واقع كتاب أبي حامد.

الثالث ابن الالبيري : محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الأوسي نزيل قرطبة، ت 537/«1143»، ذكر له ابن الأبار (28) كتاب «الأمال في النقض على الغزالي». الرابع : أبو بكر ابن العربي سابق الذكر، فيقول (29) عن نقده للأحياء ومؤلفات أخرى للغزالي : «يعلم الله وتشهد لي كتبي ومسائلي وكلامي مع الفرق : بأني جد بصير

(24) نشرها وعلق عليها الدكتور التونسي سعد غراب، بعد تصديرها بتقديم جيد بعنوان «حول احراق المرابطين لأحياء الغزالي» : فصلا ص 158 — 163، ووردت — أيضا — عند النشر في «المعيار» 186/12 — 187.

(25) «أزهار الرياض» مطبعة فضالة الحمدي 1980/1400 : 166/3، ويلاحظ عن هذه النسبة أن المقرئ إنفراد بها، على تأخره عن عصر المازري، والذهبي الذي ذكر «الكشف والانباء» نسبة للمازري دون تحديد اسمه، («مؤلفات الغزالي» ص 533)، وبعد ذلك ذكر جواب المازري محمدا اسمه بمحمد بن علي الصقلي المازري، المصدر ص (540 — 541)، فهل يشير هذا التردد الذهبي في نسبة «الكشف والانباء» بين المازري المهدوي والمازري الذكي : محمد الفرج أو أبي الفرج، على أن هذا الأخير خلط ترجمته من الإشارة إلى تأليف في الرد على الأحياء وإنما ذكر طعنه في الغزالي حسب ترجمته بالمصادر التالية :

«إنباء الرواة» للقفطي، مطبعة دار الكتب المصرية 1955/1374 : 73/3 — 74

«الوفاي بالوفيات» للمصدي : 320/4 — 321.

«ومعالم الإيمان» للدباغي وإبن ناجي، مطبعة الشركة التونسية 1978 : 202/3 — 203.

«بغية الوعاة للسيوطي»، مطبعة السعادة بمصر 1326 هـ : ص 90.

(26) «مؤلفات الغزالي» ص 540 — 541.

(27) «طبقات الشافعية الكبرى» المطبعة الحسينية المصرية بالقاهرة 1324 هـ 122/4 — 123.

(28) «التكملة» رقم 607.

(29) «قائد التأويل».

بأغراض القوم ومقاصدهم، فإن معلمي كان فحلا من فحولهم عظيما من عظمائهم، وتالله كنت محتشما له، غير راض عنه، وقد رددت عليه فيما أمكن، واحتشمت جانبه فيما تيسر». وبين كتبه التي ناقش فيها الغزالي : «العواصم من القواصم» و«سراج المريدين»... الخامس : عياش بن موسى بن عياش اليحصبي السبتي، ت 544/«1149». ينقل عنه الذهبي فقرة من كتابه : «معجم أبي علي الصدي»، وورد فيها : «والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف، وتجرد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف فيه تأليف مشهورة، أخذ عليه فيها مواضع...» (30).

إحياء علوم الدين أيام الموحدين

وإلى هنا ينتهي عرض ملاح من واقع «الاحياء» أيام المرابطين، حتى إذا جاء عصر الموحدين تنفرج الأزمة، ويَزول التحجير على كتب الغزالي وبينها «إحياء علوم الدين»، وهي المبادرة التي يشيد بها يوسف ابن طملوس (31) في هذه الفقرة :

«... ثم لم تكن تمتد الأيام إلا قليلا وجاء الله بالامام المهدي رضي الله عنه، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه، وندب الناس الى قراءة كتب الغزالي رحمه الله، وعرف من مذهبه أنه يوافقه، فأخذ الناس في قراءتها، وأعجبوا بها وبما رأوا فيها من جودة النظام، والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف، ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي، إلا من غلب عليه إفراط الجمود من غلاة المقلدين، فصار قراءتها شرعا ودينا، بعد أن كان كفرا وزندقة».

1 - وفي ظل هذا الانفتاح عن الغزالي عكف على الاشتغال بالاحياء زمرة من المهتمين، فكان من يسمى بعمور البطاط يعقد حلقة لتدريسه، ويتكلم عليه بكلام القوم، حسب تعبير المصدر المعني (32).

2 - ونفس العمل يقوم به ابن الرمامة : محمد بن علي بن جعفر القيسي القلعي قاضي فاس، ت 567/«1172»، فيضطلع بتدريسه بأحد مساجد فاس (33).

3 - ومن تونس محمد بن محيو الهواري، وقد اعتكف على كتاب الغزالي حتى حفظه

(34).

(30) «مؤلفات الغزالي» ص 531.

(31) «كتاب المدخل لصناعة المنطق» ص 12.

(32) قطعة من «المستفاد» لادن عبد الكريم، مخطوطة في خزنة خاصة، فلكك.

(33) «المصادر» وترجمته عند ابن الأثير في «التكملة» رقم 1054 واس عبد الملك في «الذيل والتكملة» : السع 8 رقم

4 - ومن أغمات محمد بن اسماعيل الهواري تـ 581 «1185» فيدرس منه موضوعات الأذكار وما إليها، ويستعملها في تحفته (35).

5 - وكان يعاصره أبو مدين : شعيب بن الحسين الأندلسي دفين قرية العباد غرب تلمسان سنة 1198/594، وكان ملازماً لقراءة كتاب الأحياء عاكفا عليه (36). وفي اتجاه خدمة الأحياء بالتأليف كان ابن الرامة سابق الذكر صنف مختصراً له (37).

6 - وألف أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي كتاباً في علم التذكير، سماه «التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات، من المبادئ والغايات». قال الغبريني (38) : «وهو كتاب جليل، سلك فيه مسلك أبي حامد في كتاب الأحياء، وبه سمي أبا حامد الصغير».

7 - وفضلاً عن هؤلاء نشير للعاهل الموحدي عبد المومن بن علي، فيبدو أنه قرأ إحياء علوم الدين قراءة معمقة، فأفاد منه في الأنظمة التي سار عليها في تربية تلاميذ الموحدين، فيضيف إلى مواد الدراسة تدريبهم على الحركات الرياضية، فيأخذهم يوماً بتعلم الركوب، ويوماً بالرمي بالقوس، ويوماً بالعموم في بحيرة مراكش، ويوماً يتدربون في البحيرة ذاتها على ركوب القوارب وما إليها (39).

ومن الواضح أن هذه الأعمال ترتبط - في مبدئها - بتوصية الغزالي (40)، التربوية : «ويعود (الصبي) في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل...». ومرة أخرى يتأثر به منهاج عبد المومن في فرج الأدب بالعطاء، تجاوباً مع المصدر ذاته (41)، لما يقترح : «ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازي عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس...». ومن الناسخين لإحياء علوم الدين محمد بن يحيى الهواري التونسي (42).

(35) «المصدر» رقم 118.

(36) ابن سعد في «النجم الثاقب» مخطوط خ.س 2491، ونقله المقرئ في «نفح الطيب» دار صادر - بيروت 137/1968/1388.

(37) «صلة الصلة» لابن الزبير : القطعة المخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 850 تاريخ : قسم الخزائن التيمورية.

(38) «عنوان الدراية» ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1970/1389 : ص 67.

(39) «الحلل المشوية» تونس ص 114.

(40) «أحياء علوم الدين» المطبعة العثمانية المصرية 1933/1352 : لا/63.

(41) «المصادر» 63/3.

(42) «النشوف» رقم 56.

ومحمد بن اسماعيل الهواري الأغماتي (43)، وقد تقدم ذكره وسابقه بين الذين كان لهم اهتمام بكتاب أبي حامد.

8 - ابن الصقر : محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري الغرناطي، قال ابن الأبار (44) : «وكتب علما كثيرا منه «إحياء علوم الدين».

9 - أم العلاء : سيدة بنت عبد الغني بن علي العبدري الغرناطي، تـ 647/1249»، دخلت لفاس وتونس، ونسخت «إحياء علوم الدين» من الأصل الذي ورد به أبو زكرياء الدمشقي المعروف بالأصبهاني (45).

ونستنتج من هذه النماذج التسعة أن الاهتمام بكتاب الإحياء - في الغرب الإسلامي - ظهر أغلبه بين أوساط رجال التصوف، ويضاف لهذه الظاهرة شهادات تقديرية للكتاب من نفس الجهة : وصدر أولها عن أبي مدين سابق الذكر، فيقول : «طالعت كتب التذكير» فما رأيت مثل كتاب الإحياء» (46).

10 - وفي تعبير ابن الزيات (47) عند مقدمة «التشوف» : «وجردت هذا الكتاب من علوم التصوف، واقتصر على إيراد أخبار الرجال، فإن إحياء علوم الدين... هو المنتهى في ذلك».

11 - وفي ارتسامة أبي الحسن الشاذلي : «كتاب قوت القلوب يورثك النور، وكتاب إحياء علوم الدين يورثك العلم» (48).

وستأتي شهادة الشاذلي هي الحادية عشرة من شواهد اهتمام المنطقة بإحياء علوم الدين، وفي مواجهة هذا التقدير نتذكر فقرة ابن طملوس الواردة صدر هذا العرض الموحد، وفيها تنديد بفئة المناهضين - في العصر ذاته - لكتب الغزالي، وفيما يتصل «بالإحياء» لم نقف - الآن - إلا على نقد صدر عن سليمان الأندلسي نزيل بحجاية، والمعروف بكثير، فكان يقول عن كتاب الإحياء : «ومتى ماتت العلوم حتى تحيي علوم الدين، وما زالت حية ولا تزال» (49).

(43) «المصدر» رقم 118.

(44) «التكملة» رقم 874.

(45) «المصدر» رقم 2129.

(46) «الذيل والتكملة» السفر 8 رقم 261.

(47) «عنوان الدراية» ص 56، وعند ابن الزيات : «نظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي».

(48) «التشوف» ص 214.

(49) «المصدر» الأخير ص 36.

(48) إن عطاء الله في «لطائف المنن»

(49) «عنوان الدراية» ص 239.

وموقف ثان صدر عن أبي محمد الفشتالي، وتناول كتب الغزالي دون تحديد، فينقل عنه القباب : « كتب الغزالي يجب أن تقبل حيث يتكلم في المسائل الفقهية، فهو فيها إمام متفق على تقديمه، وما وراء ذلك من غوامض العلوم المتعلق بالعالم الغائب ينبغي للضعيف أن يعزل سمعه عنها... » (50).

ملحق

يشتمل على أهم فقرات المدخل لكتاب «الأسرار والعبر»

على جمعه أنني كنت في الأرض المقدسة في المسجد الأقصى... فعند اختتام المجلس قبض على يدي شيخ دهري قد سقطت حاجباه من الكبر، وقال لي : يا بني إن الله - سبحانه وتعالى - لم يأمرنا أن نلقاه بمذهب مالك والنووي وأبو حنيفة والشافعي، وإنما أمرنا أن نلقاه بالتقوى فقال : «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» فبالله أقسم قسما حقا لقد ضعضع جثماني... فشرعت في تصنيف كتاب في التقوى وحقيقته وأقسامه، وهل هو من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح أو كليهما.

فصل : واعلم أنه قد صنف المصنفون في هذه الأبواب كتباً تفوت الحصر، فاللواوين الكبار الجليلة، منها مثل كتاب «جيلية الأولياء» لأبي نعيم الإصبهاني، وكتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتاب «دليل القاصدين» لأبي بكر بن السمنطاري المغربي، وكتاب «اللولايات» لمكحول، وكتاب «النصائح الكبير» لأبي إسحاق المغربي، وكتاب «الرعاية» للمحاسبي، وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي الطوسي، وهو أكثرها علماً، وأقواها حجة، إلا أنا كررنا منه خلافاً خمسة.

أحداها : أن فيه (51) من الرسول عليه السلام، ولعمري ما يقصد (52) مع ألف ديوان بكذبة واحدة على رسول الله عليه السلام، إلا أن الرجل لم يتعمد منها كلمة إن شاء الله،

(50) نقلة النشرسي في «المعيار» دار الغرب الاسلامي بيروت 1981/1401 : 121/11. وأبو محمد الفشتالي : هو عبد الله بن موسى بن مالك، كان بغي الحياة أوسط ق 13/7، ويقول عنه ابن الأحمر : «كان فقيها مفتياً مدرسا بفاس، صالحاً ورعاً زاهداً مكاشفاً، وكان من الدين والصلاح في المحل الذي لا يخفى، ومكاشفاته وعلو منزلته أكثر من أن تحصى». حسب تعبير «نثر جمان» ط. مؤسسة الرسالة. بيروت 1976/1396 : ص 358 — 359.

وللمنوه به موقف متشدد أكثر إزاء كتب الغزالي، حيث نقل ذلك كل من ابن القاضي والتنبكتي عن «كتاب الحلال والحرام» للأمام راشد الوليدي، حسب «جنوة الاقتباس» ص 196 — 197 و«نيل الانتهاج» المنشور بهامش الديباج، مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ : ص 117.

(51) غير واضح القراءة

(52) غير واضح القراءة

وإنما نقل من كتب لمعرفة له بها، وقد اعتذر الرجل على ذلك فقال : بضاعتي في الحديث مزجاة.

واعلم أن من رأى حديثاً في كتاب لا يعرف صحته : لا يجوز له أن يقول : قال رسول الله عليه السلام، وهذه مسألة قد أوضحتها في أصول الفقه، وبينت فيه اختلاف العلماء في كيفية رواية الحديث وإيراده...

والخصلة الثانية : أنه لما نوع العلوم اعترضه علم التوحيد، فجعل ينقل فيه كلمات عن رجال من العلماء من أهل القرن الثالث : مثل مالك والشافعي وأحمد، وأن فلانا ذمه، وفلانا مدحه، وقد جاء فيه بطامة، لأن علم التوحيد ومعرفة الله - تعالى - هو شرط في سائر علوم الدين، وجميع علوم الدين مبنية عليه، وإنما هي فروع ونتائج لهذا الأصل، والخطأ في أكثرها (53) بل المخطيء فيه ماجور، وهذا العلم فرض على أعيان الأمم، فالعامد والجاهل والمخطيء فيه غير معذورين، فكيف يجوز على ذي لب أن يعتمد إلى قطب الدين وأساس الاسلام يفض من منصبه، ويحيل فيه على ما قيل وقال...

والخصلة الثالثة : مذاهب شنيعة نقلها من «رسائل إخوان الصفا»، وهم قوم باطنية كفار يتأولون القرآن على غير تأويله، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

والخصلة الرابعة : إباحة الغناء والسماع.

والخصلة الخامسة : ما ذكر في كتاب الأطعمة من الحكايات التي لاتليق بالكتب الدينية.

مع أنه ناقص الأبواب عما اشتمل عليه علوم المقاومات والأحوال : مثل كتاب معجزات الأنبياء، وكتاب كرامات الأوليات، وكتاب البكاء.

وكذلك مثل ما ذكر فيه أشياء لأصل لها عند العلماء : مثل الأوراد المقسطة على ساعات الليل والنهار، واختصاص كل ساعة منها بنوع من الذكر، واختصاص كل يوم بنوع من الصلوات غير ما ذكر في اليوم الآخر وليلته : كل هذا كذب مختلف، وإنما أدخله صاحب القوت، وقد ذكرت في كتاب إحياء الليل فأورد فيه.

فانتخب غرر هذه الدواوين وأنظارها، وجمعت حكمها ومحاسنها، وغصت فيه على أسرار القرآن جواهره، واستخرجت الكثير من دقائقه وعجائبه، ولم آل جهداً في الاعتصام بالقرآن وصحيح السنة والآثار، وإن كان لايجد بدا من ينصف في هذه الأبواب من إدخال الحديث اللين، لأن كثيراً من السلف قد كانوا يستجيزون ذكر الحديث اللين سنده إذا كان خارجاً عن الحلال والحرام. متعلقاً بالسير والمواعظ.

وأودعت فيه من سير الأنبياء وحكمة الحكماء ونكت العلماء وإشارات الأصفياء وأخلاق الأولياء : ما لم يحوه كتاب جامع، وأريت فيه على من صنف في هذه الأبواب بفوائد عجيبة لم يذكرها. فارتفع الكتاب بذلك عن الكتب الموضوعة في الوعظ المحض، وفارق به الكتب الموضوعة للعلم المحض دون العمل، فاحتوى على العلم والعمل.

فلعمري لو اقتصر عليه المرید... (54) لقرع به باب الجنة، وغلقت دونه أبواب جهنم واستغنى به عما سواه، لأن السعادة منوطة بحرفين : أحدهما أن تعرف الله، والثاني أن تعرف خطابه إليك فتعمل به، وهذه الخلائل موثوقة في هذا الكتاب، مسدودة بمسامير التحقيق... واعلم أنه لا يجمع العلماء في هذه الأبواب إلا ما فرقه أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي، فله في هذه الفنون نحو من أربعمئة تصنيف.

وأما تجربته فجزيته على أربعة أرباع : الأول ربع المعارف، والثاني : ربع العبادات، والثالث : ربع المعاملات، والرابع : ربع الأحوال والمقامات، ثم اتبعته بالكتاب الجامع، يحتوى على كتب في فنون شتى شذت عن تراجم الأرباع، ومبلغ جميعها مائة كتاب.

معالم ثقافية في مراكش الموحدية *

عرفت مراكش الموحدية منشئات تعليمية ذات أقدمية، غير أنها أغفلتها المصادر التاريخية الموضوعية، بينما حافظت على ملامحها ووثائق أو نصوص دفينية. وهدف هذا التدخل الكشف عن تلك المنشئات من خلال الاشارات الغميسة، والمعني بالأمر ثلاث مدارس، وأربع خزائن، مع القبة المنصورية، وخارجا عن مراكش : المسجد العتيق بتينمل، والروضة المقدسة بتينمل.

أولا : المدارس الموحدية

وكما تبينا فهي ثلاثة : اثنتان منها بالقصبة الموحدية أو المدينة المنشية، وهي التي شادها يعقوب المنصور جنوب مراكش العتيقة، أما الثالثة فكانت بمراكش القديمة.

1. ويعود الفضل في الحفاظ على خير المدرسة الأولى : الى العمري، فيذكر عند مادة مراكش من مسالك الأبصار (1) : الرحبة الكبرى أمام باب الرياض : الباب الثالث للقصبة، ويعقب قائلا : «وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب».

والغالب، أن هذه المؤسسة، هي التي يوضح الوزان الفاسي (2) معالمها وهو يصف قصور مراكش الجديدة، فيأتي - خلال ذلك - بهذه الارتسامة : «ويوجد - أيضا - بعيدا من هناك قصر جميل آخر، كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر، مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملون، وحول القاعة خزانات كثيرة...»

(1) محمد المنوي : «ووقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، مطابع الاطلس - الرباط : ص. 302 - 303.

(2) «وصف إفريقيا» : الترجمة العربية، دار الغرب الاسلامي في بيروت، الطبعة الثانية 1983 : 133/1.

2. وإلى هذه المدرسة الخاصة : كان في قصبة مراكش مدرسة عامة، وكانت أولى إشارة لها، سجلت في فقرة قصيرة يحتفظ بها مخطوط من نفس العصر، وجاءت صياغتها كالتالي : «حبس على المدرسة بقصبة مراكش حرسها الله»، وقد رسمت هذه الوقفية - بخط عتيق - أول كتاب «الانجاد في أبواب الجهاد...» لابن أصبغ الأزدي، في نسخة كتبت برسم ادريس الواصل آخر الحكام الموحدين، ثم صارت الى مكتبة ابن يوسف، حيث تحفظ بها تحت رقم 216.

ولتأكيد استمرار هذه المدرسة الى أواسط القرن 14/8 : تأتي وقفية العاهل المريني أبي عنان، الكتاب «مشارق الأنوار» للقاضي عياض، وهو في نفس المكتبة رقم 1/284، فيبتدي الباقي من الوثيقة العناية هكذا : «... الكائنة بالمدرسة التي بجوف (أي شمال) جامع المنصور بمراكش».

وستفيد هذه الفقرة - أيضا - تحديد موقع المدرسة عند شمال جامع المنصور، بعدما عرفنا بوجودها الى أواسط القرن 14/8.

على أن الوزان الفاسي، يفيد بقاء المدرسة الى عصره : عند القرن 16/10، ويضيف وصفها (3) كالآتي : «وفي القصبة - أيضا - مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة سبق، وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه، ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتبا قدره مائة أو مائتا مثقال، حسب نوع الدروس المطوقين بالقائنها، ولم يكن «يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادئ العلوم معرفة تامة».

وهكذا يصف الوزان الفاسي، الوضع الدراسي في هذه المؤسسة إبان ازدهارها، ويقدمها كمدرسة عليا، ولا ينخرط فيها إلا الطلبة الحاصلون على درجة تامة في معرفة مبادئ العلوم. ومن هنا ينتقل المصدر (4) ذاته الى الوصف المادي للمدرسة هكذا : «وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطي الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللامع : المقطع على شكل أوراق رقيقة، أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة.

وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللامع، كالذي يستعمل في اسبانيا، وفي وسط المدرسة فسقية منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة».

(3) «المصادر» 132/131.

(4) 132/1.

ويختتم الوزان بوصف حاضِر المدرسة قائلا : «وكان بالمدرسة قديما - حسبا سمعت - عدد كثير من الطلبة، لكنهم اليوم لايتجاوزون خمسة طلاب، مع أستاذ جهاه بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالأدب، وأقل من ذلك بشئ آخر».

وعند هذا التعليق : ينتهي وصف مدرسة جامع المنصور بالقصبة، ومنه نستفيد - أيضا - الشكل المعماري للمدرسة الموحدية، وهي فائدة مهمة، وستسمح لنا بأن نستنتج أن المرينيين لم يتكروا تصميم مدارسهم، وإنما قلّدوا الموحدين مع زيادة إضافية.

3. ونصل - الآن - الى ثلاثة المدارس بمراكش الموحدية، وهي التي كانت بالمدينة القديمة، والمصدر الذي حافظ عليها، هو وثيقة مكتوبة على السفر الرابع من كتاب «التمهيد» لابن عبد البر، من مخطوطات مكتبة ابن يوسف رقم 460، حيث تتضمن وقف السفر المشار له من جهة العاهل الموحدي عمر المرتضي، أواسط القرن 13/7، وجاء في الوقفية أن العاهل المنوّه به، حبس السفر الرابع من كتاب «التمهيد» على من يقرأ فيه من المسلمين - وفرهم الله تعالى - بمدرسة العلم بالجامع المرتضي - شرفه الله تعالى - من حضرة مراكش... ثم تؤرخ الوقفية في غرة شعبان، عام ثمانية وخمسين وستائة (1260).

ونفس الوقفية. أعيدت كتابتها بأول السفر الثامن من كتاب التمهيد، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 927، على خروق في عدد من كلمات الوثيقة. وما يؤكد أن هذه المدرسة كانت بمراكش القديمة، وليست هي مدرسة المدينة الجديدة : وجود وثيقة - سياقي الاستناد لها - تفسر الجامع المرتضي بجامع السقاية، ومن المعروف أن هذا هو نفس جامع ابن يوسف.

ولا يبعد أن يكون موقع هذه المدرسة، هو مكان مدرسة ابن يوسف الحالية، وقد يكون يعقوب المريني جددّها، أو بنى مدرسة على انقاض المدرسة الموحدية. ونعقب - الآن - بأن مصادر المدارس الثلاث، تتضمن إشارات - ولو أنها مقتضبة - الى الخزائن الموحدية التي كانت بالمدراس.

4. وأولاها : خزائن الكتب الواردة عند العمري، حيث تبينا - سلفا - قوله : «وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب».

وهذه الخزانة ذكرها - أيضا - الوزان الفاسي (5)، بعد فقرة المدرسة الملكية سابقة الذكر، وهو يقول عنها : «... وحول القاعة خزانات كثيرة، مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب، وبالأزوردي الرفيع».

وإذا سائرنا المصدر الأخير، فإن هطه الخزانة كانت تابعة للمدرسة الملكية، فتكون خاصة.

5. وتأتي بعدها وقفية كتابي الانجاد ومشارق الأنوار، حيث أفادنا ذلك — وشيكا — بوجود مدرسة جامع المنصور، ثم نستفيد — الآن — وجود خزانة هذه المدرسة.
6. وهذا — أيضا — هو شأن وقف المرتضي لكتاب التمهيد، على مدرسة جامع ابن يوسف.

فيبدو من طبيعة هذه المدرسة ومدرسة جامع المنصور : أن الخزانتين — بهما — كانتا عامتين، ومما يؤيد هذا العموم : فقرة من تحبيس المرتضي للتمهيد، فيذكر فيها وقفه على من يقرأ فيه من المسلمين. ويضيف : «متى أرادوا القراءة فيه من ليل أو نهار، من غير إخراج له عن المدرسة».

وإلى الآن لا يعرف مصدر يتحدث عن مآل الخزانتين، أما خزانة المدرسة الملكية، فقد انحدرت الى مصير مذهب خلال القرن 16/10، وذلك ما يسجله الوزان (6)، في هذه الارتسامة المؤسفة : «... والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج، واخر للحمام، وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب اقفاصا لهذه الطيور».

والى هذه الخزائن، كان بمراكش القديمة خزانة عامة من طراز آخر، وهي خزانة المصاحف الشريفة في جامع ابن يوسف، وقد كان عمر المرتضي كتب — بخطه — ربعة قرآنية من عشرة أجزاء، وحبسها جميعها على جامع ابن يوسف الذي جدده، فيوجد بالجزئين الأول والرابع — من الربعة المنوه بها — وثيقة يوقفها من جهة، ناسخها على الجامع العتيق المرتضي، ويوضح هنا بأنه هو جامع السقاية، الذي بناه الوافق بحضرة مراكش، على أن يكون استقرار الربعة القرآنية، بالبيت (7)، المعين للمصاحف المحبسة قبلها (8)، بالقبلة، المتصل بالمحراب، ثم تؤرخ الوثيقة في الثاني من رجب عام ستة وخمسين وستائة (1258) : الجزء الأول من مكتبة ابن يوسف رقم 432، والجزء الرابع من متحف الأوداية بالرباط رقم 470/754.

(6) «المصدر» 134/1.

(7) في كتاب «مراكش» لديفردون 569/1 — 570 — : «والقاعة الكبرى التي خصصت للكتب بجامع ابن يوسف، بناها مولاي الحسن (1)» الذي امر بجمع كل الذخائر الباقية في جوامع المدينة، وهي قاعة كبرى مرتفعة، تقع وراء حائط القبلة من الجانب الشرقي»

فهل بنيت هذه القلعة مكان بيت المصاحف المرتضي ؟

(8) الفقرة تشير الى مصاحف شريفة موقوفة بالبيت — المنوه — قبل ربعة المرتضي

والى هنا تبينا سبع مؤسسات تعليمية — متنوعة — بمراكش الموحدية، ويضاف لها ...
الآن — «القبلة المنصورية»، وقد كان يعقوب المنصور — وهو على فراش الموت — أوصى
بالطبة (اللقب الذي كان يعرف به العلماء) أن يكون لهم موضع لخاصتهم يشغلون فيه
بالمذاكرة (9).

ونتصور أن هذا الموضع هو الذي بني من بعد وصار يحمل اسم «القبلة المنصورية»،
ويمدنا ابن عبد الله باسمها وتحديد موقعها، وجاءت المناسبة عند ترجمة عالم أندلسي نزل
بمراكش، وكان بارعا في العدد والهندسة، حسن النظر في الطب صناعة وعلاج، فيقول عنه في
«الذيل والتكملة»: «وانتصب لافادة ما كان له من المعارف «بالقبلة المنصورية»، إزاء الجامع
الأعظم المنصوري بمراكش، وهي القبلة الكائنة بمقربة من الزاوية، الملتقي عليها الخطان الشرقي
والشمالي بانحراف يسير منهما، مقابلة القيسارية هناك».

وكان العالم المشار له هو أبو جعفر بن منعم: أحمد بن إبراهيم بن علي العبدري
الداني، نزيل مراكش ودفنها عام 626 / (28 — 2229).

ويمكن أن هذه القبلة هي التي يذكرها ابن عذاري (11) — عرضا — باسم القبلة
المعروفة لجلوس العلماء.

ولا يبعد أن تكون هي بيت الطلبة؛ الذي امتحن فيه ابن عات في صحيح مسلم

(12).

والآن: نبتعد عن مراكش بمائة ميل وميل واحد، وبالضبط عند المسجد العتيق أو
مسجد المهدي بن تومرت بتينمل، فيذكر مؤلف «رحلة الوافد» (13) هذه الفقرة: «... وكان
يأتي من عدوة الأندلس — من العلماء — فقيه وأستاذ لتدريس العلم بمدينة تينال»، وهي
قولة أرسلها هذا المصدر، دون أية إحالة على مستندها.

ولحسن الحظ تؤكد هذه القولة في الجملة، إشارة من ابن عبد الملك (14) عند ترجمة
ابن مضاء: «أحمد بن عبد الرحمن بن محمد القرطبي الجياني الأصل، فيذكر عنه أنه لحق

(9) ابن عذاري: «البيان المغرب»: الجزء الموحد ط. تطوان: ص. 208 — 209.

(10) دار الثقافة — بيروت 60/1.

(11) «البيان المغرب» ص. 319.

(12) الغبيني: «عنوان الدراية»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر: ص. 230، وتعليقا على بيت الطلبة بمراكش:
يبدو أنه كان بين التقاليد التي نقلها الحفصيون إلى تونس، فرد — عند ابن الطواح — هذه الفقرة: «... فرفعها للامام
المستنصر، فأمر بادخاله بيت الفقهاء»: حسب «سبك المقال»: تنطوط خ.س. 105/ص. 157.

(13) مصورة خ.ع.د. 1607: لوحة 447:

(14) الذيل والتكملة 218/1 — 219.

بجبل تنمل، فاستقر به مدرسا للعلم، ناشرا ما لديه من المعارف، وذلك في عشر الأربعين وخمسمائة، وفي دولة عبد المومن... فأخذ عنه هناك أهل ذلك الموضع وغيرهم». ونعود — مرة أخرى — الى مؤلف «رحلة الوافد» (15)، وهو ينوه بمسجد ابن تومرت : «ومن رأى شغل بنیان مسجده العتيق الذي بتينال، وأسفار خزائنه الموضوعية فيه لتدريس العلوم...»

ونختم هذا العرض بالإشارة الى صيغة وقفية على جزء من مصحف اشبيلية في مكتبة ابن يوسف بمراكش رقم 429، فيوجد عليه تحبیس للقراءة على القبر الذي بالروضة المقدسة في تينال، بتاريخ رمضان 649/1252). . ويمثل هذا الجزء السادس عشر — تجزئية 20 — من ربعة قرآنية شريفة، وجاء في آخره : «كمل الجزء السادس عشر من المصحف الكريم... وكان كماله بمدينة اشبيلية... في العشر الاخر من شهر ذي القعدة، سنة اثنتين وثلاثين وستائة».

المصادر والمراجع

ويأتي ترتيبها حسب عصور مؤلفيها، أو حسب تاريخ نشرها في مؤلفات وأبحاث المعاصرين.

I المخطوطات

- (1) فهرس القاضي عياش، مخطوط خاص
- (2) تعليق ابن رشد الحفيد على الفية ابن سينا في الطب. مخطوط خاص
- (3) نظم العقود ورقم الحلل والبرود اسم ديوان السيد أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الموحدي. مخطوط خاص.
- (4) الاكمال والاعلام، في صلة الاعلام، بمجالس الاعلام. من أهل مالقة الكرم اسم كتاب بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها، ابتداء تأليفه ابن عسكر : محمد بن علي بن خضر الفسائي المالقي، وكملة ابن أخته ابن خميس : محمد بن محمد بن علي مخطوط خاص.
- (5) روض الأندلس، ونزهة النفس تأليف صالح بن شريف الرندي : السفر الأول. مخطوط خاص.
- (6) ولنفس المؤلف الوافي في نظم القوافي مخطوط خاص.
- (7) رحلة العبدري محمد بن محمد الحبشي، مخطوطة خ.ع.د 1012.
- (8) منهاج الطالب في تعديل الكواكب لابن البناء. مخطوط خاص.
- (9) الدوحة المشتكة في أحكام دار السكة تأليف علي بن يوسف الحكيم الكوفي المدبوني. مخطوطة خاصة.
- (10) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري أحمد بن يحيى بن فضل الله القرسي الدمشقي : قسم الممالك. مخطوط خاص.
- (11) شرح روضة الأزهار، للجادري، تأليف الموسي أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي. مخطوط خاص.

(12) مشاهير أعيان فاس في القديم المنسوب لأبي الوليد ابن الأحمر : اسماعيل بن يوسف بن محمد الأنصاري الغرناطي نزيل فاس، مخطوط العالم الجليل محمد بن أبي بكر التطواني.

(13) ذيل فهرس ابن غازي : محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي نزيل فاس. مخطوط خاص.

(14) الجمان في أخبار الزمان للحاج الشطبي محمد بن علي بن محمد الصقلي ثم الأندلسي البرجي، نزيل مدشر تازغدة من قبيل بني زرول. مخطوط خاص.

(15) شرح مورد الظمئان تأليف ابن عاشر عبد الواحد بن أحمد بن علي الأنصاري الأندلسي ثم الفاسي. مخطوط خاص.

(16) تغريد العندليب، على غصن الأندلس الرطيب اسم مختصر نفح الطيب للمقري : تأليف ابن الوكيل الميولي : يوسف بن محمد القاهري. مخطوط خاص في حوزة البعض.

(17) نشر المثاني للقادري محمد بن الطيب الفاسي، مخطوط المكتبة الأحمدية بفاس.

(18) الخبر المغرب عن الأمر المغرب، الحال بالأندلس والمغرب، لأبي رأس المعسكري : محمد بن أحمد بن عبد القادري الجليلي الجزائري. مخطوط خاص.

(19) تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، للزياني أبي القاسم بن أحمد بن علي نزيل فاس. مخطوط خاص.

(20) الاشراف على بعض من بفاس من مشاجير أشراف لابن الحاج محمد الطالب بن حمدون بن عبد الرحمن السلمي المرداسي الفاسي. مخطوط خاص.

II المطبوعات : التاريخ وما إليه

(21) مجموع أخبار المهدي ابن تومرت، ط دار كوتر ببارس 1928.

(22) زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر جامعه : صفوان بن ادريس بن ابراهيم التجيبي المرسى، بيروت 1939/1358 دون ذكر المطبعة، واختصاره زاد المسافر.

(23) رحلة ابن جبير محمد بن أحمد الكناني البلنسي، مطبعة السعادة بمصر 1908/1326.

(24) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، للمراكشي عبد الواحد بن علي التميمي، مطبعة السعادة بمصر 1324، واختصاره : المعجب.

(25) أخبار ملوك بني عبيد وسيوتهم، لابن حماد محمد بن علي، مطبعة جول كربونل — الجزائر 1346 هـ.

- (26) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني المصري، مطبعة السعادة بمصر 1326 هـ.
- (27) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي نزيل تونس، مجريط 1886 — 1889 : في سفرين، واختصارها التكملة.
- (28) زوائد التكملة لنفس المؤلف، مدريد 1915.
- (29) التكملة لنفس المؤلف : القسم الضائع من مطبعة مجريط، نشر المطبعة الشرقية — الجزائر 1920/1338.
- (30) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشافعي، المطبعة الوهية بالقاهرة 1882/1299 : في سفرين، واختصارها طبقات الأطباء.
- (31) وفاء الأعيان... لابن خلكان أحمد بن محمد بن ابراهيم اليرمكي الأربلي، مطبعة بولاق بالقاهرة 1399 هـ : في سفرين، واختصارها وفاء الأعيان.
- (32) المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح، للماجري أحمد بن ابراهيم بن أحمد، المطبعة المصرية 1933/1352، واختصاره المنهج الواضح.
- (33) صلة الصلة لابن الزبير أحمد بن ابراهيم الثقفي العاصمي الجبلي ثم العرناطي : القطعة المنشورة في المطبعة الاقتصادية بالرباط 1938، اختصارها صلة.
- (34) عنوان الدراية...، للغرني : أحمد بن محمد بن عبد الله البجائي، المطبعة الثعالبية بالجزائر 1910/1328، واختصارها عنوان.
- (35) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، مؤلفها غير مذكور، مطبعة جول كربونل — الجزائر 1920/1339. اختصارها الذخيرة السنية.
- (36) المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء : اسماعيل بن علي بن محمود الكردي أمير حماة، دار الطباعة بالقسطنطينية 1286 هـ : في سفرين : اختصاره تاريخ إلى العداة.
- (37) الأنيس المطرب بروض القرطاس، لأبن أبي زرع، المطبعة الحجرية الفاسية للقادري. اختصاره قرطاس.
- (38) مسالك الأبصار... سابقة الذكر عند رقم 10 : السفر الأول المنشور في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1924/1342.
- (39) خريدة العجائب...، لابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر الكندي المعري السوري، مطبعة الحلبي بمصر 1341 هـ.
- (40) جني زهرة الأس. في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي، ط الجزائر 1922. اختصارها زهرة الأس.

- (41) رحلة ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1377/1958.
- (42) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الدمشقي، المطبعة الحسينية المصرية 1324 هـ : في ستة أجزاء.
- (43) الاحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين ابن الخطيب : محمد بن عبد الله سعيد السلماني الغرناطي، مطبعة الموسوعات بمصر 1319 هـ : جزآن منها، اختصارها الاحاطة.
- (44) شرح أرجوزة رقم الحلل في نظم الدول المتن والشرح كلاهما لنفس المؤلف، المطبعة العمومية بتونس 1317 هـ.
- (45) معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار، للمؤلف ذاته، مطبعة أحمد يماني بفاس 1325.
- (46) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لأبي عبد الله بن أبي المعلى بن سمالك، وطبع منسوباً — غلطا — للسان الدين ابن الخطيب، مطبعة التقدم الإسلامية بتونس 1328 هـ. اختصارها حلل.
- (47) الدياج المذهب... لابن فرحون : ابراهيم بن علي بن محمد اليعمرى المدني، مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ. اختصاره الدياج.
- (48) المقدمة لابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي التونسي، المطبعة البهية بمصر دون تاريخ.
- (49) الوفيات لابن قنفذ : أحمد بن حسن بن علي القسنطيني، ط. بمصر دون ذكر المطبعة وتاريخ النشر.
- (50) صبح الأعشى... للقلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1331 — 1338/1913 — 1919 : في 14 سفرا.
- (51) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبعة من سني الأثار، للأنصاري : محمد بن القاسم السبتي، مطبعة الريف — تطوان 1359/1940، اختصاره : اختصار الأخبار.
- (52) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي : عبد الرحمن بن محمد الحضيري القاهري، مطبعة السعادة بمصر 1326 هـ، اختصارها : بغية.
- (53) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، لنفس المؤلف، المطبعة الشرفية بمصر 1327 هـ.
- (54) الروض المhton في أخبار مكناسة الزيتون، لابن غازي، سابق الذكر عند رقم 13، المطبعة الحجرية الفاسية، اختصاره الروض المhton.

- (55) جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، لابن القاضي : أحمد بن محمد بن محمد الزناتي الفاسي، المطبعة الحجرية الفاسية 1309 هـ، اختصارها جدوة.
- (56) نيل الابتهاج بتطريز الدياج، تأليف باب السوداني : أحمد بن أحمد بن أحمد (ثلاثا) الصنهاجي التكروري، منشور بهامش «الدياج المذهب»، في مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ. اختصاره نيل.
- (57) نفح الطيب... للمقري : أحمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني، نزيل فاس ثم دمشق بالقاهرة، المطبعة الأزهرية المصرية 1302 : في أربعة أسفار، اختصاره نفح.
- (58) أزهار الرياض... لنفس المؤلف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1358/1939، صدر منه ثلاثة أسفار.
- (59) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مؤلفه حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله التركي، مطبعة العالم بالاستانة 1310 هـ.
- (60) شذرات الذهب...، لابن العماد : عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي الحنبلي، نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 1350 — 1351 هـ : 8 أسفار. اختصارها : شذرات.
- (61) بيوتات فاس الصغرى، للفاسي : عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي الفهري، المطبعة الحجرية الفاسية دون تاريخ، ونسبت — غلطا — لمحمد بن عبد القادر الفاسي أخي المؤلف.
- (62) الدر النفيس... للحبلي : أحمد بن عبد الحي نزيل فاس، المطبعة الحجرية الفاسية 1314 هـ.
- (63) نشر المثاني... للقادري سابق الذكر عند رقم 17، المطبعة الحجرية الفاسية 1310 هـ : في سفيرين.
- (64) دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني.
- (65) صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تأليف يريم الخامس محمد بن مصطفى بن محمد التونسي، المطبعة الاعلامية بالقاهرة 1302 هـ : في خمسة أسفار.
- (66) خلاصة تاريخ العرب، لعلي باشا مبارك المصري، هذب بها ترجمة كتاب سيديو الفرنسي، مطبعة مصطفى محمد بمصر 1309 هـ.
- (67) الاستقصا...، للناصري أحمد بن خالد بن حماد السلوي، المطبعة المصرية 1312 هـ في أربعة أسفار.
- (68) تاريخ سوريا، للمطران يوسف الدبس، المطبعة العمومية — بيروت 1893 — 1902 : 8 أجزاء.

- (69) تاريخ الأدب العربية، تأليف جرجي زيدان، مطبعة الهلال 1911.
- (70) مختصر في تاريخ آداب اللغة العربية لنفس المؤلف، مطبعة دار الهلال بمصر 1947.
- (71) تاريخ التمدن الاسلامي لنفس المؤلف، مطبعة الهلال 1931 : 5. أجزاء.
- (72) الفنون الجميلة قديما وحديثا (التصوير)، تأليف أحمد يوسف، مطبعة المعاهد بمصر 1922/1341.
- (73) دائرة معارف القرن الرابع عشر هـ... لمحمد فريد وجدي، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر 1925/1343 : عشر أسفار.
- (74) مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لبوجداد : محمد بن مصطفى الرباطي، مطبعة الجريدة الرسمية بالرباط 1345 هـ. اختصارها مقدمة الفتح.
- (75) سلوة الأنفاس...، للكتاني محمد بن جعفر الحسني الفاسي، المطبعة الحجرية الفاسية 1316 هـ : ثلاثة أسفار. اختصارها سلوة.
- (76) الفكر السامي...، للحجوي محمد بن الحسن الفاسي، ابتدء طبع الجزء الأول في مطبعة إدارة المعارف بالرباط عام 1340 هـ، وكمل بمطبعة البلدية بفاس 1345 هـ، وباقي الأجزاء بتونس وفاس : أربعة أجزاء.
- (77) النظام في الاسلام لنفس المؤلف.
- (78) التراتيب الادارية... للكتاني : محمد عبد الحي بن عبد الكبير الحسني الفاسي، المطبعة الوطنية، بالرباط 1346 هـ : سفران.
- (79) فهرس الفهارس...، لنفس المؤلف، المطبعة الجديدة بفاس 1346 — 1347 — 1927 — 1928 : سفران.
- (80) إتحاف أعلام الناس... لابن زيدان : عبد الرحمن بن العلوي الاسماعيلي المكناسي، المطبعة الوطنية، الرباط 1347 — 1929/1352 — 1933، صدر منه خمسة أسفار.
- (81) أسفي وما إليه للكانوني : محمد بن أحمد العبدى الأسفي، مطبعة مصطفى محمد بمصر 1935/1353.
- (82) الاعلام بمن حل بمراكش وأعمات من الاعلام، لابن ابراهيم العباس بن محمد السملالي المراكشي، المطبعة الجديدة بفاس 1355 — 1936/1358 — 1939، صدر منه خمسة أسفار، اختصاره، الاعلام.
- (83) دائرة المعارف الاسلامية : النص العربي.
- (84) سوق المهر الى قافية ابن عمرو، للسائح محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن

- الأندلسي، ثم الرباطي، المطبعة الاقتصادية بالرباط 1357/1938، اختصاره: سوق المهر.
 (85) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تأليف يوسف أشباخ، تعريب محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1359/1940 سفران : اختصاره، تاريخ الأندلس.
 (86) مجموع رسائل موحدية... نشر لبني بروفنصال، المطبعة الاقتصادية بالرباط 1941.
 (87) أمراؤنا الشعراء تأليف كنون : عبد الله بن عبد الصمد نزيل طنجة المهدية بتطوان.
 (88) الرحالة المسلمون، لزكي محمد حسن، مطابع دار المعارف بمصر 1945.
 (89) الحلل السندسية في الأخبار والأثار الأندلسية تأليف الأمير شكيب أرسلان، المطبعة الرحمانية بمصر ومطبعة الحلبي بمصر 1355 — 1358/1936 — 1939، صدر منها ثلاثة أسفار.
 (90) حضارة العرب تأليف غوستاف لوبون، تعريب عادل رعيتر، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة 1367/1948.
 (91) المستشرقون لنجيب العقيلي، الطبعة الأولى، ددار المعارف بمصر.

III مصادر أخرى

- (92) إحياء علوم الدين، للغزالي : محمد بن محمد بن محمد (ثلاثاً) الطوسي، المطبعة العثمانية المصرية 1352/1933 : في أربعة أسفار.
 (93) فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعة من الاتصال، لابن رشد الحفيد. ط. مصر.
 (94) الفتوحات المكية... لابن العربي الحاتمي : محمد بن علي بن محمد المرسي نزيل مكة المكرمة ثم دمشق، ط. مصر 1329 هـ في أربعة أسفار.
 (95) القوانين الفقهية، لابن جزى : محمد بن أحمد بن الكلبي الغرناطي مطبعة النهضة بتونس 1344/1926.
 (96) رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة، لأبي القاسم البتي : محمد بن أحمد الحسني، مطبعة السعادة بمصر 1344 هـ.
 (97) المعيار المغرب... للونشريشي : أحمد بن يحيى التلمساني نزيل فاس، المطبعة الحجرية الفاسية 1315 هـ : 11 سفراً.

- (98) الفتاوي الحديثة لابن حجر الهيتمي أحمد بن المكي، مطبعة التقدم العلمية بمصر 1346 هـ.
- (99) مواهب الجليل... اسم شرح المختصر الخليلي للحطاب : محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المكي، مطبعة السعادة بمصر 1328 : في ستة أسفار.
- (100) القانون لليوسي : الحسن بن مسعود، المطبعة الحجرية الفاسية 1310 هـ.
- (101) تاج العروس... اسم شرح القاموس للزيدي : محمد مرتضر بن محمد بن عبد الرزاق نزيل مصر، المطبعة الخيرية بمصر 1306 هـ : في عشرة أسفار.
- (102) برنامج خزانة القرويين بفاس، عمل بعض علمائها، المطبعة البلدية بفاس 1917.

VI نشرات متنوعة

- (103) الطوم الجزائري لسنة 1912/1330. الجزائر.
- (104) مجلة المقطف، مجلد 74. ج. 5. القاهرة.
- (105) مجلة الرسالة المصرية، مجلد 2. إعداد 64 — 66 القاهرة.
- (106) جريدة المباحث التونسية : السلسلة الجديدة. أعداد 25، 39، 42 — 43. تونس
- (107) مجلة الغربا، السنة الأولى : العدد 11، مع العدد الممتاز الخاص بالمغرب. تونس
- (108) جريدة المغرب عدد ممتاز. سلا.
- (109) الملحق الثقافي لجريدة المغرب : العدد 9. سلا.
- (110) مجلة الثقافة المغربية، السنة الأولى العدد 4 — 5 سلا.
- (111) مجلة رسالة المغرب، السنة الأولى : العدد 8، مع السنة 6 : العدد 4. الرباط.
- (112) مجلة المستمع العربي، السنة 3 : العدد 15. لندرة.
- (113) مجلة الأنوار عدد جمادى الأولى 1367 — مارس 1948. تطوان.

فهرس

5 كلمة
6 تشكرات
7 تقديم
11 طابع الموحدين
16 ازدهار المعارف بالمغرب
16 1. معاهد التعليم
30 2. المجامع العلمية
33 التفسير
44 العلوم اللسانية
47 التاريخ
53 الجغرافيا
57 الجغرافيا والجغرافيون
69 الفلسفة
74 العدد
78 التنجيم
82 المنطق
86 المناظرة
87 الكيمياء
88 الطب والصيدة

95 الآداب
123 نماذج من أدب هذا العهد
123 1. النشر
139 2. الشعر
159 نهضة الفنون
189 الذخائر والآثار في هذا العهد
191 إحياء علوم الدين
200 ملحق : أهم فقرات المدخل لكتاب «الأسرار والعبر»
203 معالم ثقافية في مراكش
209 المصادر والمراجع

لقد هجم الأستاذ المنوني على موضوعه ولم يتناوله من ذيوله ولا من أطرافه، بل قصد إلى اللَّب والصميم، وترك اللَّف والدوران وإن كان قد قدم بين يديه مقدمات فإنها مما يرتبط بمادته تمام الارتباط ويكون كالإطار الجميل المحيط بالصورة والمتمم لمنظرها البديع. ثم هو قد رتبته ترتيباً طبيعياً فتناول العلوم ثم الآداب ثم الفنون، وهذه أيضاً تناولها بالنظام الكامل والترتيب الواجب اتباعه في كل منها، فالسلسلة متتابعة الحلقات، والأفكار متسلسلة لا يجد القارئ أدنى عنت في الربط بينها بل إنها في ذلك النظام والترتيب لتفريه بالمطالعة والاسترسال في القراءة حتى يفرغ من كل بحث وقد أحاط به علماً تصورياً وتصديقياً في زمن يسير وجهد غير كثير.

على أن جوهر الموضوع ومادة البحث في كل باب من هذه الأبواب الثلاثة، قد استوفى استيفاء تاماً بالنسبة لما هو موجود ومعروف في المصادر حتى الآن. فلم يترك شاذة ولا فاذة إلا أحصاها وحصلها ولا شاردة ولا فاردة إلا تتبعها وقيدها، وهذا جهد المقل الذي يستوجب الشكر الكثير.